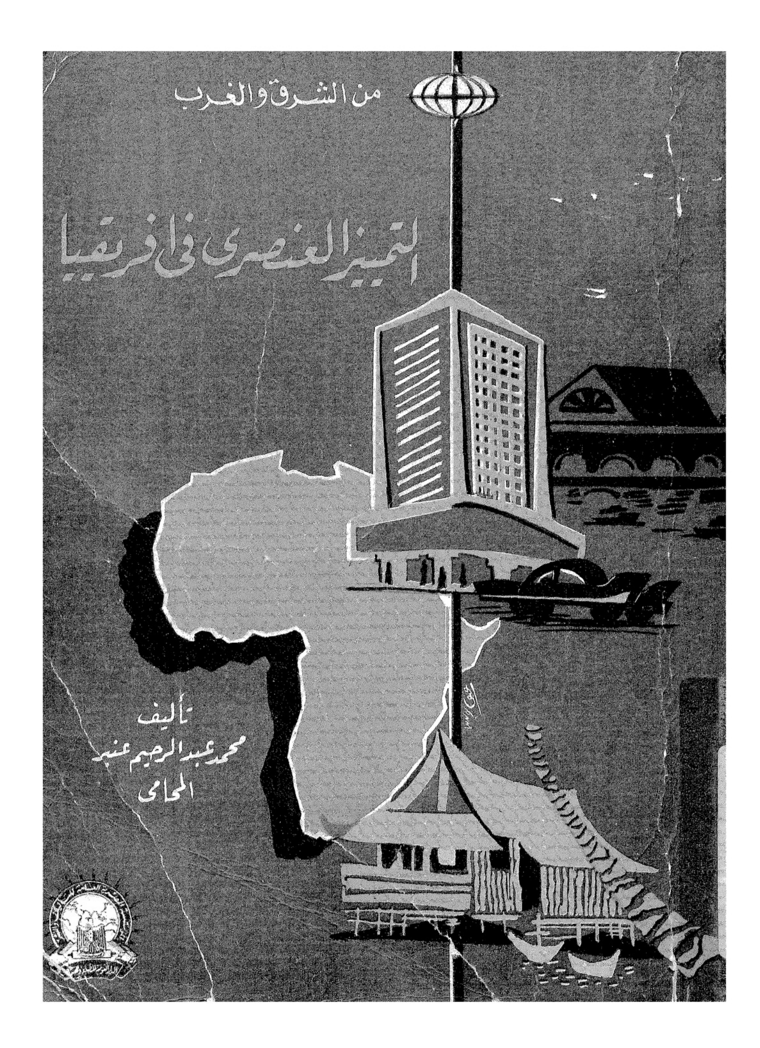

من الشرق والغرب
التمييز العنصري في أفريقيا
تأليف
محمد عبد الرحيم عنبر
المحامي

من الشرق والغرب

# التميز العنصري في افريقيا

تأليف
محمد عبد الرحيم عنبر
المحامي



الناشر
الدار القومية للطباعة والنشر

# مقدمة

ان العنصرية « كفلسفة » أو « عقيدة » ولدت في الشعب اليهودى ، واستشهدوا عليها ، بنصوص من « العهد القديم » ، باعتقادهم أنهم شعب الله المختار .

وجاء بعدهم الأوروبيون الذين استغلوا التعصب الدينى فى القرون الوسطى فى حربهم الاستعمارية الكبرى ضد الشعوب الاسلامية بحجة أنهم ليسوا مسيحيين . وقد كانوا فى ذلك ـ ولاشك ـ يمارسون التمييز العنصرى كما مارسه اليهود .

ومن العجيب أنه فى العصر الحديث أقام هتلر « الرايخ الثالث » على نفس العقيدة فى المانيا ضد اليهود اصحاب العقيدة ذاتها .

ولما تبددت هذه « الخرافة الدينية » أيد الاستعماريون نفس العقيدة « كمبدأ سياسى » أساسه عدم المساواة بين الرجل الأبيض وغيره من الملونين أو السود سواء فى افريقية أو فى الولايات المتحدة ، وهما القارتان الوحيدتان اللتان نكبتا بهذه الوصمة الانسانية التى بدات مطارق المقاومة والاستنكار تنزل على راسها سواء من الشعوب المنكوبة بها ، أو من المحافل والمجتمعات الدولية .

وكما كان للاضطرابات التى حدثت فى قرية « شاربفيل » فى اتحاد جنوب افريقية فى مارس ١٩٦٠ من أثر عميق فى جذب انتباه العالم والشعوب الأفريقية الأخرى الى « جرثومة التمييز العنصرى » فان نفس الأثر قد كان للاضطرابات التى حدثت فى ولاية « الاباما » ، احدى الولايات المتحدة ، فى مارس ١٩٦٥ بزعامة الدكتور لوثركنج العالم الزنجى الحاصل على جائزة نوبل للسلام .

ولقد تبارى زعماء العالم ، ومفكروه ، والسياسيون فيه فى بيان خطر هذه « الجرثومة الخبيثة » على الحضارة الانسانية والسلام العالمى .

فقد حذر لورد كارادون سير هيرفوت ، رئيس الوفد البريطاني في الأمم المتحـــدة ، من أن الحرب العنصرية التي بدأت في جنوب أفريقية وانتشرت في جميع انحاء العالم تعتبر أخطر كثيرا من الحرب النووية •

وقال المؤرخ البريطاني الكبير « أرنولد توينبي » في مقال حديث له :

« في الحقيقة ان الجرائم التي ترتكب ضد اي جنس من الأجناس البشرية في أي مكان في العالم هو أمر يخص البشرية كلها • فاضطهاد الأقلية الأوروبية للأغلبية الأفريقية ليس جرما في حق الأفريقيين وحدهم وانما في حق الجنس البشري كله • فان ما يجري الآن في جنوب أفريقية وفي روديسيا يثير استياء وضمير الرأي العام العالمي كله • لذلك فان من حق العالم ، بل من واجبه ، أن يتدخل في هاتين الدولتين لازالة هذه الاهانة الموجهة الى البشر كلهم • وليس هناك ما يمنع من استخدام القوة المسلحة كوسيلة أخيرة للتدخل ، اذا لم تفلح الوسائل الأخرى الأقل عنفـــا » •

وجاء في الميثاق الوطني عن ذلك :

« ان اصرار شعبنا على مقاومة التمييز العنصري هو ادراك للمغزى الحقيقي لسياسة التمييز العنصري • ان الاستعمار في واقع أمره هو سيطرة تتعرض لها الشعوب من الأجنبي بقصد تمكينه من استغلال ثروات الشعوب وجهدها • وليس التمييز العنصري الا لونا من ألوان استغلال ثروات الشعوب وجهدها . فان التمييز العنصري بين الناس على أساس اللون هو تمهيد للتفرقة بين جهودهم • ان الرق كان الصورة الأولى من صور الاستعمار • والذين ما زالوا يباشرون اساليبه يرتكبون جريمة لا يقتصر أثرها على ضحاياهم ، وانما يلحقون الأذى بالضمير الانساني كله » •

ويعالج هذا الكتاب التمييز العنصري كنظرية ، وأهم التطبيقات لهذه النظرية في افريقية بالذات مشيرا الى جذورها الضاربة في أعماق التاريخ• وأفريقية هذه ــ كما نعلم ــ هي مهد الحضارة ، وموطن الانسان الأول !

وان كل جهد يبذل في اعطاء صورة واضحة عن « جرثومة التمييز العنصري » لهو رصيد جديد يثري الحضارة الانسانية ، ويوقظ الضمير العالمي •

مايو سنة ١٩٦٦ .

محمد عبد الرحيم عنبر
المحـــامي

# الباب الأول

## العنصرية بين العلم والتاريخ

الفصل الأول ـ افريقية مهد الحضارة الأولى

الفصل الثانى ـ أفريقية ذات نسيج حضارى واحد

الفصل الثالث ـ تجارة الرقيق كمقدمة للاستعمار والعنصرية فى افريقية

الفصل الرابع ـ الفلسفة العنصرية بوجه عام

## الفصل
## الأول : افريقية مهد الحضارة الأولى

ان الحقيقة التى أثبتها التاريخ أن لنشاط سلالة من سلالات الجنس البشرى أثره فى نمو الحضارة وتطورها ، وبالتالى امتياز هذه السلالة، وتفوقها على غيرها • وقد يؤدى هذا الى تقوية مركز السلالة المتفوقة اقتصاديا ، أو سياسيا ، أو عسكريا ، وربما دوليا أيضا •. فالمسألة مسألة ظروف وليست مسألة جنس أو تفرقة عنصرية كما يسمونها •

وهناك من يقرر أن فكرة النشوء التلقائىSpontancous Generation قد طرحها علماء البيولوجيا جانبا منذ أمد طويل ، ومع أن هؤلاء العلماء يقرون أن كائنات معينة قد تتطور لأسباب مجهولة ، وتبعث الى الوجود بفصائل جديدة ، الا أنهم مقتنعون اقتناعا عميقا بأن كل الكائنات الحية تشترك فى وحدة جوهرية • وحتى حينما يعجزون عن اثبات فكرة الاستمرار Continuity فانهم يسلمون بصحتها • ومؤدى هذه الفكرة ان كل كائن حى متصل فى النهاية بكل كائن آخر(١) •

ومن الخطأ أن نعتقد ان الارتقاء قد حدث بصورة تلقائية فى كل أنحاء العالم • بل ان كل مانعرفه عن نمو الثقافات ، وانتشارها انما يبين أن أغلب الجماعات فى العالم التى تخطت مرحلة جمع القوت ، ومارست أى فن من الفنون ، أو اية حرفة من الحرف الأساسية انما تدين بالفعل فى رصيدها الثقافى لجماعة أخرى مع استثناء جماعة واحدة هى البادئة(٢)•

ومن الواضح أنه لم يكن فى العالم بأسره ــ فى قديم الزمان ــ سوى اقوام تنتمى ثقافتها الى مرحلة جمع الطعام حيث لم تكن بدأت زراعة

---

(١) نمو الحضارة The growth of Civilisation W. r. Perry ترجمة لويس اسكندر باشراف وزارة الثقافة . ص ٥

(٢) المصدر السابق ص ٧ •

ما تحصل منه على قوتها ، أو استئناس الحيوان الذى تأكل لحمه أو تشرب وتستغل لبنه •

وبعد عدة آلاف من السنين اكتشف الانسان زراعة النباتات ، وتربية الحيوانات الغذائية • وبذلك بلغ من الثقافة مرحلة انتاج الطعام •

وتدل الآثار على أن الارتقاء الكبير فى ثقافة العصر الحجرى القديم انحصر فى جزء محدود نسبيا من سطح الكرة الأرضية ، كما تدل على أن انسان هذا العصر قد عرف النار منذ أزمنة سحيقة جدا وأنه كان ينتقل فى جماعات وراء مصادر المواد الخام •

اما أعظم نشـــاط فى العصر ذاته كان فى مصر • وكان للمصريين أسلوب رائع فى شطف الحجر بطريق الضغط • كما أنه لم يكتشف فى أى بلد من بلاد العالم صناعة صوانية تماثل فى رقتها تلك التى قامت فى مصر وفرنسا وأسبانيا • ومن الجائز أن الاختراعات المتنوعة اهتدى اليها الانسان فى آسيا الصغرى وشمال افريقيا ، وبلاد العرب ثم نقلت الى أوربا(١) •

واذا أردنا أن نبحث عن الجهة التى بدأ فيها انتاج الطعام فيجب أن نذكر أن شواطىء البحر الأبيض كانت مسرح الارتقاء الأساسى للثقافة فى العصر الحجرى القديم ، وأن أعظم الحضارات القديمة وأسبقها نشأت فى تلك المنطقة(٢) •

يقول الأستاذ اليوت سميث فى الطبعة الثانية من كتابه « المصريين القدماء » :

« لقد فعل المصريون أكثر بكثير من مجرد ابتكار الزراعة ، وابتداع أقدم الديانات ، وفنون الحكم • فلم يقتصر عملهم على التفنن فى الصناعات الخشبية والحجرية ، وفن البناء ، بل يبدو أيضا أنهم عرفوا الكتان ، وحرفة النسيج ، واستعملوا الذهب والنحاس ، وصنعوا أدوات ومعدات معدنية • وكانوا أول من حسب السنة الزمنية ، وابتكروا التقويم ، ثم استبدلوا بالحساب التقريبى الذى يقوم على تاريخ الفيضان السنوى قياسا دقيقا يقوم على ملاحظة حركات الشمس • كذلك اخترعوا فن بناء

---

(١) المصدر السابق • ص ٢٨ ـ ٣٠ •

(٢) المصدر السابق ص ٣٢ ، ٣٣ •

السفن ، وشيدوا أول مراكب تجوب البحار • وتتجلى أصالة تلك المدنية المصرية فى آلاف التفاصيل التى تتكون منها مدنيتنا نحن • فهناك فن الحلاقة ، واستعمال الشعر المستعار ، وارتداء القبعات والأخفاف وأنواع أخرى من الملابس •

وهناك الى جانب ذلك الكثير من الأدوات الموسيقية ، والمقـــاعد ، والأسرة ، والوسائد ، والمجوهرات ، والعلب التى توضع فيها ، ومصابيح الاضاءة •

كل هذا قليل من كثير من ذلك الميراث القديم الذى انحدر الينا من وادى النيل(١) •

ونحن فى بحثنا عن نشأة أى فن أو حرفة يجب أن نحصر انتباهنا فى الظروف التى كانت قائمة فى المجتمع الذى نظن أنه كان موطن هذه الحرفة أو ذلك الفن • ويظهر هذا جيدا فى حالة اكتشـــاف استعمال النحاس • فالمعروف أن المصريين فى عصر ما قبل الأسرات كانوا يطلون وجوههم بمسحوق أخضر ، يحصلون عليه من تفتيت خام النحاس الأخضر وصحنه(٢) •

وفى هذا الصدد يقول مستر دونالد ماكنزى أنهم كانوا يعتبرون اللون الأخضر يبعث الحياة • والسبب فى هذا أنهم كانوا يرون أنه لون مياه الفيضان حين تكون محملة بالمواد النباتية القـــادمة مع النهر من السودان • وبمرور الوقت وجدوا أن ذلك الدهان الأخضر اذا ما صهر أنتج النحاس • ومن هذا المعدن صنعوا الخرز ، والشرائح المعـــدنية ، والدبابيس ، ثم المدى والأزاميل • يعتبر اختراع الأزاميـــل من أهم الأحداث فى تاريخ العالم • فهو الذى أدى الى التقدم الثقافى العظيم الذى بدأ فى عهد الأسرة المصرية الأولى • ويجب الا يغيب عن الذهن ، فيما يتعلق باستعمال النحاس فى صنع الأزاميل ، أنه لا يوجد فى أى بلد آخر من بلاد العالم ما يماثل هذا الذى حدث فى مصر • ومن السهل أن يقول قائل ان المستقبل قد يمدنا بأدلة على أن الانسان قد توصل فى جهة أخرى من العالم الى اكتشاف النحاس • وردنا على هذا أنه حتى يجىء

(١) المصدر السابق ص ٤٣ •

(٢) المصدر السابق ص ٤٤ •

ذلك الدليل يجب أن نرضى بهذا الدليل القائم اليوم عمليا ، وهو أن المصريين هم الذين اكتشفوا استعمال النحاس ·

ولقد أجمع الثقاة على أن المصريين هم أول من بنى سفنا تجرى فى المحيط · وليس أبعد عن الصواب من أن يظن بعض الناس أن قدماء المصريين لم يبرحوا وادى النيل · فمنذ بدء الأسرة الأولى على الأقل ( سنة ٣٣٠٠ ق·م ) كانوا يرسلون حملاتهم الى البلدان الأخرى للحصول على مواد مختلفة يرغبونها · ولهذه الحقيقة علاقة هامة بموضوع نشأة الحضارة وانتشارها · والى جانب ذلك فان أقدم السفن البحرية التى وجدت لدى شعوب أخرى انما بنيت على طراز السفن المصرية · وعلى هذا فالى مصر وحدها يرجع الفضل فى أنها كانت الرائد الأول فى بناء السفن . ولها بحق أن تنال هذا الشرف حتى يقوم الدليل على العكس(١) .

وهناك ابتكاران آخران يعود فضل السبق فيهما الى المصريين وهما : الحروف الأبجدية ، والتقويم الشمسى · وقد توصل المصريون الى وضع الحروف الأبجدية فى عهد الأسرة الأولى · والمعروف أن كل الحروف الأبجدية الأخرى اشتقت من هذا المصدر الأصيل ·

أما التحنيط فلاشك فى أنه من أهم ما ساهم به المصريون فى ثقافة العالم ، اذ تتركز حوله طائفة كبيرة من المعتقدات والعادات ورد ذكرها فى كتاب « نشأة السحر والدين » ويتصل به ما فعله المصريون من تطوير أفكارهم عن الحياة بعد الموت · وبهذا بدءوا سلسلة من الثقافة ليس فى الاستطاعة تقدير نتائجها الهائلة (٢) .

واذا درس القارىء مؤلفات مثل كتاب « الفن البدائى فى مصر Primitive Art in Egypt » للأستاذ كابارت فسوف يقتنع بأن المصريين القدماء كانوا أول من توصل الى الاختراعات · كما يقتنع بأن مصر اذا قورنت بمجتمعات أخرى من المجتمعات القديمة مثل سومر ، وعيلام ، وكريت فلها بينهم موضع الصدارة ، وكلما ازداد معين معرفتنا وعلمنا تأكد لنا فى وضوح أكثر ما كان لهم من سبق وتفوق (٣) .

ومن المستحيل عمليا أن نبين أى عنصر من عناصر الثقافة قد أدخل على مصر من الخارج فى ذلك الزمان السحيق · وقد يبدو هذا القول

---

(١) المصدر السابق ص ٤٥ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٧ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٨ .

جريثا • فان رأى القارىء المتشكك ذلك فما عليه الا الرجوع الى مؤلفات مثل كتاب Summer and Akkad للأستاذ L.W. King وكتابه الثـانى Egypt and Western Asia الذى اشترك فيه مع الأستاذ H.R. Hall حيث يعترف الكاتبان اعترافا حاسما بعجزهما عن التثبت من وجود أى تاثير للثقافة البابلية فى مصر •

ويسوقنا هذا الى نقطة بالغة الأهمية فى نظرية ارتقاء الحضــارة ، وانتشارها ••• فقد اتضح ان مجتمعا واحد من المجتمعات القديمة لم يبلغ ما بلغته مصر فى تملكها ناصية الحرف والفنون فى مجموعها (١) .

ولم ينحصر تفوق المصريين على شعوب عيلام ، وسومر ، وكريت وغيرها من الشعوب القديمة المعاصرة ••• فى الأسلوب الفنى فحسب ، بل ان ثقافتهم كانت أغنى من ثقافة أى مجتمع آخر ينتمى الى نفس العصر • بل ويتجلى هذا التفوق منذ أقدم العصور ، التى يمكن أن تعقد فيها مقارنة، ويظل قائما آلافا من السنين حتى اضمحلت مصر اضمحلالهــا الأخير ، وانتقلت زعامة الحضارة الى أيدى اليونانيين (٢) .

ومما لاشك فيه أن الحضارة المصرية ، فى عصر مينا ، قد أثرت فى حضارة اليونان• يقول الأستاذ آرثر ايفانز :

« عند ما نعلم كم من العناصر المشتقة من العصر المينوى طالت حياتها فى أرض هيلاس ( اليونان ) Hellas يتجلى لنا على الفور معنى فضل مصر التالد • وتبدو لنا المؤثرات المصرية التى كانت تعتبر حتى الآن مجرد حدث ثانوى ، أصلا قائما فى مهد حضارتنا (٣) .

ويرجع الأغريق أسراتهم الحاكمة القديمة الى أصول فى بلاد تقع الى الجنوب منهم وأخصها مصر • فنطالع فى القصص الأغريقى أن دانوس، مؤسس الأسرة المالكة فى أرجوس ، جاء من مصر • وزيادة على ذلك كان المفروض أن دانوس هذا ابن ملك مصر ، وابن شقيق ملك فينقيا • أى أن الأغريق ربطوا أقدم أسراتهم الحاكمة بالأسرات الحاكمة فى مصر• والمعروف أن هيرودوت كان مقتنعا أن الأغريق قد أخــذوا عن المصريين آلهتهــــم (٤) .

---

(١) المصدر السابق ص ٥١ •
(٢) المصدر السابق ص ٤٢ •
(٣) المصدر السابق ص ٦٢ •
(٤) المصدر السابق ص ١٨٠ •

وان هجرة الأفريقى داخل قارته ، واقامته فى أنحائها العديدة ، بدأت من سنين ممعنة فى القدم ... لاسبيل معها الى معرفة الطرق التى اتخذها فى تجواله ، أو العوامل التى استجاب لها حين كان يجول جولاته ويستقر لأن تكاثر الانسان فى أفريقيا، واستقراره أو هجرته فى أرجائها بدأت من ملايين من السنين لا يعرف عددها حتى الآن بشكل قاطع (١) .

وحوالى عام ٥٠٠٠ ق.م. ظهرت على وجه القارة نماذج جديدة من البشرية . وكان أظهر هذه النماذج الزنجى ، أو شبيه الزنجى ، عثر المنقبون على آثاره الباقية قرب الخرطوم الحالية .

وجاءت سنة ١٩٥٨ باضواء جديدة على سجل ظل حتى ذلك التاريخ مظلما ، كثيف الظلام . فقد رجع لباريس رحالة فرنسى من جولة طويلة فى الصحراء الكبرى يحمل مجموعة من صور رائعة التقطها لحفر وصور على الصخور ، أبانت التاريخ البشرى على نطاق وصورة لم يعهدها أحد من قبل . رأى الناس فى هذا العرض أساليب متنوعة للتصوير وللحفر على الصخور دلت على سلسلة مذهلة من الشعوب تعاقبت على الصحارى عبر الملايين من السنين .

رأوا صورا لنساء ورجال وحيوانات ابدعتها أصابع فنانة حساسة. رأوا صورا للحرب وأخرى للسلام . هذه تمثلها القرى والمزارع الخضراء، يحيط بها الأمن ، وتلفها الدعة . وتلك تمثلها عربات ورماح ودروع حولها صخب وضجيج (٢) .

وأبدع هؤلاء الفنانون الأقدمون فصوروا آلهة بارعة لاشك فى أنها أتتهم من مصر القديمة . ويرجع العلماء الذين فحصوا هذه الآثار أن أيديا زنجية صنعتها سنة ٤٠٠٠ ق.م. ، أو بعدها بقليل .

وقد درس هذا الرحالة الفرنسى ، فى صبر حميد ، أسلوب التصوير والحفر على الصخور التى عثر عليها ، وانتهى الى أن الصـــحراء عرفت ستة عشر شعبا وفترة ، لا أربعة شعوب وأربع فترات من الاستيطان فحسب . حقائق ثورية ما خطرت للعالم قبله ، فقد كانت الصحراء حتى ذلك الحين كتابا مغلقا ، ماحسب أحد أن قدما قد سارت يوما ، أو أن الحياة قد سرت ، فيه (٣) .

---

(١) افريقيا تحت أضواء جديدة . باذل دافدسن . ترجمة جمال . م . أحمد . ص ٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٨ .

(٣) المصدر السابق . ص ٤٩ .

## الفصل
## الثاني : افريقيا ذات نسيج حضارى واحد

يعيش الحاميون في أيامنا هذه في الشمال الشرقى من القارة • ويكثر شعب البانتو فى الشطر الجنوبى • أما الزنوج فيسودون غرب القارة •

وهذا التوزيع للأجناس هو توزيع جغرافى ، أو لغوى ، اقتضته الضرورة العلمية ليتيسر البحث ، وادراك ماجريات التاريخ القـــديم والحديث للقارة • ولايعنى مطلقا أن شعبا منها هو أكثر الشعوب شأنا من غيرها •

ويهمنا أن نؤكد ـ كما سبق ان قلنا ـ أن علو الشأن وانحطاطه فى الشعوب بوجه عام نظرية قديمة لا أساس لها من علم ، أو تاريخ •

ومن باب أولى فى قارتنا بالذات ، التى لهـــــا ـ بعكس غيرها من القارات ـ نسيج حضارى واحد ، وتاريخ حضارى واحد بدأ من الشمال ثم زحف الى الجنوب على الأرجح • وان كان هذا لايعنينا فى كثير أو قليل أمام هذه الوحدة التاريخية ، والحضارية ، والنفسية الواحدة التى أثبتها العلم ، وأكدتها الآثار •

وهناك سبب آخر يدعونا لتأكيد الوحدة الافريقية القديمة ، وهو أن كثيرا مما خلفه الأفريقيون فى الماضى يرده اشباه العلماء الى « شعوب خارج القارة » لايتبينونها ، ولا يحددونها ، ولا يوضحون أصـــــولها ، ولا يفسرون لنا من أين جاءت ، اذ لم يكتفوا بأن خلقوا أسطورة علو الحاميين على الزنوج ، مدعين أن الزنوج أعجز من أن يقوموا بهذه الآثار الفنية الرائعة على النحاس ، أو البرونز ، أو غيرها • كل شعوب الأرض ادعت ان لها نصيبا من هذه الآثار ولكن التنقيب الحديث قد أثبت بالدليل القاطع أنها كلها من أصول أفريقية بحتة(١) •

(١) المصدر السابق • ص ٥١ •

ولم تشرع الصحراء الكبرى تفقد خصوبتها الا فى الأربعة آلاف سنة الأولى قبل ميلاد المسيح • نضبت مياهها قليلا على مر الأيام ، فجف ما كان يجرى نحو الشرق يرفد نهر النيل ، ويسيل للغرب يرفد نهر النيجر • وأكبر شاهد على خصبها القديم هذه الأحواض اليابسة والمجارى الجافة التى يراها الآن المسافر فى أقطارها المختلفة ، تغطيها الرمال ، وكانت من قبل دافقة المياه • وهجرت الشعوب الأقليم الذى انقطع مورد المياه فيه كما دلت الآثار التى عثر عليها قرب مدينة الخرطوم كما قدمنا • فقد أشارت هذه الآثار بوضوح الى أن اقـــدم زنوج العصر الحجرى كانوا يعيشون هنـــاك حيث اهتدوا الى فنون العصر وصناعاته ، ووضـــعوا باكتشافاتهم اللبنات الأولى التى قامت عليها حضارة النيل العظمى •

ولاشك أنهم مشوا خطوات نحو حضارة غير مسبوقة • من صنعهم ، ووحى أرضهم • صنعوا الفخار ، وصنعوا أسنة ذات شرشرة لرماحهم التى صنعوها من العظام ، واستبدلوا بها فيما بعد صنارات كبيرة ذات أسنان ، لها مقابض مثقوبة لصيد الحوت •

وتشهد النوبة الوسطى بصلة الصحراء هذه من ناحية ، وبخصبها من ناحية أخرى • فآثار المياه التى نضبت ، والخضرة التى جفت تراها واضحة حيث ذهبت . والقليل الذى لقيه العلماء هناك يدل على أنها كانت غنية بآلاف الأبقار والضأن ، ولم تعرف الفقر(١) •

ومع ذلك لم تكن القطيعة المفروضة بين الشمال والجنوب ، بسبب هذا الحاجز الرملى الهائل ، كاملة • فقد كان بين الشطرين طريق للتجارة يتجه من فزان فى الشمال ، الى النيجر فى الجنوب • وكان بينهما طريق على ساحل البحر الأحمر يطوق الجانب الشرقى فى قرن أفريقيا • طريقان استعملا للغارة والتجارة بين الشطرين رغم وجـــود الصحراء . وكان القرطاجينيون رابطة قوية بين الشطرين تجوب سفنهم الجانب الغربى من افريقيا ، تربطه بالشمال والشمال الشرقى • ومضت قرون بعدهم عرف فيها أهل الصحراء الخيل حوالى سنة ٢٠٠ قبل الميلاد ، وعرفت المركبات • وتقدمت الشعوب فى أكثر من مجال(٢) •

ولانريد بهذا ان نوحى بأن شعوب القارة كانت على درجة واحدة من الحضارة أو الثقافة • لا ، اذ لم يكن بد من أن تنمو هذه القارة ــ الضخمة

---

(١) المصدر السابق ص ٥٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٥ .

المترامية الأطراف ـ نموا غير متسق • لايتماثل كل جزء منها مع الجزء الآخر • فبعض الشعوب لم يكن فى وسعها ـ لعوامل معينة ـ أن تلحق بالبعض الآخر فى سباق التنافس والتقدم • ففى بعضها الغابات والسهول والجبال العالية ، والجو الصحى الملائم ، والرى المتوافر حيث تجرى الأنهار العظيمة والبحيرات الواسعة ، أو تتدفق مياه الآبار العميقة الغنية• وفى بعضها الآخر الجفاف ، والمستنقعات والمناخ القـــاسى ، والأمراض المتوطنة • وفى شمالها التقت حضارات الهلال الخصيب ، يتفاعل بعضها مع بعض ، وينافس كل منها الآخر ليتفوق ويبدع ، حتى استطـــاعت شعوب هذه المنطقة ان ترقى الى مفاخر عصر البرونز وبهائه ، لاتخترق الصحراء الكثيفة الا اصداء خافتة منه ، ونشأت المدن الزاهرة ، وانتشرت المروج الخضراء • وفى الجنوب خمدت الحضارة نوعا أو تخلفت • مع ذلك تدلنا الآثار على أنه حتى غابات بلاد الكونغو الكثيفة ، التى تقوم حولها كالحائط ، قد اخترقتها فى قديم الزمان قبائل عديدة لاتعرف لها اليوم اسما •

وكان فى وسع الشعوب الأفريقية أن تهجر ما تكره من أرض غيرها على القارة الفسيحة الغنية بخيراتها ، القليلة ـ وقتذاك ـ بسكانها • لم يكن على الأفريقى القديم أن يواجه ما واجه غيره فى القارات الأخرى الكثيرة السكان ، الضيقة الأرض •

وسجل الأفريقى ، مع هذا الترحال وعدم الاستقرار ، حافل بالحركة والنشاط ، لم يعرف الجمود والركود قط • كانت تلك الشعوب الجنوبية العريقة روادا فى الحضارة الذاتية التى لم يقلدوا فيها أحدا • زرعوا حيث لم يزرع قبلهم انسان ، وحفروا الأرض بحثا عن المعادن ، وما رأوا أحدا قبلهم يفعل هذا • واتقنوا صيانة التربة على منحدرات التلال ، ورءوس الجبال ، وبنوا نظما اجتماعية جديدة معقدة ، ونقلوا ما جاءهم من اخوانهم فى الشمال من نظم وقدرات فنية ، واضافوا اليها جديدا • وكونوا لهم فلسفة وخلقوا ديانات على هدى مانقلوه ، وما أوحت به اليهم أمزجتهم وطبائعهم وبيئتهم وظروفهم الخاصة • تحمل كلها طابعا افريقيا واحدا ، لاتشترك فيه ولا تدعيه أية قارة أخرى[١] •

---

(١) المصدر السابق • ص ٦٥ •

ان نهر النيل الذى ينبع من أواسط القارة الأفريقية يضم حوضه مصر والسودان وأثيوبيا والصومال واريتريا واوغندا وكينيا وتنزانيـــــا فى وحدة طبيعية متماسكة ، « يصل بين أجزائها كما تصل النخلة بين جذورها وفروعها » على حد تعبير تشرشل فى كتابه « حرب النهر » فى معرض حديثه عن مظاهر الاتحاد بين شعوب هذا الحوض • وليس فى العالم كله بلاد ترتبط ببعضها برباط متين ، وبحزام طويل كهذا ، بل وتدين له بكيانها كله ووجودها كله ، ويتوقف عليه حياتهــــا ، وخصبها ، وحضارتها ، ومستقبلها • ولقد شبهه جون جنثر فى كتابه « داخل افريقية » بالقصبة البلعومية أو القناة الهضمية التى تسرى فيها مادة الحياة •

ومن قصيدة فى تمجيد النيل ، ترجع الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، أقتبس الفقرات الآتية :

حمدا لك أيها النيل الذى يتفجر من باطن الأرض ،

فهو الذى يسقى المروج ، وقد خلقه الاله لكى يطعم كل دابة وماشية ويرسل الماء الى الجهات البعيدة ، فيروى مجدبها ، ويطفىء ظمأها •

اله الزراعة ( كاب ) يحبه ، واله الصناعة ( فتاح ) معجب به •

فلولاه ما ازدهرت الزراعة ولا الصناعة •

ولولاه ما حصد القمح والشعير ، وامتلأت بها الخزائن •

والويل للأرض ومن عليها حين يقل ماؤه ، ويجىء فيضانه شحيحا قليلا •

هناك تهلك النفوس ، وينادى الجميع بالويل والثبور •

حتى اذا ارتفع وفاض ، انتشر الفرح والابتهاج فى كل مكان •

وضج الجميع حتى بدت أسنانهم •

هو الذى أنبت الشجر في كل بقعة ، ووفر الأخشاب لبناء السفن •

ولولاه ما كانت الجوارى تشق عباب اليم

فواعجبا له من ملك عظيم ••• ولكنه ملك لايجبى أتاوه !

ولايفرض ضريبة ••• صادق الوعد ، وفى بالعهد •

ان الخير الذى يجلبه أجل نفعا من الذهب والفضة ، وأعلى قدرا من الجوهر[1] •

---

(١) محمد عوض محمد : نهر النيل •

وجاء فى كتاب « تاريخ الأزمنة القديمة » لمؤلفه « ماكس رونكا » :

« ان سكان جميع مناطق شمال أفريقيا ، وأهالى وادى النيل ، وكذلك أراضى المستنقعات الواقعة عند جبال الحبشة .. كلهم شعوب تكون فصيلة واحدة ، ولاتزال لغتها الأصيلة محفوظة فى لغة البربر حتى اليوم ، بيد أن شعبة من هذه الفصيلة التى استوطنت وادى النيل وجدت من حسن البيئة ومناسبة الوسط ما جعلها تميز غيرها ، وتضع دعائم أقدم مدنية عرفها التاريخ .

وان من يقرأ كتاب الدكتور جورج بوشان ليجد من الايضاحات الكثيرة ، والمعلومات الوثيقة ما يبرهن على أن سكان مصر وكل هذه المناطق من عنصر واحد (١) .

ويقول بادج ، عالم الاجناس البريطانى ، ان المصرى منذ العصر الحجرى القديم والحديث أفريقى الجنس . وزاد على ذلك بأن قرر أن هناك أمورا كثيرة فى عادات المصريين القدماء ودياناتهم وسلوكهم تحمل على الاعتقاد بأن الموطن الأصلى لأجدادهم قبل التاريخ كانت أرضا تقرب من أوغندة الحالية ، وبلاد بونت التى هى بلاد الصومال فى الوقت الحاضر (٢) .

* * *

ومنذ أن عرف العرب افريقية لم تنقطع صلتهم بها . ولما جاء الاسلام توثقت عرى هذه الصلة القديمة ، اذ لم يعد أهل الجزيرة العربية وحدهم هم الذين يقصدون افريقيا للتجارة بل صار أهل أفريقيا يقصدون الجزيرة العربية للتجارة أيضا ، كما يقصدونها للحج والسياحة . وكان للعرب المسلمين فى افريقية ممالك وامارات امتدت حتى المحيط الأطلنطى . ويقدر البعض ان ٨٠٪ من سكان أفريقيا فوق خط الاستواء ، و ٥٠٪ منهم تحت هذا الخط مسلمون . وكان للعرب وحدهم حضارة زاهرة فى الوقت الذى كانت فيه أوربا غارقة فى بحر الظلمات والجهل . ومن المؤكد ان حضارة العرب ــ كما كانت حضارة المصريين والافريقيين القدامى ــ نبراسا لحضارة الغرب الحديثة فى العلوم والفنون . هذه

---

(١) كتاب « تاريخ مصر وافريقيا فى العصر الحديث . د . على ابراهيم عبده . ص ٨ .

(٢) المصدر السابق . ص ٩ .

الحضارة التى يتيهون اليوم بها علينا ويدلون ، ولا يريدون أن يعترفوا بأنها بضاعتنا ردت الينا .

فمنذ ظهر الاسلام خرج العرب من شبه جزيرتهم ، تدفعهم حماستهم الى نشر الاسلام وسقطت فى أيديهم أيضا الفرس والروم وعبروا الى افريقية وتابعوا زحفهم الى المغرب ثم عبروه الى الأندلس : الباب الجنوبى الغربى لأوربا .

ثم استقل شمال أفريقية العربى عن أسبانيا العربية ، ونشأت دول عربية متعددة فى المغرب مثل دولة الادارسة فى مراكش ، والأغالبة فى تونس ..

وفى القرن العاشر الميلادى ظهرت الدولة الفاطمية التى زحفت من تونس الى مصر وضمتهما فى وحدة سياسية مع أجزاء من آسيا زمنا غير قصير .

ولم يقتصر العرب على السيطرة على شمال افريقية بل توسعوا نحو الجنوب لتأمين حدودهم ، والسيطرة على القوافل التجارية التى كانت تنتقل بين شمال القارة ووسطها . وكان اتجاه العرب صوب الجنوب أمرا طبيعيا .

ومنذ ان فتح عمرو بن العاص مصر فى القرن السابع أرسل قواته لغزو النوبة . وكذلك توغل العرب من مراكش جنوبا حتى وصلوا الى مصب السنغال فى القرن العاشر . وقد أدى هذا الى نشر الاسلام فى حوض النيجر الأعلى . كما توغل العرب من فزان حتى كانم . وكذلك تقدموا جنوبا فى حوض النيل فى القرن الحادى عشر حتى وصلوا الى دارفور وقد اتجهوا شرقا فى النطاق الرعوى حيث التقت الموجتان المغربية والمصرية وتعاونتا على نشر الاسلام هناك .

ولم يلبث المهاجرون من العرب أن أوغلوا فى أنحاء القارة الافريقية المتاخمة للساحل الشرقى فشقوا طريقهم الى بلاد الحبشة ، والى أوغندا وتنزانيا ، والى مالاوى ، بل الى أقصى القـــارة الأفريقية جنوبا حتى مستعمرة الكاب . وليس أدل على ذلك من ان العرب ينتشرون فى جزيرة ( مالاجاشى ) مدغشقر ، وقد تكون منهم ومن الأجناس الأخرى مايعرف بالجنس الملجاشى .

والرابطة الاسلامية ، فى افريقيا اليوم تضم ما يزيد على ١٢٠ مليونا من ٣٠٠ مليون سكان القارة . وينتشر هذا العدد الكبير من المسلمين فى مصر ، والسودان وليبيا ، وتونس والجزائر ، والمغرب وزامبيا ، وسيراليون ، وليبريا ، وغانا ، ونيجيريا ، وغينيا ، والسنغال ومالى ، وتشاد ، والصومال ، وأثيوبيا ، وأوغندة ، وكينيا وتنزانيا ، وزنجبار ، وموزمبيق ، ونياسالاند ، ومدغشقر ، وجنوب أفريقية .

ولا ننسى ان هناك ملايين الافريقيين الذين يتكلمون اللغة العربية ، وهى أقدم لغة حية فى القارة ، وقد دخلت الى أطرافها الشرقية قبل الاسلام ، وتركت آثارها فى لغات الحبشة ، والصومال وزنجبار . ثم غمرت أرض أفريقيا مع الفرسان المسلمين أولا ثم مواكب النور والحضارة الاسلامية ، وبعد ذلك على أيدى علمائهم وفقهائهم . وعلى الرغم من أن اقليم السنغال يتحدث لغة محلية مختلفة أصولها عن العربية الا أنه تنتشر فيه كتاتيب تحفيظ القرآن الكريم . وعلى امتداد تخوم السنغال الجنوبية تنتشر قبائل الطوارق ، وشعب « الحوصا » فى اتجاه نيجيريا وبحيرة تشاد . ومع ان قبائل الطوارق والرحالة لها أيضا لغتها الخاصة ولكن لكل قبيلة منها فقيه يعلم اطفالها القرآن والحديث . أما الحوصا فان لغتها الخاصة فى الواقع تحريف لألفاظ اللغة العربية . وفى مدنهم الكبيرة مثل كانو ، وكادونا ، يحرص القوم على أن يتكلموا العربية ، ومنهم الفقهاء فى الدين وعلماء اللغة . وفى مناطق السودان الجنوبى الواسعة نجد أن لكل قبيلة لهجتها الخاصة ، ولكن لغة التفاهم بينهما جميعا « عربية » . كما ان هناك كتلة بشرية هائلة فى وسط وشرق وغرب افريقية تتكلم ، وتكتب لغة تعتبر فرعا مباشرا من اللغة العربية ، وهى اللغة السواحلية ، التى هى فى مجموعها أقرب اللغات الى اللهجة العربية فى جنوبى السودان ، وتمتاز عنها بانها لغة مكتوبة ، متطورة ، فيها شعر ونثر واغان ، وكتب ، وجرائد .

وهناك رابطة أخرى تربط جميع أجزاء القارة الآن ، هى وحدة الكفاح ، وحمل السلاح ضد المستعمر القديم والجديد . أى وحدة المصير . وحدة الأمل والألم .

ولولا اصالة وعمق جذور تلك الوحدة الافريقية القديمة والجديدة ، وحدة النسيج الثقافى والأصل الحضارى ما شهدنا اليوم هذا التقارب العجيب ، بين شعوب مزقها الاستعمار ، وبث بينها من أسباب وبذور

الفرقة والاحقاد مالم يفعله فى أى مكان آخر فى العالم حتى جعل بعضهم ينسون قوميتهم ولغتهم وروحهم الافريقية ، وتذوب شخصيتهم وعقليتهم فى شخصية وعقلية المستعمر ٠

فمن أجل اضعاف الروح القومية ، لقن اطفال المستعمرات الفرنسية السابقة خصوصا أناشيد مسمومة لتقديس فرنسا ، كانوا ينشـــدونها صباح مساء ٠ وتحتوى هذه الاناشيد على مجموعة ضخمة من الشتائم الموجهة الى التاريخ الافريقى ، والتحقير للشعب الافريقى ٠

ولنسمع ـ مثلا ـ النشيد الذى كان يردده اطفال مدارس داهومى كل صباح :

**سلام عليك ٠٠٠ يا أرض داهومى**
**أيتها الأرض المقدسة حيث يرقد أجدادنا**
**لقد تبنتك فرنسا كنفسها**
**ونحن كأبناء لها يجب أن نفرح**
**ومنذ ذلك اليوم دب فينا الأمل**
**فى أن نستحق ما فعلته فرنسا من أجلنا**
**ومن صميم قلوبنا نقول لك يا فرنسا**
**منذ الآن تستطيعين أن تعتمدى علينا**
**يا أبناء داهومى فى الريف والمدن**
**لنتذكر دائما أننا فرنسيون !**
**وسنبقى فرنسيين ٠٠ فرنسيين الى الابد !**

وهذا أيضا نشيد آخر أكثر بشاعة :

**يا فرنسا ان يدك القوية قد حطمت قيودنا**
**كان الطغاة يبيعوننا كالحيوانات !**
**كانوا يقتلون أولادنا ، ويجتاحون املاكنا**
**فجئت أنت ، وعتقتنا ، وجعلت منا بشرا !**
**اننا نحبك كما نحب أمهاتنا**
**لأنه لك يعود الفضل**
**فى القضاء على بؤسنا !**

أجل ! ان وحدة نسيج أفريقية الثقافى والحضارى ، رغم كل ذلك، قد تغلبت فى النهاية ونمت جذورها الأصيلة ، حتى ظهرت أخيرا عالية شامخة فى مؤتمر القمة للدول الأفريقية المستقلة الذى انعقد فى أديس

أبابا في مايو سنة ١٩٦٣ ، والذى اشتركت فيه ثلاثون دولة افريقية مستقلة هى : اثيوبيا ، الجزائر ، الجمهورية العربية المتحدة ، السنغال، السودان ، الصـــومال ، الكمرون ، الكونغو ، ( برازافيل ) ، الكونغو ( ليوبولدفيل ) ، النيجر ، أوغندة ، بوروندى ، تشاد ، تنزانيا ، تونس، جابون ، جمهورية أفريقيا الوسطى ، داهومى ، رواندا ، ساحل العاج ، سيراليون ، غانا ، غينيا ، فولتا العليا ، ليبريا ، ليبيا ، مالى ، ملاجاشى، موريتانيا ، نيجيريا .

ورغم اعتذار المغرب وتوجو عن الاشتراك فيه ، لأسباب خاصة ، الا أنهما انضمتا فيما بعد الى « منظمة الوحدة الافريقية » التى انبثقت عن هذا المؤتمر .

ان حضارة أفريقية الواحدة جعلت هذه الوحدة طبيعية ، وحتمية ، رغم كل العوائق والعقبات بل جعلت أفريقية المتحدة التى تمتد من داكار الى كيب تون ، ومن المغرب الى رأس الرجاء الصالح أمل كل أفريقى .

ان اختلاف اللون لا ينفى أن الدماء التى تجرى فى عروقهم جميعا هى دماء أفريقية ، تنبض بحب قارتهم .

## الفصل
## الثالث : تجارة الرقيق كمقدمة للاستعمار والعنصرية

لم يعرف المؤرخون على وجه التحديد متى بدأت تجارة الرقيق فى داخل أفريقية ، وبين أهلها أنفسهم حين كان يمارسها أبناء القـــارة انفسهم .

ولكن المقطوع به ان هذه التجارة لم تأخذ شكلها البشع الواسع ، الا على يد الرجل الأوربى الذى دخل القارة مستكشفا ، ثم تاجرا ، ثم غازيا ومستعمرا .

ذلك أنه قبل أن تطأ أقدام الأوربى أرض افريقية كان الرقيق عضوا حيا فى المجتمع ، وله مكان معين تحدده العادات والتقاليد .

فقد قسم فلاسفة اليونان الجنس البشرى الى قسمين : حر بالطبع ، ورقيق بالطبع . وقالوا ان الثانى ما خلق الا لخدمة الأول . وجعـــل أرسطو الرق نظاما ضروريا . فهو يرى أن الغرض الذى ترمى اليه الدولة انما هو مساعدة المجموعة لتحيا حياة سعيدة ، وأنه من الضرورى اتخاذ الأرقاء للقيام بأعمال الدولة التى تستدعى مجهودا ـ جسمانيا . لذلك اتخذ اليونان الرقيق من أسرى الحروب على حين تقلد اليونان مناصب الدولة الهامة ، وفازوا بعضوية المجالس الدستورية(١) .

أما الرومان ، فعلى الرغم من اعتقادهم ان الناس خلقوا احرارا ، فان الرق فى نظرهم هو نتيجة الأسر ، أو الميلاد ، أو الدين ، أو الفرار من الجيش .

وكان عند اليهود نوعان من الاسترقاق : استرقاق بعض أفراد منهم لارتكابهم خطيئة من الخطايا المحظورة عندهم شرعا ، واسترقاق غير اليهود الذين يؤسرون فى حروبهم التى كانوا يقيمونها بغير مسوغ ،

---

(١) النظم الاسلامية . د . حسن ابراهيم ( بالاشتراك ) . طبعة اولى . ص ٣٥٩ .

فكانوا يبيعونهم كما يباع المتاع ، سواء فى ذلك العبيد المستخدمين فى المنازل أو الحقول •

ثم جاء المسيح عليه السلام يعرض للرق ، ولم يعمل على الغـــائه أو تقليله • لذلك لم تثر المسيحية ، باعتبارها عقيدة ونظاما للحياة ، أية معارضة لنظام الرق فيما عدا بعض ملاحظات قليلة حول عصيان العبيد، واسداء النصح للسادة أن يحسنوا معاملة الرقيق • والواقع ان دخول المسيحية الى أوربا لم يغير شيئا من وضع الرقيق ولافيما يختص بالرهبنة. فقد أصبح فى وسع العبد أن يصبح حرا طليقا اذا اعتنق الرهبنة ، بل منع الزواج بين الأحرار والرقيق منعا باتا . كما أن الكنيســة نفســها كانت تملك الرقيق ، بل واقرت صراحة شرعية الرق . واعتمادا على سلطان الكنيسة استطاع أثرياء أوربا الاحتفاظ بأملاكهم من « الرقيق » بحجة أن ذلك يمنع السرقة والاستجداء •

وباسم الكنيسة أيضـــا استطاع المسيحيون المثقفون فى الولايات الجنوبية من أمريكا الشمالية ممارسة ابشع أنواع الظلم والقسوة فى معاملتهم لعبيدهم ، وما كان المسيحى الأوربى ليعترف بشرعية العلاقة التى تنشأ بينه وبين احدى امائه •

ولا يختلف نظام الرقيق عند العرب فى الجاهلية عنه فى الأمم الأخرى.

فقد كان الرق فى الجاهلية نتيجة الأسر فى الحروب • ويجوز مع ذلك استرقاق العربى للعربى ، بخلاف ما كان عليه الحال عند الرومان الذين كانوا يحرمون استرقاق الرومانى للرومانى • وكان من عادة العرب فى الجاهلية أنهم يجزون ناصية الشريف الرقيق عند اطلاقه . كذلك كان الاسترقاق نتيجة للشراء • ولذا كانت تجارة الرقيق من موارد الثروة عند القرشيين فى الجاهلية • وجرت العادة أن يولد ابن الرقيق رقيقا • وكان الأرقاء فى الجاهلية محرومين من كافة الحقوق المدنية ، ومن التصرف فى شئونهم الخاصة • وكان العبد يتحرر اما باعتاق سيده له مكافأة منه على عمل عظيم قام به ، أو لشجاعة فائقة أظهرها فى القتال، أو لاخلاصه الشديد لمولاه • ومن أنواع التحرير ما يسمى «السائبة[١]»

---

(١) هذه التسمية مأخـــوذة من تسبيب الدواب ، وهو تركها تذهب وتجىء حيث تشاء •

وهو أن يعتق السيد العبد فلا يكون بينهما عقل (١) ولا ميراث . ويجدر بنا أن ننوه هنا أن الرق عند العرب ليس معناه التمييز العنصرى، أو عداء الجنس حسب مفهومه الحالى . فاذا قالوا « العبد » فانهم يقصدون الأسير مهما كان لونه أو جنسه .

ولم يلغ الاسلام نظام الرق ، ولكنه عنى بالاسرى أيما عناية ، وأحاطهم بسياج من عدله ورحمته . فقد نزل الكثير من الآيات القرآنية الكريمة التى ترمى الى الرقيق(٢) .

وكان الأسر فى الحرب مصدر الرق فى الاسلام . وقد أصبح فى أيدى العرب عدد من الأسرى نتيجة الحروب التى قامت فى صدر الاسلام. وكان مصير الأسير اما الفداء أو الاسترقاق .

وقد سوى الاسلام بين الناس على اختلافهم ، فلم يفرق بين الأبيض والأسود ، والبدوى والمتحضر ، والحاكم والمحكوم ، والرجال والنساء ، كما حفظ حق المعاهدين . وجعل الله المؤمنين أخوة ، لاتفاضل بينهم الا بالتقوى ، يقول رسول الله (ص) فى خطبة الوداع : « أيها الناس . انما المؤمنون أخوة . ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى فضل على عجمى الا بالتقوى » . لذلك لايجوز للعربى أن يأسر العربى ، ولا أن يأسر المسلم المسلم ، وانما يصح الأسر اذا ما قاتل العرب الكفار .

ويقول الشيخ عبد العزيز جاويش : « ان الشرع لايبيح أن يسترق مسلم أصلا . ثم انه لايبيح بعد ذلك الا استرقاق أسرى حرب شرعية لم تقم الا على اعلاء كلمة الله تعالى ، مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم . أما استرقاق غير المحاربين ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كعبدة الأوثان فقال مالك والشافعى وأحمد فى احدى روايتيه : أن ذلك لايجوز مطلقا » .

أضف الى ذلك ان الرسول (ص) قد أمر بأن يؤذن بلال الحبشى على ظهر الكعبة . وكان قبل عتقه رقيقا . كما ولى الرسول أسامة ابن زيد ابن حارثة ، وهو مولى حديث السن ، جيش المسلمين وفيه وجوه الصحابة، وقد ترجل أبو بكر بجانبه حتى لقد قال له أسامة : ياخليفة رسول الله

---

(١) العقل = الدية .
(٢) المصدر السابق . ص ٢٦١ .

والله لتركبن او لأنزلن . فقال أبو بكر « والله لا تنزل ، ولا أركب » . وقد زوج الرسول ــ من قبل ــ مولاه زيد بن حارثة ــ أبا أسامة ــ زينب بنت جحش ابنة عمته ، ثم تزوج الرسول بها فيما بعد رغم أنها كانت زوجة ولده بالتبني .

ان الاسلام ضيق مجال الرق كثيرا عما كان من قبل وفتح مجالات تحريره وأمر بحسن معاملة الرفيق والأسير وسوى بينه وبين مولاه فى الطعام ، والشراب ، واللباس ، والتعليم ، والتهذيب ، وفى معظم الحقوق المدنية ، اللهم الا فى الرياسة . كما حض المسلمين على معاملتهم بالحسنى وحذر من اساءة معاملتهم . بل وكان من اختصــــاص المحكمة ان تقضى بتحرير الرقيق اذا ثبت أن سيده قد أساء معاملته . كما جاء فى الشريعة اعتاق الرقيق فى حالات كثيرة ، تشجيعا على تحرير الرقيق ، كالتكفير عن حنث اليمين ، أو كفارة عن بعض الذنوب ، أو وفاء لنذر أو تقربا الى الله ومثوبة .

وأهم من كل ذلك كان الرق فى الاسلام عارضا ، ولذا عمل على مساعدة الأرقاء على استرداد حريتهم بوسائل معينة كالمكاتبة ، وهى أن يتفق الرقيق ومولاه على مبلغ معين من المال يسدد فى أجل محدود ، فيصبح العبد حرا . وقد أجمع فقهاء المسلمين على أن مكاتبة العبد مستحبة، وللامام ابن حنبل فى رواية أنها واجبة متى طلبها العبد . ويشترط الفقهاء أن يراعى فى عقد الكتابة حال الرقيق . وثمة طريقة أخرى لتحرير العبد وهى « التدبير » أى أن يوصى السيد حال حياته بأن يكون عبده حرا بعد موته . واتفق الأئمة على أنه لو كان فى يد انسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه أنه عبده فكذبه الغلام ، فالقول للغلام مع يمينه أنه حر ، تطبيقا لقاعدة « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر »(١) .

ومؤدى هذا صراحة أن الاسلام يعتبر حرية الانسان هى الأصــل ، وأن الرق هو العارض ، فكلف من ادعاه بالبينة ، واكتفى ممن أنكر باليمين . وكان هناك طريق « الجزية » التى تفرض على أهل الذمة . وذلك يدفع مبلغ معين من المال ، وتقديم عدد من الرقيق . يتجلى ذلك فى معاهدة الصلح التى عقدت بين عمرو بن العاص وملك النوبة .

---

(١) المصدر السابق . ص ٣٦٤ .

وللاسلام عدا ذلك وسائل شتى لتحرير الرقاب . فقد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطى الحـــاكم للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبته ، وأن يشترى الحاكم بمال الصدقة العبيد ليعتقهم . كما أن الرقيق اذا بلغ سنا معينة أعتق وأصبح يعيش معيشة أى فرد آخر فى أسرة معتقة .

وقد سار الخلفاء الأمويون على نهج الخلفاء الراشـــدين . وكذلك الخلفاء العباسيون ولم تكن عندهم تفرقة عنصرية ، فأم المأمون فارسية، وأم المعتصم كانت تركية ، وأم المتوكل رومية .

وقد اعتمد ولاة مصر وسلاطينها على الرقيق فى جيوشهم ، فأكثروا من السودان والأتراك والروم والصقالبة . وكان الخليفة العزيز بالله الفاطمى أول من جلب المماليك الى مصر . ثم جاء الايوبيون ، وكانوا غرباء فى البلاد ، فرأوا أنفسهم فى حاجة الى الاعتزاز بهؤلاء الأرقاء . وأكثروا منهم ليكونوا جيوشا يعتمدون عليهم . وقد بلغ ما اشتراه السلطان نجم الدين أيوب منهم حوالى ١٢٠٠٠ رقيقا ، وبنى لهم ثكنـــات فى جزيرة الروضة حين شكى الناس منهم ، فاطلق عليهم اسم « المماليك البحرية » أو « مماليك النيل » . وقد عنى الايوبيون بتعليمهم حتى نبغ منهم كثيرون فى الفلسفة والعلوم والفروسية ، وتقلدوا المناصب العالية . ومنهم كانت شجرة الدر ، زوجة السلطان نجم الدين . وقد تولت سلطنة مصر سنة ٦٤٨ هـ ( ١٢٥٠ م ) ، ثم تزوجت من عز الدين أيبك التركمانى ، وفوضت اليه أمور المملكة . ثم نزلت له عن حكم مصر بعد ثمانين يوما برهنت فيها على كفاءة ممتازة ، وحكمة نادرة فى تصريف الأمور(١) .

ويقول J.B. Trend فى بحث من كتاب « تراث الاسلام »(٢) .

« كثر التزاوج بين المسلمين والمسيحيين . فقد تزوج عبد العزيز ابن موسى بن نصير وغيره من قادة الحملة ( على أسبانيا ) من عائـــلة وتزا(٣) ، وأصبحت أمهات الجيل التالى أسبانيات ، وأصبح مسلمو الأجيال التالية أميل الى أن يتخذوا أمهات أبنائهم من أولئك الأسيرات الشقراوات . وقد درس الأستاذ ريبرا سجلات سوق الرقيق فى قرطبة،

---

(١) المصدر السابق . ص ٣٧١ .

(٢) تراث الاسلام . ترجمة لجنة الجامعيين لنشر العلم . ص ١١ .

(٣) وتزا هو آخر ملك قوطى شرعى لاسبانيا وسمى مورخو العرب زوجة عبد العزيز ابن موسى بأم عاصم .

فى فترات متعــددة ، واسـتبان أن شراء الجـارية لم يكن بالعمـلية السهلة ، بل كان من الواجب أن يتم بحضور كاتب العقود . وكانت الأسباب التى تطلب من أجلها الجارية تبين وتوضع موضع الاختبار » .

« وموقف الاسلام من مشكلة الرق البشرى فى صوره المختلفة .. فى صورته البدائية ، وهى البيع والشراء للانسان .. وفى صورته الغير مباشرة وهى صورة الاسترقاق فى القيــادة والتوجيه عن طريق الأفقار والاذلال تحت تحكم نزعة الاستغلال والاحتكار ، وفى صــورته الجماعية وهى استعمار الشعوب والتحكم فى مصيرها ـ وموقف الاسلام من هذا كله يحدد الرعاية التى أولاها لعتق الرق ومحــاربة الاستغلال والقضاء على الاحتكار ، والدفع الى مقاومة المستعمر وتحرير الجماعة . وذلك لكى ينهض الفرد ، ويستعيد مستواه البشرى ، ولكى تنهض الجماعة وتستعيد كرامتها البشرية »(١) .

أما على يد الرجل الأوربى فقد أصبحت هذه التجارة « عملية امتلاك وحشية » كما وصفها المؤرخون ، وكما دلت الوثائق التاريخية .

ومما لاشك فيه أن تجارة الرقيق بمفهومها الحقيقى كانت من اختراع الفكر الأوربى ، وتنظيمه . ويقال ان « الفونسو جونزاليه » البرتغــالى الأصل كان أول من بين لقومه فى عام ١٤٣٤ أن فى امكانهم أن يجعلوا من الأفريقيين سلعة يتاجرون فيها . ولقد اختطف فى عام ١٤٤٠ اثنى عشر أفريقيا ، وضم اليهم امرأة من جنسهم ، على الشاطىء أملا فى أن يراها بنو قومها فيسارعوا الى محاولة انقاذها فيصطادونهم ! .. وبالفعل ظهر فى اليوم التالى مائة وخمسون أفريقيا أمطروهم وابلا من الحجارة ففر الصيادون البرتغاليون بجلدهم !! (٢) .

وسرعان ما حذا الأسبان بدورهم حذو البرتغاليين . ثم لحق بهم الهولنديون ، والفرنسيون والانجليز ، والألمــان ، والدانيماركيون ، والسويديون .

ويعتبر القرن الخامس عشر هو فترة كشف الساحل الافريقى . فبعد سقوط سبتة(٣) قاد هنرى ـ الابن الثالث لجوا ـ النهضة البحرية

---

(١) د . محمد البهى : الدين والحضارة الانسانية ص ١٨٤ . ط . الهلال .

(٢) و . أ . ابرهام : كيف تفكر أفريقية . ترجمة خيرى حماد . ص ١٢٨ .

(٣) فى منتصف عام ١٤١٥ أصدر جوا الأول ـ من الأسرة المالكة البرتغالية ـ قرارا بغزو « سبتة » فى شمال أفريقيا . وفى ٢١ اغسطس سقطت هذه المدينة فى يوم واحد بعد هجوم شديد .

البرتغالية التى بلغت أوجها فى نهاية القرن بأول رحلة لفاسكودى جاما الى الهند .

وفى سنة ١٤٤١ وصلت أول حمولة من الأسرى الافريقيين لبيعها فى سوق النخاسة الى ميناء « لشبونة » .

وقد تركز اهتمام البرتغال فى افريقية حتى سنة ١٥٥٠ فى الأراضى التى سبق اكتشافها . أى فى المنطقة من رأس بلانكو ( الرأس الأبيض ) الى الكاميرون . وفى سنة ١٤٨٠ توجه البحارة البرتغاليون الى سانت كاترين . ومن المرجح انهم انشئوا علاقات مع جزيرة ساوتومى البريطانية .

وقد ألقى جوا الثانى فى العقد الثامن من القرن الخامس عشر السيطرة على ٢٠٠٠ ميل من الساحل ، والتى أسمتها البرتغال فيما بعد أراضى ( غينيا ) . ومنذ ذلك التاريخ رفضت البرتغال باصرار وعناد أى تدخل أجنبى فى هذه المناطق التى اعتبرتها ملكا خاصا لها .

وفى سنة ١٤٨٣ اكتشف البرتغاليون الكونجو ، ووجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام دولة من الدول الكبرى التى تقع جنوبى الصحراء الكبرى وهى ( باكونجو ) التى تسمى الآن سلفادور فى انجولا(١) .

وما ان اكتشف كريستوف كولمبوس أمريكا حتى انتشرت مراكز تجارة الرقيق فى « أرجيوم » ، و « سنتياجو » و « ساوجورج » و « ساوتومية » ثم امتدت إلى الكونغو وغينيا وانجولا تبعا لاحتياج الأراضى الشاسعة الأطراف فى البرازيل الى أيد قوية ، تعمل فى مزارعها تحت جو قاس مماثل للجو الذى يعيش فيه الأفريقيون(٢) .

وقد استبدل البرتغاليون بتجارة الذهب تجارة الرقيق لصعوبة التجارة الأولى ، وضمان الربح فى التجارة الأخيرة .

وقد زرع الرقيق قصب السكر فى البرازيل . فمن انجولا وحدها وصل الى البرازيل حوالى مليون رأس من الرقيق فى السنوات مابين ١٥٨٠ — ١٦٨٠ ، حتى كان يقال : « لاوجود للبرازيل بغير السكر ، ولا وجود للسكر بغير رقيق انجولا » ومن الكونغو أيضا حملت السفن

(١) تاريخ افريقيا . تأليف رولاند اوليفر وجون فيج . ترجمة د . عقيلة محمد رمضان .

(٢) دفاع عن الزنوج . تأليف احمد محمد عطية . ص ٣١ .

فى تلك الفترة حوالى نصف مليون من الرقيق ٠ وفى السنوات من ١٦٨٠ ـ ١٨٣٦ نقلت السفن البرتغالية حوالى ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة من أنجولا والكونغو وحدها ، وقيل ان عددهم بلغ ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ أو ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ من جميع أنحاء القارة ٠ وبوجه عام فان ٥٠ ٪ من هذا العدد الضخم صدر الى البرازيل ، ونحو ٣٠ ٪ صدر الى البحر الكاريبى٠

وكان الحصول على الرقيق يتم بطرق مختلفة ٠ فكان فى متناول الحصون الداخلية أن تحصل عليهم حيث يحضرهم الرؤساء الأفريقيون، او وكلاؤهم للمقايضة عليهم بالبضائع الاوربية المصنوعة ٠ وكانت هذه الطريقة أقل نجاحا فى أنجولا منها فى ساحل غينيا المتقدم تجاريا ٠

أما الطريقة التى كانت سائدة فتتلخص فى ارسال التجار الوطنيين الى الداخل ، حيث أقام المستعمرون الفنادق الأوربية ، ومعهم بعض الخدم يحملون البضائع للمتاجرة ٠٠ والمقايضة على الرقيق !

ولم يتورع البرتغاليون الانتهازيون عن أن يثيروا فتنا أهلية فى داخل البلاد بين القبائل أو بينهم وبين رؤساء هذه القبائل حيث يحصلون على الأسرى بلا ثمن ٠٠ كمغانم حرب !! ٠٠ وكانوا يسمون هذه الفتن « حروب النصر » ، حتى يرسلوا أسراها الى آمريكا بواسطة « مقاولين »٠

وكان هناك مورد آخر للرقيق فى الأراضى الكثيفة السكان ، والتى كان يمنحها التاج أو الحاكم للجنود أو لرجال الدين ٠ فالضرائب التى كانت تفرض على رؤساء القبائل فى تلك الأراضى كان يمكن أن يدفع كلها أو بعضها « عينا » .. أى رءوسا من الرقيق ! ... كان هؤلاء الرؤساء يضطرون الى عمل « مزارع » يربون فيها صغار الرقيق حتى يمكن جمع أكبر عدد منهم بدلا من الضرائب !! ٠

وكان هؤلاء الرقيق « يودعون » فى « معتقلات » أو « حظائر » مكشوفة لا تختلف عن حظائر الانعام .

وكان ارتفاع سعر الرقيق فى موزمبيق ـ فى القرن التاسع عشر ـ نتيجة « قانون العرض والطلب » ! ٠

وقال أحد قناصل بريطانيا فى الكونغو : « ان أية دولة أوربية تستطيع أن تمتلك أى جزء من أفريقيا بالقماش والخمور ٠٠٠ ومنها من استولت على مساحات كبيرة نظير أثواب مطرزة ومجموعة من المناديل وأغطية الرأس وزجاجات الخمور »(١) ٠

---

(١) دفاع عن الزنوج المصدر السابق ٠ ص ٣٢ ٠

وقد وصف الدكتور « كارل بيترز » الألماني ، الذى استولى على شرقى أفريقية بموجب معاهدات وقعها مع حكام هذه البلاد ، الطريقة التى كان يتبعها هو وأمثاله من الاستعماريين لسلب حرية تلك البلاد وحرية أهلها، بأنها تبدأ بارسال بعض الهدايا الى الحاكم المحلى قبل دخوله البلد ، ثم يطلب التصريح له باقامة معسكر له ولجنوده • وعندما يصل يقيم حفلا شائقا يجمع بين أطايب الطعام والشراب وأفخر الملابس • ثم يدعو الحاكم الأفريقى « لتشريف » هذا الحفل « المتواضـــــع » الذى يزعم أنه أقيم خصيصا على شرفه • وفى هذا الجو « الودى » •• وبعد ان تلعب الخمر برأس الحاكم ، وتجذب الهدايا نظره •• يعرض المندوب الاستعمارى ، صاحب الحفل ، على الحاكم أو رئيس القبيلة معاهدة مكتوبة باللغـــــة الالمانية التى يجهلها الحاكم واتباعه •• فيوقع عليها دون أن يفهم شيئا مما فيها من بنود تتضمن « صك العبودية » لبلاده وأهله •• ثم يرفع العلم الألمانى ، وتشرب « أنخاب » الصداقة الألمانية !! •

ويدلنا « دريد كارتون » على مدى الوحشية والخبث اللذين اتصف بهما هؤلاء الاستعماريون ، فيقول « لقد ربح البرتغاليون كثيرا من هذه التجارة • وكان قسيسوهم يقفون على الشاطىء ليعمدوا كل رجل وامرأة وطفل يلقى به الى السفينة ، وهو مقيد بالسلاسل ، حتى تستطيع روحه الخلاص فى حالة الموت المحتمل جدا فى عرض البحر »(١) •

وكان لبريطانيا « محطات » لتجميع الرقيق بلغ عددها أربعون محطة• وبعد رحلة شاقة من داخل القارة الى « محطات الشحن » هذه يقطعونها وهم مقيدون بالحبال من أعناقهم • واذا فكر أحدهم فى المقاومة أو الاحتجاج شدوا عنقه الى عامود ثقيل من الخشب ، أو توضــــع قدماه فى فتحتى عامود خشبى ، ثم تقيد أرجلهم حتى يصعب عليهم الفرار • وبعد ذلك يلقى بهم الى السفن التجارية الصغيرة بطريقة لا انسانية ، ويشحنون كما تشحن الأنعام • ويظلون على هذا الوضع ، بحيث لا تزيد المساحة التى يحتلها كل فرد منهم عن ١٨ بوصة ، مدة ثلاثة شهور تجتاز فيها السفينة المحيط الأطلنطى ، والسياط تمزق أجساد من يكف منهم عن التجديف• وكانت نسبة من يهلك منهم تتراوح بين ٣٠ ٪ ، ٦٠ ٪ • والسعيد الذى يموت منهم على هذه الصورة وتدركه رحمة الله من ذلك العذاب الهمجى، يلقى به الى البحر حيث تبتلعه مياه المحيط •

---

(1) Africa. Africa - by Dreck Karthon.

أما النساء فكن يبتلعن كميات من الطين لينتحرن بها هربا من هذا العذاب ... فيلحقن برجالهن في جوف المحيط !! .

ويقول كارتون أيضا بناء على احصائيات مركز تجـــارة الرقيق ان ١٢٫٥ ٪ من الذين يظلون أحياء بعد هذه الرحلة يموتون فى الميناء عقب وصولهم من الارهاق . ويموت ٤٫٥ ٪ آخرون قبل ان تتم عملية العرض والبيع . وبعد ذلك يموت ٣٣ ٪ من اختلاف الجو . وبذلك لايتبقى من حمولة أى سفينة أكثر من ٥٠ ٪ ، وهم الذين يباعون ، أو يسخرون فى زراعة أراضى المستعمرين الأوربيين فى أمريكا .

وما ان انتهت حرب التحرير الأمريكية حتى ضاعت ثورية الأمريكيين، وبدأت الاقطاعية الاستعمارية تغزوهم ، فمارسوا هم أيضا تجارة الرقيق على نطاق واسع . فكانت لهم فى عام ١٧٢٠ حوالى ٢٠٠ سفينة ، سعة كل منها ٣٠ مترا ، يلقى فى قاع كل منها بمائتين وخمسين عبدا أفريقيا ، يزادون احيـــانا الى ٥٠٠ عبدا عند اللزوم . ويجلس هؤلاء العبيد فى الاغلال ١٦ ساعة كل يوم ، تختنق فيها أنفاسهم لقلة التهوية ، وتغمرهم رائحة العفونة والأمراض الخبيثة فيفضل بعضهم الموت على هذه الحياة.. بالقفز الى مياه المحيط الثائرة كلما سنحت لهم فرصة (١) .

ولقد قدرت مجلة « لايف الامريكية » فى عددها الصادر فى أول أكتوبر ١٩٥٧ عدد العبيد الافريقيين الذين بيعوا فعلا فى أمريكا حوالى ١٤٫٠٠٠٫٠٠٠ مليون . لذلك يقدر عدد من اختطفوا منهم بالفعل من بلادهم بين ٣٠ و ٤٠ مليون أفريقى بعد خصم من هلك منهم بنسبة ٣٠٪ و ٦٠ ٪ كما تقدم .

واذا عرفنا أن رحلة السفينة الواحدة كانت تتكلف ٤٠٠٠ دولار ، وأنها تدر ربحا قدره ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ، لتبين لنا مدى الثراء الذى أصابه الأمريكيون من هذه التجارة .

يقول كارل ماركس فى كتابه « رأس المال » .

« كان اكتشاف الذهب والفضة فى أمريكا ، وابادة السكان البدائيين واستعبادهم فى المناجم ، وبداية غزو اغتصاب جزر الهنـــد الشرقية ، وتحويل افريقية الى مصيدة لذوى الجلود السوداء .. بادرة اشراق عصر زاهر للانتاج الرأسمالى » .

---

(١) اضطهاد الزنوج فى أمريكا . طاهر عبد الحكيم .

وليس أدل على ضخامة الربح الذي درته تجارة العبيد من معاهدة « اوترخت » للصلح بين انجلترا وفرنســـــا واسبانيا ، التى عقدت عام ١٧١٣ فقد ورد فيها شرط هام يمنح الانجليز حق تموين المستعمرات الاسبانية بالعبيد .

وكان من المألوف أن تقرأ في الصحف مثل هذه الاعلانات التجارية كل يوم :

- « للبيع فتاة سوداء فى سن الثامنة »
- « للبيع رقيق أسود صحيح البنية سن ١٨ »
- « سيباع بالمزاد العلنى يوم كذا - فى المكان المعد لذلك فى جهة كذا - رقيق عمره ٣٠ سنة ، خادم ممتاز ، حسن الخلق » !!

ولم يكتب التاريخ أن سمسارا كان يقف أمام الصبايا العاريات ، وينادى - كما كان يفعل أمام عذارى أفريقيا من الرقيق البائسات :

طازجة كالتفاحة !
جسمها أسود ناعم كالقطيفة !
صدرها ناضج ، مضمون !
عنقها قوى ! كتفها مستديرة ! ساقها مستقيمة !
أسنانها سليمة !
اقترب أيها السيد ، وعاين لتتأكد بنفسك !
سأبدأ المزاد فى الحال !
أميرة زنجية .. بثمانين جنيها !
ألا أونا .. من يزيد الثمن ؟
خذها أيها السيد الى حجرة الخدم ، أو حظيرة الماشية !
ألا أونا ... هل من مزايد آخر بتسعين جنيها ؟
اغتنموا هذه الفرصة الذهبية قبل أن تفوتكم !

وفى أمريكا كان تمركز الرأسمالية بمصانعها وشركاتها فى الشمال، وانفراد كبار الاقطاعيين بامتلاك الأرض ومن عليها من العبيد فى الجنوب. وعماد الزراعة والثراء فى الجنوب أصبح راجعا الى هؤلاء العبيد . فكان العبيد يسخرون فى الشمال لادارة المصانع .. ويسخرون فى الجنوب لحرث الأرض ، وزراعتها .

ويقول الكاتب الأمريكى « فيكتور بيرلو » : ان رجال الصناعة فى الشمال لم يكونوا يريدون تحريرا حقيقيا للشعب الزنجى ، بل كان هدفهم

الحلول محل ملاك العبيد الجنوبيين فى استغلال هذا الشعب » · وهكذا نشأت الفروق الظاهرية : ولايات فى الشمال يهرب اليها رقيق ليعملوا « أحرارا » فى مصانعها بأجور زهيدة تكاد تكون رمزية · وولايات فى الجنوب يمتلك فيها الاقطاعيون الأرض وما عليها من زراعة ، ومبان ، ومواش ·· وعبيد !!

وفى سنة ١٨٥٠ أصدر الكونجرس الأمريكى قرارا يعطى صاحب المزرعة فى الولايات الجنوبية « حق تتبع » الرقيق الهارب من مزرعته الى الولايات الشمالية ·· واسترداده بالقوة · وهذا الحق يشبه « الحق العينى » الذى يعطيه القانون المدنى لأصحاب الأملاك !

وقد أيدت المحكمة العليا هذا القرار فى أحد أحكامها بقولها ردا على دعوى زنجى يدعى « سكوت » انتقل مع سيده من الجنوب الى الشمال وطلب منها اعتباره « حرا » : « ان سكوت لم يكن حرا لأنه ليس مواطنا، ومن ثم فليس له حق رفع الدعوى ، أو التمتع بحقوق المواطن الأمريكى... ومالك العبد له ان يذهب بعبده الى أى مكان يشاء فى الولايات المتحـدة الأمريكية ، وما يترتب على ملكيته له من حقوق أخرى » ·

وفى الولايات الجنوبية تقابلك فى كل مكان هذه اللافتة على المحلات العامة « ممنوع دخول الكلاب والزنوج » !!

هذه هى قصة تجارة الرقيق التى نفذ منها الاستعمار الأوربى وهبت رياح « التمييز العنصرى » !!

## الفصل
## الرابع : الفلسفة العنصرية بوجه عام

كان النظام الطبقى شائعا فى بعض المدنيات القديمة • وربما كان الاغريق هم أول من وضع الحواجز العنصرية بمنع اختـــلاط الأسياد بالعبيد • وكان أرسطو ــ مثلا ــ يقارن بين الاغريق وغيرهم من الشعوب، ويضع الحضارة الاغريقية فوق كل الحضارات الأخرى •

واذا استعرضنا آراء فلاسفة اليونان بشـأن الفروق بين الاجناس لوجدنا أنهم يعطون وزنا كبيرا للبيئة الطبيعية وللنشـــاط البشرى • فهيبوقراط مثلا وضع سنة ٤٢٠ ق٠ بحثا عن الهواء ، والماء ، والأماكن ناقش فيه التناقض الواضح بين الآسيويين والأوربيين ، وأرجعه الى صلاحية البيئة الاسيوية ، وسهولة الحصول على المواد الغذائية بها ، بعكس البيئة الأوروبية الفقيرة فى ذلك الوقت ، والتى كانت تستدعى من الرجل الاوروبى المزيد من النشاط والعمل ليتمكن من الحصول على قوت يومه •

أما فى الدولة الرومانية فكان المجتمع ينقسم أيضـــا الى طبقتين : الأحرار والعبيد • وكانت طبقة الأحرار تتكون من درجات فى قمتهـــا الرومان ، يليهم باقى سكان المستعمرات الرومانية الذين لم يولدوا من أبوين رقيقين • وكان اختلاط الرومان الأحرار بغيرهم مباحا الى حـــد بعيد • ولذلك لم يكن الرومان عنصرا نقيا بل خليطا من سلالات متعددة• أما طبقة العبيد فقد كانت ــ كما هو حالها دائما ــ منبوذة •

### العنصرية اليهودية :

ان الأديان السماوية كلها ــ وان لم تحرم الرق بدرجات متفاوتة ــ كانت تدعو الى الأخاء والمساواة بين الجميع • ثم انفرد الاسلام وحـــده بتحقيق هذه الوحدة البشرية بين جميع العناصر والسلالات المعتنقة له •

وقد نجح الاسلام فى القضاء على العصبية الجاهلية ، فلم يعد يفرق بين عربى وأعجمى الا بالتقوى ٠

ولكن اليهود ـ بعد وفاة موسى ـ بسنين طويلة ، وبعد سقوط آشور ـ ظهرت بينهم العنصرية ٠ فجاء نبى اليهود عزره Ezira ونادى بمنع اختلاط دم اليهود بغيرهم ، واعتبر جميع اطفال اليهود من زوجات غير يهوديات أقل شأنا من سائر الأطفال ٠ وقد منع الزواج بين الأجنبيات منعا باتا ٠ وبالطبع كان زواج اليهودية بغير اليهودى ممنوعا من قبل ٠ ولذلك تعتبر مملكة اسرائيل القديمة مهد العنصرية ٠ وقد سبقت الدول الأخرى فى هذا الشأن بما يزيد عن ٢٥٠٠ سنة(١) ٠

ولاتزال اليهود حتى الوقت الحاضر لاتختلط بغيرها ، وتدعى انها « شعب الله المختار » وأنهم أعلى شأنا من الآخرين ٠ ولذلك يحابى اليهود بعضهم بعضا ، ويتعصبون لكل يهودى ويحتقرون كل ماهو غير يهودى٠ بل انهم فسروا الوصايا العشر تفسيرا عنصريا خالصا ٠ فالسرقة حرام من اليهودى فقط ٠ أما من غيرهم فحلال ٠ والزنى محرم مع اليهودية وحلال مع غيرها ٠٠٠ والربا محرم بين اليهودى واليهودى ومباح بين اليهودى وغير اليهودى ٠٠٠٠ الخ ٠

ومن يقرأ التلمود ، شريعة بنى اسرائيل ، يجد تفسيرا لحوادث القتل الجماعى التى شنتها الصهيونية فى فلسطين بالاتفاق مع السلطات البريطانية التى كانت منتدبة عليها ٠ فقد جاء فيه :

« ان الكفار هم ( يسوع ) المسيح ، ومن اتبعه ٠ ومن العدل ان يقتل اليهودى بيده كل كافر ، لأن من يسفك دم الكافر يقدم قربانا لله ٠ واذا وجد أحد اليهود كافرا فى حفرة وجب ألا يخرجه منها ٠ واذا وجد اليهودى حجرا ، بجوار حفرة ، وجب عليه وضعه عليها »(٢) ٠

وتمشيا مع تعاليمهم كانت مذابح ( دير ياسين ) التى قتل فيها ٢٥٠ قتيلا ، وابادة جميع سكان قرية ( ناصر الدين ) فى ١٩٤٨/٤/١٤ ٠ وكذلك جميع سكان ( بيت دوراس ) فى ١٩٤٨/٥/٣ ، وبيت الخورى فى ١٩٤٨/٥/٥ ، والزيتون وغيرها ٠ وكذلك حوادث ( قبية ) فى

---

(١) التفرقة العنصرية فى افريقيا . د . فؤاد الصقار . ص ٢٥ .

(٢) الدفاع الاقتصادى ضد الأطماع الاستغلالية الاسرائيلية : محمد عبد العزيز احمد ( بالاشتراك ) ص ٢٩ .

١٩٥٣/١٠/١٤ ، ونجالين وغزة فى ١٩٤٨/٨/١٤ ، وغزة أيضـا فى ١٩٥٥/٢/٢٨ ، وخان يونس فى ١٩٥٥/٥/٣١ ، و ١٩٥٥/٨/٣١ ، والصبحة فى ١٩٥٥/١١/٢ وطبرا فى ١٩٥٥/١٢/١١ ، وغزة مرة ثالثة فى ١٩٥٦/٤/٥ ، وحوادث سيناء خلال الاعتداء الثلاثى على مصر فى سنة ١٩٥٦ .

ان محاولات الصهيونية المستمرة تهدف الى اثارة الحروب ، وتدمير البشرية .

وقد وضع هذه الخطة الحاخام «عمانويل رابينوفتش» خلال اجتماع سرى صهيونى فى مدينة بودابست عام ١٩٥٤ ، وضم جميع حاخامات أوربا . واستطاعت صحيفة « كومنسنس » الأمريكية الحصول على نص هذا الخطاب الخطير الذى يكشف النقاب عن نوايا الصهيونية العالمية ، وهو يهدف الى(١) :

١ ـ اشعال نيران حرب عالمية ثالثة .

٢ ـ تحريض الولايات المتحدة الأمريكية ضد الاتحاد السوفييتى .

٣ ـ اعتبار زعماء الدولتين مجرمى حرب .

٤ ـ القضاء على الأجناس الأخرى غير الاسرائيلية .

وقد قال الحاخام فى خطابه المحموم الذى وجهه الى حاخامات أوروبا مايلى :

« لقد دعوتكم الى هنا لبحث المراحل الرئيسية لبرنامجنا ، ونحن نرجو ان تنقضى عشرون عاما على الحرب العالمية الثانية قبل نشـوب الصراع المقبل . فان هذه الفترة سوف تتيح لنا الجمع بين المصـالح الكبرى التى حصلنا عليها فى أعقاب الحرب الأخيرة . الا أن ازدياد عـدد الاسرائيليين فى بعض المناطق الحيوية من العالم قد أثار عدة حركات عدائية . ومن ثم يتعين علينا العمل على اشعال نار حرب عالمية ثالثة فى غضون السنوات الخمس المقبلة .

« وفى وسعى إن أؤكد أنى لست مجازفا فى وعدى . ان جيشنا لن يلبث أن يحتل المكانة الجديدة بنا فى العالم قبل انقضاء عشرة أعوام . وسيغدو كل اسرائيلى ملكا وغير الاسرائيلى عبدا » .

---

(١) سجل الارهاب الصهيونى . من مطبوعات الدار القومية . ص ٣ وما بعدها .

وقال :

« انكم تذكرون حملاتنا الدعائية والنجاح الذى كللت به عام ١٩١٠ · ولقد أثارت الحقد على الأمريكيين فى ألمانيا ، وعلى الألمان فى أمريكا · وهذا هو ما أدى الى نشوب الحرب العالمية الثانية · ولقد شرعنا فى شحن حملات مماثلة فى سائر أنحاء العالم · فقد أثرنا فى روسيا موجة من السخط والحقد ضد الولايات المتحدة · كما أثرنا فى الولايات المتحـــدة شعورا بالخوف والتوجس ازاء الشيوعية » ·

وقال :

« وسنوف ينفذ هذا البرنامج خلال خمس سنوات بنشـــوب حرب عالمية ثالثة تفوق فى فظاعتها كل الحروب الماضية · وليس من شك فى أن اسرائيل ستعمد الى اتخاذ موقف محايد · وحينما يضعف الخصمان، وتتضعضع قواهما سنتخذ موقف الحكم ، فنوفد الى البلاد المتحضرة بعثات للسيطرة عليها · وستضع هذه الحرب حدا لصراعنا مع غير الاسرائيليين· وعندئذ سوف نكشف عن نوايانا الحقيقية حيال الأجنـــاس الأسيوية والأفريقية · وفى وسعى أن أؤكد وأنا واثق مما أؤكده ، أن الجيل الحالى للجنس الأبيض انما هو الأخير · وسوف تعمل بعثاتنا على منع الزواج بين البيض بحجة القضاء على العنصرية ، وحرصا على اقرار السلام · وبذلك نحمل البيض على الزواج من السود ، ونحمل السود على الزواج من البيض · وعندئذ ··· تبدأ فترة سلام تستمر عشرة آلاف سنة يتمكن الشعب الاسرائيلى خلالها من فرض سيطرته على العالم · فان ذكاءنا ، وتفوقنا سيتيحان لنا السيطرة على عالم يتألف من شعوب الجنس الأسود» .

وقد سأله أحد الحاضرين عن مصير الأديان فقال :

« لن تكون هناك أديان أخرى ··· فان الدين قد يكون خطرا داهما على سيطرتنا · كما أن الايمان بوجود عالم آخر قد يحافظ على الروح المعنوية للشعوب الخاضعة ، ويدفعها الى معاداتنا · وسوف ننشر العقيدة الاسرائيلية فى جميع أنحاء العالم · وسوف نعمل على تدعيم قوانيننـــا الجنسية بمنع الاسرائيليين من الزواج من غير الاسرائيليات » ·

ومضى يقول :

« ولاقناعكم بحقيقة ما أقول فيما يختص بالسيطرة على العالم حسبى أن أذكر لكم أننا وجهنا جميع مخترعات الرجل الأبيض نحو فنائه ·

ولاتكف صحافته ، ومحطات اذاعته عن اعلان ذلك . بل ان مصانعه تمد آسيا وافريقيا بالأسلحة لاشعال حرب عالمية » .

وقال البروفسير أرنولد توينبى ، المؤرخ البريطـــانى الحر ، فى كتابه : « دراسة التاريخ » عن مذابح اليهود فى حرب فلسطين .

« ان هذه الأعمال الشريرة التى ارتكبها اليهود الصهاينة ضـــــد الفلسطينيين العرب ــ وهى لاتقارن الا بالجرائم التى ارتكبها النازى ضد اليهود ــ اشتملت على تقتيل النساء والاطفال والرجال فى دير ياسين يوم ٩ ابريل سنة ١٩٤٨ مما عجل بهروب عدد ضخم من السكان العرب من المناطق القريبة من القوات المحتلة مثل عكا، واللد، والرملة، وبير سبع، والجليل فى أكتوبر سنة ١٩٤٨ » .

وان قصة اختطاف النازى « ايخمان » فى الارجنتين ومحاكمته أمام محكمة فى اسرائيل فى مايو ١٩٦٠ ولودفيج زند ، ومارتن بورمان ، وغيرهم ، بحجة ابادتهم عددا كبيرا من اليهود فى عهد النازى لهى دليل آخر على خرق الصهاينة للقوانين الانسانية أو الدولية .

كما دأبت اسرائيل على مطاردة العلماء الألمان الذين لا يدورون فى فلكها ، والعمل على قتلهم أو خطفهم ، اينما وجدوا فى أى مكان فى العالم. وقد وضعت اسرائيل خططها فى هذا الشأن مع المنظمات الصهيونية فكونت شبكات للتجسس على هؤلاء العلماء فى البلاد التى تستعين بجهودهم العلمية ، ومن بينها الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والجمهورية العربية المتحدة .

وفى مارس ١٩٦٥ ضبطت أخطر شبكة جاسوسية فى القاهرة من هذا النوع يرأسها « لوتز » الالمانى الذى جـــاء الى الجمهورية العربية ــ باعترافه فى التحقيق ــ فى أوائل عام ١٩٦١ بتوجيه من مخـــابرات اسرائيل ومعه خطة كاملة لتنظيم شبكة التجسس تحاول أن تركز عملها داخل مصانع الطائرات والصواريخ المصرية ، وعلى اغراء العلماء الالمان العاملين عندنا بالعودة الى المانيا .. ثم تهديدهم بتدبير الحوادث ضدهم أو قتلهم بشحنات المتفجرات التى يخفونها لهم فى الخطابات ، والطرود اذا ما فشل الاغراء !! .. وهذا ما حدث فعلا مع العالم الألمانى « وولفجانج بيلز » الا ان الطرد قد انفجر فى يد السكرتيرة وشوه وجهها . ومرة أخرى بعث بالطرد الذى انفجر فى غرفة خارجية بجوار بوابة أحد المصـــانع

الحربية !! ومرة ثالثة بعث بطرد الكتب المتفجرة الذى ضبط بواسطه رجال المخابرات العربية فى مكتب بريد المعادى وكان الخيط الأول للوصول الى الجاسوس الخطير !! ٠

وفى نفس الوقت وضعت الجمهورية العربية المتحدة يدها على صفقات مريبة للسلاح كانت تتم بين اسرائيل وألمانيا الغربية التى كانت حتى هذا الوقت تدعى صداقتها للعرب ، وعدم اعترافها سياسيا باسرائيل !٠

## فى ألمانيا النازية :

وهناك دولة أخرى مارست هذا النوع البشع من العنصرية ، هى « ألمانيا النازية » التى كانت تعرف باسم « الرايخ الثالث » بزعامة هتلر ٠

فقد رسم هتلر مخططا لاستعباد العالم بأسره ، بدعوى أن دم الشعب الآرى ( الألمانى ) هو أنقى من دماء الشعوب الأخرى ، وهو الذى غزا الامبراطورية الرومانية وقضى عليها ٠

يقول هـ٠ج٠ ويلز : (١)

« كان هؤلاء الآريون مغيرين ، وسارقين ونهابين للمدن ، سواء فى ذلك منهم من وفدوا من الشرق أو الغرب ٠ كما كانوا رعاة أشداء نزعوا الى السلب والنهب ٠ على أنهم لم يكونوا فى الشرق الا سكانا نازلين على التخوم ، وجيرانا مغيرين ٠ واستولوا فى الغرب على المدن ، وطردوا منها السكان الأيجيين المتمدينين ٠ وبلغ الضيق بالشعوب الأيجية أن أخذوا يبحثون عن أوطان جديدة لهم فى مناطق تخرج عن منال الآريين ٠ فأخذ بعضهم يحاول السكنى فى دلتا النيل لولا أن صدهم المصريون ، وبعضهم أبحروا من آسيا الصغرى ليؤسسوا دولة فى برارى وسط ايطاليا الكثيف الغابات ، وأقام بعضهم لنفسه المدن على سواحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبية الشرقية ٠

وبعد ان أثبتت الدراسة الانثروبولوجية أن الألمان ليسوا من جنس واحد تحولت العنصرية فى ألمانيا بالتدريج من اقتصارها على الجنس النوردى وحده الى الشعب الألمانى جميعه ٠ وتحول الاضطهاد العنصرى

---

(١) تاريخ العالم ٠ هـ ٠ ج ٠ ويلز ٠ ترجمة عبد العزيز توفيق جويد ص ٧٥ ٠

والاضطهاد الجنسى ، الى مجموعات بعينها مثل اليهود الذين كانوا يسكنون المانيا بكثرة ، ويحتكرون جزءا هاما من اقتصادياتها · وهكذا صدرت فى سنة ١٩٣٥ قوانين نورمبرج التى انتزعت من اليهود حقوقهم المدنية، ومنعت زواجهم من غير طائفتهم كما حرمت على أطفالهم المدارس الحكومية، وصادرت أموالهم بدون تعريض (١) .

وقد ذكر جوبلز ــ وزير دعاية هتلر ــ فى مذكراته اذ ذاك تبريرا لاضطهاد اليهود مايلى :

« هناك كثير من المثقفين يحاولون مساعدة اليهود بترديد الجملة القديمة : ان اليهودى انسان أيضا · حقا انه انسان ، ولكن أى نوع من الانسان ؟ ان القمل أيضا حيوان كالانسان » !!

والعنصرية الألمانية فى الرايخ الثالث لم تكن ترمى الى تحرير المانيا من السيطرة اليهودية واعدامهم ، وانما كانت ترمى العنصرية الالمانية أيضا الى تجميع الألمان المقيمين فى الخارج ، وضم المناطق التى يسكنها الألمان فى الدول المجاورة كالنمسا وتشيكسلوفاكيا والدانمرك وفرنسا وبولندا وغيرها ــ وتكوين ما يسمى « ألمانيا الكبرى » أو « الوطن الأم » ·

ويذكر ان محالفة المانيا لروسيا فى أغسطس سنة ١٩٣٩ قد لاقت بعض المعارضة فى داخل ألمانيا نفسها ، لابسبب الاختلافات الأيديولوجية فحسب ، بل للاختلافات العنصرية أيضا · أما تحالف ألمانيا وايطاليا واليابان فقد أيده فلاسفة العنصرية الألمانية لأن بعض سلالات هاتين الدولتين منحدرة من دماء نوردية ( آرية ) · وكان من الممكن فى ذلك الوقت أن يتحالف الألمان مع الشيطان ــ كما فعلت انجلترا بعدها ــ ليحاربوا باقى دول غرب أوربا !!

وما لقيه اليهود فى ألمانيا وما درجوا عليه من استعلاء كان من أسباب ما يمارسونه مع العرب فى فلسطين ، ومع باقى الاجناس فى الخارج !!

### فى أمريكا :

وقبل ان تحتضن النازية النظرية العنصرية طبقها غزاة أمريكا ( الانجليز ) فى حرب الابادة الوحشية التى شنوها ضد الهنود الحمر، سكان القارة الأصليين · وزعموا مزاعم النازية نفسها ، وهى أن الدم

(١) التفرقة العنصرية فى افريقية . المصدر السابق ص ٣٥ .

الانجلو سكسونى هو الدم الأزرق الذى يجب أن يسود العالم ، بحجة ان الشعوب الملونة هى شعوب منحطة ، غير قادرة على حماية نفسها من الغزاة ، وحكم نفسها بنفسها ٠

وقد أيد « بيلبو » ـ عضو مجلس الشيوخ الأمريكى ـ هذه النظرية بقوله :[1]

« ان نظرية الجنس ، والتفاضل بين الأجناس ، قد وجدت فى أمريكا قبل أن يوجد أدولف هتلر فى ألمانيا » ٠

وبلغ من فظاعة التعصب الانجلو سكسونى ضد الهنود الحمر أن وزع الأمريكيون الأوائل ، الذين استوطنوا بعد الفتح ، أغطية من البطاطين الملوثة بجراثيم الجدرى على الهنود الحمر ففتك الوباء الخبيث بالآلاف منهم ، وحصدهم حصدا ! ٠

ويبين مدى استهتار هؤلاء الأمريكيين الأوائل بالقيم الانسانية ما قاله أحدهم ، ويدعى « كنجسلى » من أنه مضطر لاستخدام مسدس عيار ٥٦ لقتل أطفال الهنود لأن رصاص البندقية عيار ٣٨ ، لايمزق جثثهم بدرجة كافية ! ٠

وبهذه الطريقة الوحشية هبط عدد الهنود الحمر بنسبة ٨٢ ٪ وهى نسبة مذهلة ، لم تحدث فى أى حرب فى التاريخ ! ٠٠

وقد فرضت الاقامة الجبرية على البقية الباقية منهم فى معسكرات ، ومنعوا من الاختلاط بالسادة الجدد ، أو التزاوج بينهم ٠ وكانوا يموتون فى هذه المعسكرات بالتدريج لانعدام الرعاية الطبية ، وزادت الاصابات بالامراض بينهم بنسبة ٩ : ١ ٠ ومن الغريب أن الأفلام الأمريكية لاتزال تزهو بهذا الانتصار الرخيص الوحشى .

وكما فعـــل الأوروبيون فى افريقية ، عندما دخلوها ســـائحين أو مستكشفين ، من عمليات احتيال واسعة كذلك فعلوا فى أمريكا ٠ فمقابل قطع السكر ولفائف التبغ كانت تباع الأراضى والثروات . وحينما كان الهنود الحمر يرغبون أو يرغب رؤساؤهم ـ فى التفـــاهم والوئام كانوا يقابلون بالغدر ، والفتك حتى انهم كانوا يتقهقرون تاركين مراعيهم، وقراهم ، ويهاجرون الى أى مكان وهم ينقرضون حتى ضاعت حقوقهم كآدميين ٠ وكان الغزاة يطلقون عليهم « الكلاب الحمر » ! ٠

---

(١) دفاع عن الزنوج المصدر السابق ص ٧٠ ٠

واذا فحصنا مواطن الزنوج اليوم نجد أن أغلبهم لايزال فى الولايات الجنوبية حيث انتشر الرقيق المنقول من أفريقيا فيما مضى · ومع أنهم أغلبية ساحقة هناك فلا يزالون مغلوبين على أمرهم · فولاية المسيسيبى نسبة الزنوج فيها ٩٠ ٪ · ومقاطعة تنساس بولاية لويزيانا تبلغ النسبة ٨٥ ٪ · والأقليم الذى كان ولايزال ـ به أكبر عدد من الزنوج هو الاقليم الممتد عبر الاباما الوسطى الى ولاية جورجيا ، وجميع ولاية كارولينا الجنوبية ، ومساحة صغيرة فى فرجينيا الجنوبية ·

ولعل أشد العهود عبثا بأخلاق الزنوج هو ذلك العهد الشنيع المسمى « عهد الاصلاح Reconstruction » يوم حاول أولئك السياسيون الأفاقون من أهل الشمال أن ينظموا الزنوج ويبثون فيهم روح المساواة·· لا حبا فى الزنوج .. وانما كسبا لأصواتهم فى الانتخابات ! (١) ·

وقد كان لهذا العهد أثر كبير فى ايقاد نار العداوة بين أهل الجنوب واهل الشمال أكثر مما كان للحرب الأهلية نفسها · اذ أدى ذلك الى حرمان الزنوج من معظم الحقوق المدنية عام ١٨٩٠ ·

ومنذ ذلك التاريخ والحرب بين السود والبيض مستعرة الأوار ، حتى أصبحت من أعقد المشاكل فى العالم الحديث خاصة بعد أن تبنت الدولة رسميا « سياسة العنصرية » هذه · أى اضطهاد الزنوج · فبالاضافة الى عصابات « الكوكلوكس كلان » نجد الدساتير المحلية للولايات تحوى نصوصا صريحة تحمى « التفرقة العنصرية » ·

فدستور ولاية مسيسيبى مثلا ينص فى الفصل الثامن ، الفقرة ٢٠٧ منه على أنه « يراعى ان يفصل الاطفال البيض عن أطفال الزنوج ، فتكون لكل فريق منهم مدارسه الخاصة » · وفى الفصل العاشر ، الفقرة ٢٢٥ مايلى :

« للمجلس التشريعى أن يهيىء الوسائل المؤدية الى فصل المسجونين البيض عن المسجونين السود » ·

وفى الفصل الرابع عشر ، الفقرة ٢٦٣ « ان زواج شخص أبيض من شخص زنجى أو خلاسى(٢) أو من شخص يجرى فى عروقه دم زنجى يعتبر غير شرعى وباطلا » ·

---

(١) المجتمع ومشاكله ـ تأليف جروف ساموپل داو · ترجمة أبراهيم رمزى · ص ١٤٣ ·

(٢) فى تعداد ١٨٩٠ حاولوا أن يدرجوا تحت كلمة « سود » أولئك الذين فى عروقهم ثلاثة أرباع من الدم الزنجى أو أكثر ، وتحت كلمة « خلاسى » أو « رباعى » ـ

بل ان كل من يتطوع للدفاع عن حقوق الزنوج ، أو يدعو الى المساواة بين البيض والسود ، أو يعارض التفرقة العنصرية ، أو ما شابه ذلك ، يعاقب باعتباره آثما • ويحكم عليه بغرامة لا تتجاوز ٥٠٠ دولار أو بالسجن مدة لاتتجاوز ستة أشهر أو بالعقوبتين معا ، كما تنص قوانين ولاية مسيسيبي • وتطبق تشريعات مماثلة فى فرجينيا ، وكارولينا الشمالية، وكارولينا الجنوبية ، وجورجيا ، وألاباما ، وفلوريدا ولويزيانا وأركانساس واوكلاهوما ، وتكساس • وهناك تشريعات أقل قسوة تطبق فى ولايات أخرى مثل ديلاوارا ، وفرجينيا الغربية ، وكنتاكى ، وتنيس ، وميسورى• وهناك أيضا ثمانية ولايات شمالية تحرم التزاوج بين البيض والسود وهى : كالفورنيا ، وكلورادو ، ووايداهو ، وأنديانا ، ونبراسكا ، ونيفادا ، وأوريجون ، وأوتاوا •

ان كل شىء فى أمريكا يقسم قسمين غير متساويين فى الكم والنوع: الأكثر والأفضل للأبيض ، والأقل والأسوأ للأسود • وبوجه عام فالأسود ممنوع من مشاركة البيض فى كل شىء : فى الحقوق •• فى القطارات والاتوبيسات •• فى الفنادق والملاهى والمطاعم •• فى المدافن•• فى المستشفيات .. فى الاستحمام على الشواطىء .. فى المعابد .. الخ . فى كل الأماكن التى يرتادها البيض تجد لافتة كبيرة كتب عليها « ممنوع دخول الزنوج والكلاب » •

وتنسحب هذه التفرقة العنصرية فى بعض الولايات حتى على الدبلوماسيين الأفريقيين والأسيويين ، وممثلى أمريكا اللاتينية الذين يمثلون بلادهم فى الولايات المتحدة الأمريكية • ففى مرة لم يسمح لدبلوماسى هندى بتناول طعامه على المائدة التى يجلس اليها البيض • بل ان الوزير الهندى السابق الفليسوف ـ « كريشنامنون » لم ينج من مثل هذه المعاملة العنصرية • وليس ببعيد قصة معاملة وزير خارجية غانا واحتجاج وفود الدول الأفرو أسيوية عليها(١) •

وهذا نموذج للافتات التى توضع فى مداخل الشركات الأمريكية : « خطر ! •• ايها الهنود الملونون • اذا دخلتم هذه الأماكن فى الليل

---

= من كان ربع دمه زنجى ، وتحت كلمة ثمانى من كان ثمن دمه من الزنجى ، ولكن معظم الفروق كانت بين السود والخلاسيين ـ المؤلف .

(١) دفاع من الزنوج . المصدر السابق ص ٥١ .

فلن يجدكم أحد فى الصباح .. ان الحراس المسلحين يطلقون الرصاص عليكم فور ظهوركم . والكلاب المتوحشة تلتهم جثثكم . لقد أنذرناكم !.

وفى نيويورك يتكدس أكثر من نصف مليون زنجى فى حى هارلم ، ويسكن مبان تملكها شركات التأمين الأمريكية بايجار يزيد ٢٠٪ عن ايجار المنازل المماثلة التى يسكنها البيض . وفى هذا الحى لا تفتح الشركات فروعا لها ، وخاصة شركات التغذية فيقع الزنوج المحاصرون فى هذا الحى فريسة لتجار السوق السوداء الذين يبيعون لهم الأغذية بأغلى الأسعار رغم التعطل المتفشى بينهم ، ورغم انعدام الرعاية الطبية ، والخدمات العامة ، وتفشى الفقــــر والبؤس ! . ويضطر معظمهم الى قبـــــول أى عمل بأقل أجر حتى لا يهلكوا من الجوع .. فى الدولة التى يتمتع البيض فيها بأضخم ثروات العالم !! .

* * *

والجرائم التى يرتكبها البيض ضد السود فى الولايات المتحدة لم تنته حتى اليوم . وبرغم ان المحكمة العليا الأمريكية ـ أعلى سلطة قضائية فى البلاد ـ استقرت أحكامها الأخيرة على عدم شرعية فصل الزنوج عن البيض فى المدارس فان حكام الولايات التى تمارس رذيـــلة « التفرقة العنصرية » رفضوا تنفيذ هذه الاحكام .

ولقد اضطر الرئيس الأسبق ايزنهاور الى ارسال قوات من الجيش لحماية الطلبة الزنوج ، وتمكينهم من الدراسة .

وعندما انضم الطالب الزنجى « جيمس مريدث » الى جامعة مسيسيبى قامت حركة تمرد عنيفة أدت الى مقتل الكثيرين حتى اضـــطر الرئيس السابق « كيندى » الى ارسال قوة من الجيش قوامها ١١٠٠ جندى من المشاة ، ١٥٧ مهندسا عسكريا لاقامة معسكرات للقوة التى تســـقط بالهيلوكبتر فى مسيسيبى لتطويق مبنى الجامعة .. بالاضافة الى ٩٠٠٠ جندى وضعوا فى حالة طوارىء لمواجهة التطورات المرتقبة ! ..

وحينما تحدى الرئيس السابق كيندى دعاة التفرقة العنصرية ، وقدم مشروع منح الزنوج الحقوق المدنية .. دفع حياته ثمنا لهـــذه الخطوة الجريئة !

وقد صمد الزنوج بصلابة فى مواجهة هذه الحياة غير الانسانية كما دعاهم زعيمهم الروحى « دكتور مارتن لوثر كنج » ـ الحائز على جائزة

نوبل ، والذى حوكم فى فبراير ١٩٦٥ بتهمة قيادة مظاهرة سلمية بدون اذن !

ولما نضب معين الصبر لدى الزنوج قرروا الزحف الى المقار الرسمية، بل والى شكاغو العاصمة نفسها للولايات فى مظاهرات سلمية لاعلان السخط والاحتجاج ، وخاصـــة بعد قتـل « مالكـــولم اكس » زعيم منظمة الوحدة الافروأمريكية للزنوج الأمريكيين فى ١٩٦٥/٢/٢١ بحى هارلم المخصص للزنوج !

وقد كتب مالكولم اكس قصة حياته بقلمه ، فوصف فيها كيف قتل أبوه بواسطة دعاة التفرقة العنصرية ، ووضعت جثته على شريط الترام الذى شطرها نصفين ٠٠ كما روى كيف قتلوا أربعة من أعمامه وأنه يعتقد شخصيا أنه سيموت بنفس الطريقة ! ٠٠

وبعد ان قاد دكتور مارتن لوثر زحفه السلمى الكبير فى ١٩٦٥/٣/٩ ـ الذى سمى زحف الحرية ـ الى عاصمة ولاية الاباما ، مطالبا بتطبيق « قانون الحقوق المدنية » ارتكب البوليس ضـــد المتظاهرين الوانا من العنف الوحشى المعتاد ٠٠ كما اعتدى خمسة من البيض على ثلاثة من مئات القساوسة الذين اشتركوا فى هذا الزحف ، ومات أحدهم بعد نقله الى المستشفى فى حالة بين الحياة والموت ! ٠٠ الأمر الذى قامت من أجله مظاهرات عديدة فى جميع الولايات ... وفى ولاية الاباما بالذات ، التى يرأسها حاكم من غلاة التفرقة العنصرية ! ٠

وقد أعلن الزنوج فى ١٩٦٥/٣/١٣ أنهم سيقومون بمسيرة تبدأ من نيويورك ، وتقطع ٢٣٠ ميلا الى وشنطون بحيث يتبادل الجرى كل ميل بعض أبطال الجرى السابقين حاملا شعلة الحرية !!

* * *

هذه قصة « العنصرية » فى العالم التى جعل لها أصحابها فلسفة تكاد تشبه العقيدة الدينية ، هى أن جنســـا يتمتع بتفوق على جنس آخر أو أجناس أخرى ، ويجب أن يسود ٠

ولاتزال هذه الخرافة قائمة حتى بعد أن أثبت علمـــاء الاجناس بطلانها ، وأن أى جنس لا يتفوق « غريزيا » أو « طبيعيا » على أى جنس آخر ، ولا يكون هذا التفوق الا بالعمل والنشاط ٠٠ وبالتالى بالحضارة، وان الأيام دول يداولها الله بين الناس ٠ وكل من صنع حضارة أصبح

من حقه أن يتمتع بها فحسب ، لا أن يستعلى على الآخرين ، ولا أن يسودهم.. ومن باب أولى أن لا يستعمل معهم العنف الى درجة « الأبادة » !!

## السلالات البشرية :

ان الأصل فى تقسيم السلالات البشرية تقسيما علميا هو الصفات الجسمية وحدها . ويمكن حينئذ ان نذكر ان لفظ « سلالة » أو « جنس » عبارة عن مجموعة من البشر يشتركون فيما بينهم فى صفاتهم الجسمية الاساسية . وفى نفس الوقت يختلفون عن غيرهم من البشر فى هذه الصفات أو بعضها . ولا تصلح اللغة أساسا لتقسيم البشر الى سلالات . فهناك أكثر من لغة تنتشر بين السلالة الواحدة ، كما هو الحال فى لغات « الجنس الالبى » الذى ينتشر وسط اوربا ، كما أن اللغة الواحدة قد تنتشر بين أكثر من جنس واحد كما هو الحـــال فى اللغة الانجليزية أو الفرنسية مثلا . وطالما فرض الغزاة لغتهم على سكان مستعمراتهم . كما لاتصبح القومية أساسا للتقسيم الجنسى .فالعرب والهنود والانجليز والألمان لكل منهم قومية خاصة . وقد يجمع فريق منهم لغة واحدة أو دين واحد ، ولكنهم قد يكونون منحدرين من أكثر من سلالة . والدين لم يستخدم كأساس جنسى الا فى حالة اليهود ، أو بنى اسرائيل . والحقيقة ان اليهود لا تجمعهم الا رابطة الدين ، وهم يختلفون بعد ذلك جنسيا ، وثقافيا ، وحضاريا.والدين الواحد يعتنقه عدد كبير من السلالات والقوميات والدول ، ولا يرتبط أى دين بجنس بعينه ، أو بسلالة بذاتها(١) .

ولذلك فأسس تقسيم البشر الى سلالات تقسيما علميا هى الأسس الجسمية التى يمكن مشاهدتها كلون البشرة ، وشكل الشعر ، ولونه، وشكل العين ولونها . أو تلك التى يمكن ملاحظتها وقياسها كشـــكل الرأس ، أو شكل الجسم ، وشكل الأنف ، وطول القامة ، أو التى يمكن تحليلها كفصائل الدم .

وعلىهذا الأساس يمكن تقسيم البشر الى أربعة مجموعات رئيسية ، تنقسم كل منها الى أقسام ثانوية أو أجناس ، وهى :

١ ــ مجموعة السلالات البيضاء والسمراء ، أو ماتسمى أحيـــانا « مجموعة السلالات القوقازية » ــ وهى توجد فى معظم جهات أوربا وشمال أفريقيا وشرقها ، وجنوب غرب آسيا ، وهاجرت باعداد كبيرة الى العالم

---

(١) التفرقة العنصرية فى افريقية . د . فؤاد الصقار . ص ٩ .

الجديد ، والى أجزاء من أفريقيا جنوب الصحراء ، والى استراليا ونيوزيلندا • وأهم ما يميز هذه السلالة لون البشرة الأبيض فى الشمال ( الجنس النوردى ) والأسمر فى الجنوب ( جنس البحر الأبيض المتوسط ) •

٢ ـ مجموعة السلالات السوداء أو الزنجية التى تنتشر فى القارة الأفريقية فى جنوب الصحراء ، وفى المناطق الاستوائية ومناطق السافانا على الخصوص • كما انتشرت فى جنوب أفريقيا وجنوب شرق آسيا •

وقد نقل جزء كبير منهم الى أمريكا أيام تجارة الرقيق • ومن أهم صفات هذه المجموعة البشرة البنية أو السوداء ، والشعر المفلفل أو الشديد التجعد ، والأنف القصيرة الواسعة ، والشفاة الغليظة • أما القامة فهى تختلف بين الطول المفرط ( السودانيون ) والقصر المفرط ( الأقزام ) •

٣ ـ مجموعة السلالات الصفراء ـ أو المغولية ـ التى توجد فى شرق وجنوب شرق آسيا • كما توجد بين الهنود الحمر فى الأمريكيتين ، وفى قبائل الاسكيمو فى الاسكا ، وشمال كندا ، وفى المناطق القطبية الباردة •

وتمتاز هذه المجموعة بلون البشرة المائل الى الصفرة ، والشعر المستقيم ، وعظام الخد البارزة والعين المائلة ، والقامة المتوسطة ، والرأس العريضة ، والجبهة المرتفعة والأنف القصير •

٤ ـ مجموعة السلالات المختلفة التى لا تدخل تحت الأنواع الثلاثة ، وان كانت السلالات الثلاثة السابقة قد امتزجت هى الأخرى بدرجات متفاوتة •

ويرجع اختلاف الناس هذا الى تأثير البيئة ، وتوريث الصفات الفطرية والمكتسبة ، والاختلاط المستمر بين الأجناس المختلفة نتيجة الهجرات •• وكل ذلك رغم انتماء جميع السلالات الى جنس بشرى واحد كما سلف •

**خرافة التمييز العنصرى :**

ولاشك ان هذه الفروق بين السلالات جميعها هى فروق سطحية فى الشكل وليست جوهرية فى النفس •

يقول هـ•ج• ويلز : (١)

« يجب علينا ان نتذكر ان الاجناس البشرية تستطيع جميعا ان

---

(١) موجز تاريخ العالم . المصدر السابق ص ٥٥ .

تتخالط وتتوالد بمنتهى الحرية وانها تفترق ، وتمتزج ثم تعود الى الاتحاد كما يفعل السحاب فى السماء • والأجناس البشرية لا تتفرع كالشجر فروعا لا تلتقى بعد ذلك ابدا • والواقع ان هذا الاختلاط المتكرر للاجناس الذى يحدث عند كل فرصة تسنح أو ينبغى ألا يغيب عن بالنا البتة . فاذا فعلنا ذلك نجونا من كثير من ألوان الضـــلال والتحيز القاسية • والناس يجنحون الى استعمال كلمة مثل كلمة « جنس » بصورة فضفاضة يتجلى فيها اطلاق القول على عواهنه ، ويبنون عليها أشد أنواع التعليمات مخالفة للعقل والمنطق • وهم يتحدثون عن « جنس بريطـــانى » أوعن « جنس أوربى » ولكن الامم الأوروبية كلها تقريبا خلائط مضطربة من عناصر سمراء وأخرى بيضاء قاتمة وبيضاء مغولية » "

وليس فى الصفات الجسمية للبشر ما يمكن أن يكون أساسا للرقى أو الانحطاط . فدراسة الأعضاء لا تكون الا على أساس الوظيفة (١) .

والحقيقة ان الدراسة العلمية للاجناس لم تظهر من الناحية البيولوجية أى امتياز مطلق لجنس على آخر •

ولما كان علماء التطور الأوائل ـ كما قدمنا ـ يؤمنون بأن الانسان قد تطور فى خط مستقيم ـ وبالتدريج ـ من الحيوانات غير البشرية الى السلالات البيضاء ، وكان هذا الخط فى نظرهم أشبه بالسلم كل درجة فيه أرقى من سابقتها واحط من لاحقتها ـ لذلك يرون أنه كلما بعـــد الانسان فى شكله وصفاته عن القردة ـ الموجودة فى أول السلم ـ كلما كان الانسان أكثر رقيا بين النوع البشرى • ويضربون لذلك مثلا بأن جماعات البوشمن والزنوج يتميزون بالأنف الافطس والواسع الغليظ الذى يتميز به القردة ـ بينما الأوروبيون ذوو أنوف ضيقة بارزة مما يدل ـ فى نظرهم ـ على أنهم نوع بشرى أرقى من الزنوج ، وكذلك أرقى من المغول لانخفاض أنوفهم •

واذا أردنا ان نتتبع هؤلاء فى أدلتهم لوجدنا أن جميع أجناس العالم فيها من الصفات ما يشبه القردة • بل لوجدنا ان السلالات البيضاء فيها من التشابه مع القردة أكثر مما فى السلالات الزنجية •

فأهم اختلاف بين الانسان والقرد هو الغطاء الشعرى • ومن بين جميع الأجناس نجد الجنس المغولى أقل السلالات شعرا فى جسده بينما

(١) التفرقة العنصرية فى افريقية . المصدر السابق ص ١٥ .

السلالات البيضاء أكثر الأجناس شعرا فى جسدهم • كذلك نلاحظ أن القردة تتميز بشفاه رقيقة كالأوروبيين بينما نجد للزنوج شفاها غليظة•

وكان اعتقاد علماء التطور الأوائل أيضا ان رقى السلالة مرتبط أوثق الارتباط بزيادة حجم المخ(١) •

وهذه النظرية ــ كسابقتها ــ لا أساس لها من الناحية العلمية ، لأن الفروق فى حجم المخ بين أنواع البشر ضئيلة بوجه عام باستثناء مخ الأقزام بسبب صغر رءوسهم •

وبالرغم من ذلك فليست المشكلة مرتبطة بحجم المخ بقدر ما هى مرتبطة بعمل المخ • ومن الثابت علميا أنه ليس هناك ما يميز سلالة عن الأخرى من الناحية العقلية لو أعطيت كل سلالة فرصة متساوية •

وقد عملت فى منتصف القرن الماضى وفى خلال الحرب العالمية الأولى عدة اختبارات لمعرفة مستوى الذكاء بين عدة عناصر من البشر ، فى مناطق متفرقة • وقد دلت هذه الاختبارات الأولية على أن متوسط العمر العقلى للزنوج ٤ر١٠ بينما يبلغ عند البيض ١ر١٣ • وهكذا أفادت هذه الاختبارات فلاسفة العنصرية فى رأيهم بأن الزنوج أقل مستوى فى ذكائهم من أحط العناصر البيضاء(٢) •

وقد استمر هذا الرأى فترة تقرب من ربع قرن كحجة فى التفرقة العنصرية بين الأجناس ، وفى ربط الذكاء والمستوى العقلى بلون البشرة• ولكن فى الثلاثينيات والأربعينيات فى هذا القرن أعيدت دراسة الموضوع برمته ، فوجد أن هذه الاختبارات كانت مرتبطة بالثقافة أكثر من ارتباطها بالذكاء • كما أن هناك اختلافات فردية فى المجموعات المختلفة ترتبط بعوامل ثقافية ونفسية كثيرة . كما ترتبط بالتجارب ، وبكثير من العوامل المتنوعة المعقدة

بل لقد دلت الاختبارات التى عملت فى العقد الخامس فى هذا القرن فى بعض مدارس الولايات المتحدة أن المستوى العقلى للتلاميذ الزنوج يفوق المستوى العقلى لزملائهم البيض مما يقطع بأن المسألة ليست مسألة جنس أو لون مطلقا •

---

(١) المصدر السابق • ص ١٦ •

(٢) المصدر السابق • ص ١٧ •

# الباب الثانى العنصرية فى ظل الاستعمار

الفصـــل الأول ــ ارتباط العنصرية فى افريقية بالاستعمار
الفصـــل الثانى ــ العنصرية فى المستعمرات البرتغالية
الفصـــل الثالث ــ العنصرية فى جمهورية جنوب افريقية
الفصـــل الرابع ــ العنصرية فى جنوب غرب افريقية
الفصـــل الخامس ــ العنصرية فى روديسية الجنوبية
الفصـــل السادس ــ العنصرية فى زامبيا
الفصـــل السابع ــ العنصرية فى مالاوى
الفصـــل الثـامن ــ العنصرية فى كينيا
الفصـــل التاسع ــ العنصرية فى تانزانيا
الفصـــل العاشر ــ العنصرية فى أوغنـدة
الفصل الحادى عشر ــ العنصرية فى غرب أفريقية
الفصل الثانى عشر ــ العنصرية فى الكونغو ( ليوبولدفيل )
الفصل الثالث عشر ــ العنصرية فى المغرب العربى قبل استقلاله

## الفصل
## الأول : ارتباط العنصرية فى أفريقية بالاستعمار

بالرغم من أن أفريقية قد اكتشفت سواحلها الغربية والجنوبية فى أواخر القرن الخامس عشر فان مناطقها الداخلية استمرت غير معروفة للاوربيين حتى القرن التاسع عشر . وكان السبب الرئيسى فى ذلك تعذر التوغل نحو الداخل نظرا لصعوبة المواصلات ، وتفشى الأمراض والحشرات، وتناحر القبائل مع بعضها البعض .

وكان التوغل نحو الداخــــل بداية المشاكل العنصرية وقد بدأ هذا التوغل فى نهاية القرن الثامن عشر بحجة انماء المعلومات الجغرافية ، باكتشاف منابع النيل والنيجر وغيرهما من الأنهار . وهكذا ظهر فى تاريخ أفريقية أسماء بعض المستكشفين الأوروبيين أمثال بارك الانجليزى فى غرب أفريقيا ، والدكتور بارث الألمانى فى السودان الغربى ، ولفنجستون وسبيك وبرتون الذين اكتشفوا الزمبيزى وشلالات فيكتوريا وبحيرة نياسا وبحيرة تنجانيقا ونهر الكونغو (١) .

وقد ساعد المكتشفون بما أذاعوه فى أوربا عن هذه البلاد على وصول المبشرين المسيحيين ، وتجار الرقيق ، والكثير من الشركات التجارية ، والمهاجرين والمستوطنين الأوربيين . وهكذا بدأ الاستعمار الأصلى لهذه البلاد فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر . ونتيجة لذلك امتلك كثير من المستوطنين الأوربيين الكثير من الأراضى الصالحة للزراعة ، كما كونوا الشركات الاحتكارية التى سيطرت على المناجم وغيرها من مقومات الاقتصاد الأفريقى لمصلحة المستوطنين البيض ، والدول الاستعمارية فى نفس الوقت .

وكانت اوروبا فى ذلك الوقت قد بدأت تخرج من طور الاقتصاد الزراعى الى مرحلة الاقتصاد الصناعى ، وبدأت الحضارة تتطور باحثة عن المواد الخام للأنتاج ، وعن أسواق للاستهلاك وعن الأيدى العاملة الرخيصة .

(١) التفرقة العنصرية فى افريقية . المصدر السابق ص ٤٦ وما بعدها .

وتسابق البرتغاليون — منذ الكشوف الجغرافية الأولى فى أواخر القرن الثامن عشر — والفرنسيون والانجليز والألمان والهولنديون والأسبان الى افريقية ، ذات أقدم حضارة فى التاريخ ، فاستولى الفرنسيون على جابون عام ١٨٣٩ ونزلت بساحل العاج سنة ١٨٤٢ واستولت عليها سنة ١٨٨٢ ووصلت الى داهومى سنة ١٨٥١ ولكن لم تضمها الا عام ١٨٩٤ . ثم أخذوا يتوغلون فى غرب القارة عن طريق السنغال والنيجر فاستولوا على معظم غرب أفريقيا تاركين منطقة حول مصب نهر غمبيا لبريطانيا . وقد سميت ممتلكات فرنسا باسم افريقية الغربية الاستوائية الفرنسية كما استولت فرنسا على المغرب العربى .

واستولت أسبانيا على ريودورو بعد مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ الذى وزعت فيه الأسلاب بين الأطراف الاستعمارية المتنازعة فى القارة وهى : انجلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا وبلجيكا والبرتغال واسبانيا ، وقد اضفى هذا المؤتمر على استعمار أفريقيا ( شرعية ) لم تكن له من قبل . وفى سنة ١٩٠٠ اتفقت اسبانيا وفرنسا على أن يكون الحد الجنوبى للنفوذ الأسبانى مسايرا لراس بلانكو بحيث يقسمها قسمين .

وفى سنة ١٩٠١ ضمت منطقة اخرى للأراضى الأسبانية بين رأس بوجادور ورأس جوبر ، وتمتد فى الداخل . وفى ١٩١٢ عدلت الحدود بحيث تسير مع وادى دراغ ، وهذا الجزء معروف باسم « مراكش الأسبانية » الذى ضم الى المملكة المغربية بعد الاستقلال . ولا تزال منطقة افنى تحت النفوذ الأسبانى .

واستولت ألمانيا على منطقة الكمرون وتوجو وأفريقيا الجنوبية الغربية . ووضعت البرتغال يدها على أنجولا وموزمبيق وغينيا البرتغالية وبعض الجزر الافريقية الصغيرة التى أهمها برنسيب ، وساوتوميه .

أما ايطاليا فغزت السواحل الصحراوية ، واستولت على برقة وطرابلس سنة ١٩١٢ . كما سيطرت على الصومال واريتريا .

وتوغل الهولنديون فى داخل القارة من ناحية الجنوب منذ القرن السابع عشر ثم جاء البريطانيون وحدث الاحتكاك بين العنصرين : الانجليز والبور Baoers ( الهولنديين ) ولما تكاثر الانجليز فى القرن التاسع عشر ارتحل البور شمالا سنة ١٨٣٠(١) .

---

(١) الجغرافيا السياسية لافريقيا . المصدر السابق ص ٥٤ وما بعدها .

ولما حاول زنوج البانتو التجمع لمحاربة الأوربيين حـــربا شاملة سنة ١٨٥٠ هزمهم البور ، والانجليز الذين اقتسموا المنطقـــة فكانت الترنسفال والأورانج للهولنديين ، ومنطقة ناتال وكيبتاون للانجليز .

وكونت انجلترا مســـــتعمرة ناتال ، وتحصن البور فى ولاية أورانج الحرة . وبعد أن عبر البور نهر فال ، أحد روافد نهر الأورانج ، كونوا منطقة الترنسفال بعاصمتها بريتوريا . ثم ضمت الترنسفال الى بريطانيا على أثر ظهور الذهب فى منطقة الراند بالقرب من جوهانسبرج .

وقد تدفق الانجليز على هذه المنطقة ، ونشبت حرب البور الأولى سنة ١٨٨٠ . ثم قامت دولة البور باتحاد الترنسفال والأورانج . وفى الفترة بين ١٨٩٩ ــ ١٩٠٢ نشبت حرب البور الثانية وانتصر الانجليز على البوير ، وقام اتحاد جنوب أفريقية سنة ١٩٠٨ .

وقد كان للشركات الكبرى التى تكونت فى افريقية دور هـــام فى استعمارها ، ثم تقسيمها ثم نشر وباء التمييز العنصرى فيها .

ففى سنة ١٨٨٥ تكونت شركة افريقيا الشرقية الألمانية .
وفى سنة ١٨٨٦ تكونت شركة الكونغو التجارية الصناعية .
وفى سنة ١٨٨٦ أيضا تكونت شركة النيجر الملكية البريطانية .
وفى سنة ١٨٨٨ تكونت الشركة البريطانية لشرق أفريقية .
وفى سنة ١٨٩١ تكونت شركة موزمبيق البرتغالية .

وقد عقدت هذه الشركات الاحتكارية الاستعمارية عدة اتفاقات غير متكافئة مع زعماء القبائل ، وقامت بشراء مناطق كبيرة ، وأسست مراكز للتجارة . . وللوثوب الى الداخل . ثم أنشأت شبكة واسعة من المواصلات . وفى النهاية كانت تبيع املاكها التابعة لها ، التى تعين للمنطقة حاكما عاما ، ويصبح الاستعمار سافرا بعد أن كان مستترا .

فالشركة البلجيكية تحولت الى مستعمرة الكونغو سنة ١٩٠٨ .

وشركة شرق افريقية البريطانية تحولت الى « الشركة الامبراطورية » التى اشترت حق ادارة بعض المناطق من سلطان زنجبار . وقد تنازلت هذه لشركة ايطالية تولت ادارة قسمايو ومقديشيو . ثم حصل الايطاليون على منطقة ممتدة على نهر جوبا ، وبدأ الاستعمار الرسمى للصومال .

أما الشركة التى كونها كارل بيتز الألمانى فقد عقدت المعاهدات مع السلاطين وشيوخ القبائل ثم انتهى الأمر بالاحتلال الألمانى .

وقد إختلف الاستعمار الأوروبى من منطقة الى أخرى باختـلاف سياسة الدول الاستعمارية من جهة ، واختلاف الظروف الطبيعية والبشرية للدولة التى ابتليت بالاستعمار من جهة أخرى ..

ولكن بالرغم من هذه الاختلافات النظرية فإن هنالك اتفاقا جذريا بين الدول المستعمرة جميعها على معاملة الوطنيين الأفريقيين معاملة سيئة . وكان ينظر الى أهل البلاد الأصليين على أنهم نوع من البشر ، لا يرقى الى درجة الجنس الأبيض الأوروبى الذى يجب أن يسود ، وأن يحكم ! (١)

وقد ارتبطت فكرة الامتياز الأوروبى على الأفريقى أولا بالدين . فالافريقيون غير مسيحيين كالأوروبيين . وكان هـذا العامل الدينى الموروث من العصور الوسطى موجها ضـد الوثنيين . ولم ترتبط العنصرية باللون الا فى بداية القرن التاسع عشر حين قسم الأفريقيون الى سود وبيض أو بيض وغير بيض ، واصبح الدين غير صالح للتفـرقة العنصرية . وهكذا ظهرت التفرقة العنصرية على حقيقتها ، فى شكل متاجرة بالرقيق (٢) .

وقد ظهرت هذه العنصرية فى معظم المستعمرات . وكان ظهورها أشد فى المستعمرات البريطانية من أية منطقة أخرى . فالدين لم يكن له فى تلك المستعمرات شأن يذكر حيث تحـول جانب من الوطنيين الى الدين المسيحى (٣) .

وتحتم سياسة العنصرية القائمة على اللون ابعاد العناصر الأفريقية عن كل ما يتمتع به البيض من مرافق ، ومن خدمات ، ومن حقوق مدنية .

وربما كانت أهم مشكلة تسببها التفرقة العنصرية هى مشكلة الأرض بسبب انتشار الصحارى ، والغابات والمستنقعات ، واقتصار الأراضى الصالحة للزراعة على مناطق صغيرة نسبيا . وقد تجسمت هـذه المشكلة فى المناطق التى هاجر اليها الأوربيون بكثرة بقصد الاستيطان ، وامتلاك الأراضى ، أو العمل الزراعى مثل اتحاد جنوب افريقيا ، وروديسيا الجنوبية ، وكينيا والجزائر ، اذ امتلك هؤلاء الأوروبيون أخصب المناطق وأصلحها للاستقرار ، تاركين المناطق الفقيرة أو ذات الأمطار القليـلة للتملك الأفريقى ، أو للمعازل الأفريقية كما يسمونها .

---

(١) التفرقة العنصرية فى أفريقيا . المصدر السابق ص ٥٨ .
(٢) التفرقة العنصرية فى أفريقيا . المصدر السابق ص . ٥٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٥٩ .

وزاد المشكلة تعقيدا اختلاف نظرة كل من الأفريقيين والأوروبيين الى الأرض . فالأفريقيون يعتمدون على الزراعة فى اقتصادياتهم اعتمادا كليا ، كما يعتبرون الأرض ملكية جماعية للقبيلة أو للعائلة . فهم ينظرون الى الأرض نظرتهم الى حياتهم ، باعتبارها قوام حياتهم . أما الأوروبيون الوافدون فيعتبرونها من الممتلكات الشخصية لكل فرد شأن الملبس والأثاث ، والمسكن ، وهكذا اختلف مفهوم الأرض لدى كل من الفريقين .

ونظرا لعدم وجود نظام مكتوب للتمليك العقارى لدى الأفريقيين فقد اعتبر الأوروبيون الأرض — وخاصة ما كان يستغل منها لفترات قليلة من السنة — لا مالك لها — كما أن تباعد القرى جعلهم يعتبرون الأراضى الواقعة بين كل قرية وأخرى من أملاك الدولة ، التى أصبح يسيطر عليها الرجل الأبيض مع أن هذه الأرض كانت مملوكة لأفريقيين يستغلونها فى الرى أو الصيد أو قطع الأخشاب كما كانت القرى تنقل من مكان الى آخر بعد نضوب خصوبتها .

وقد دفعت بريطانيا ثمن ممارسة هذه السياسة الاستعمارية فى كينيا عندما نشبت ثورة قبائل الكيكويو التى انتزعت أراضيها الموجودة فى هضاب كينيا .

ولكى يمكن المستعمرون من جذور هذه العنصرية الجنسية — ذات الأساس السياسى البحت — عملوا على تمزيق القارة تمزيقا عجيبا ، ففصلوا أجزاء مناطق ذات طبيعة جغرافية وبشرية واحدة عن بعضها . كما أنشأوا وحدات سياسية صغيرة ، وأثاروا بينها العصبيات القبلية ، والنعرات القومية الزائفة . وان كل من ينظر الى خريطة أفريقية يهوله ما يراه فى دولها من منحنيات ، وأضلاع تمثل حدودا سياسية مصطنعة ، واقتصاديات غير متكاملة . والا فلماذا تقسم شعوب غرب افريقيا التى تتشابه فى الجنس والعقيدة ، واللغة ، والظروف الاقتصادية والاجتماعية بينما تبلغ مساحته أكبر من مساحة الهند ذات اللغات والأجناس والأديان المتعددة ؟ .

ولماذا تقسم قبائل الأنواك فى جنوب شرق السودان بين السودان والحبشة ؟ ولماذا تقسم قبائل الماساى بين كينيا وتنزانيا ؟ ولماذا قسم الصوماليون وشتتوا فى أثيوبيا وكينيا والصومال الفرنسى ؟

ان تخطيط الحدود السياسية بهذا الشكل المصطنع المتعمد ، خلق ٤٦ وحدة سياسية منها ١٣ وحدة لا سواحل لها بينما أن عدد الدول التى

لا سواحل لها فى العالم كله ١١ دولة فقط منها ٤ فى أوروبا ، ٥ فى آسيا ، ٣ فى أمريكا الجنوبية . وذلك جعل كل دولة منها تحت رحمة جيرانها الذين شكلهم الاستعمار تشكيلا مختلفا من الناحية الثقافية ، والاقتصادية، والحضارية حتى أصبحت هذه المشكلة مثار منازعات دولية ، وافريقية متعددة الأطراف ، ومستمرة ! .

وخلاصة الأمر هى :

١ ـ ان التفرقة العنصرية لا أساس لها فى علم الأجناس .

٢ ـ نشأت فى افريقية مع الاستعمار ، وارتبطت به شكلا وموضوعا .

٣ ـ بدت أول ما بدت على أساس الدين ، ثم ظهرت بشكلها الحقيقى على أساس اللون .

٤ ـ خلقها الاستعمار لتخدم أغراضه . فهى اذن «نظرية سياسية» وليست « نظرية علمية » .

يقول جون جنتر(١) :

« ومن المؤكد أن هناك ملايين من الأفريقيين الأغبياء . تماما كما ان هناك ملايين الأغبياء من الروس أو الأمريكان ، أو غيرهم ممن تشاء من الشعوب . ولا يعنى ذلك انه ليست هناك ملايين أخرى يمكنها بالقوامة والفرصة والثقة أن تصير الى ذكاء الرجل الأبيض تماما ، لأن العقل لا لون له والجميع يعلمون أن بعضا من العقول الصينية أو الهندية تماثل العقول الأوروبية أن لم تفقها ، وتبزها ، فليس هناك مسوغ أنثروبولوجى لأفتراض أن يتفوق شعب دون شعب آخر بسبب اللون فحسب » .

« ولنقرر الحقيقة التالية مرة أخرى ، وهى أن جميع الافريقيين تقريبا ، أينما كانوا ، أو كان لون بشرتهم تواقون للعلم والمعرفة . وهم ينالون القدر الذى يستحقونه من التعليم ، وآخذون فى التطور السريع بعد استقلالهم . والتخلف الأفريقى ثمرة من ثمار الاستعمار ولا علاقة له بسلالة أو لون » .

---

(١) فى كتابه « داخل افريقية » ترجمة باشراف حسن جلال العروسى . ص ١٦٦ .

## الفصل
## الثاني : العنصرية فى المستعمرات البرتغاليـــة

ان البرتغال دولة من الدرجة الثالثة ، متخلفة اقتصاديا واجتماعيا بالرغم من سيطرتها على تلك المساحات الشاسعة فى أنجولا وموزمبيق فى أفريقيا . فمستوى معيشتها ، ونسبة المتعلمين فيها أقل من جاراتها فى الدول المتقدمة ، فنسبة الأمية فيها تبلغ حوالى ٧٠٪ ونسبة الوفيات بها أعلى نسبة فى اوروبا . ويعتمد ما يزيد على ٥٠٪ من السكان على الزراعة ، ودخل الفرد فيها أقل من دخل الفرد فى أوروبا . ونظرا لركود اقتصادها الخاص ، واعتماد صناعتها على شركات أجنبية ورأسماليين اجانب ، فقد تركزت القوة السياسية فى أيدى قلة من ملاك الأراضى الذين لم يهتموا أى اهتمام بخلق سوق للمنتجات الصناعية ، أو يعملوا على رفع مستوى المعيشة فى بلادهم .

ومع ذلك فالبرتغال تملك امبراطورية من أضخم امبراطوريات العالم، اذ تبلغ مساحة مستعمراتها اكثر من ٨٠٠ر٠٠٠ ميل . أى ما يقرب من مساحة غربى أوروبا .

والبرتغال تعتبر النموذج الكامل للمجتمع المتحجر ، فهى لم تتأثر بكل الثورات الكبرى التى وقعت فى أوروبا .

وليس معنى ذلك أنها دولة مستقرة سياسيا . ففى الفترة التى انقضت بين نزول الملك شارل عن العرش سنة ١٩٠٣ وبين الانقلاب الذى قام به الجيش ، وأتى بسالازار سنة ١٩٢٧ ، تولى الرياسة ٨ رؤساء جمهوريات ، وقامت ٤٨ حكومة ، ونشبت ٢٠ ثورة ، حتى أن عصبة الأمم راودتها فكرة تولى ادارة البلاد لتحقيق الاستقرار فيها ! .

ومنذ استيلاء سالازار على الحكم ومستوى الحياة ـ وخاصة بين الطبقات العاملة ـ فى انخفاض مستمر ، والاقتصاد فى انكماش دائم (١) .

---

(١) البرتغال فى افريقية . جيمس دفى . ترجمة جاد طه .

ومن اجل تنفيذ برنامج التعمير الاقتصادى اتجه سالازار الى العمل على استمرار السيادة البرتغالية بأن يعطى معنى دستوريا لنظرية الأمة الواحدة ، ففى عام ١٩٥١ حدث تغيير شكلى بأن أدمج قانون المستعمرات الذى كان ساريا منذ سنة ١٩٣١ فى الدستور البرتغـــالى . واعتبرت المستعمرات اراضى برتغالية . وفيما عدا ذلك لم يحدث أى تغيير !

وهى تشبه السياسة الاستعمارية الأسبانية حيث نظر الاسبانيون الى مستعمراتهم فى أفريقية كولايات أسبانية لا كمستعمرات ، كما تشبه السياسة الاستعمارية الفرنسية السابقة التى اعتبرت الجزائر أرضـــا فرنسية !

ولما كانت القوة الشرائية منخفضة فى مستعمراتها الأفريقية اذ تحتوى على ٦ مليون نسمة فى موزمبيق و ٥ مليون نسمة فى أنجولا لجـــأت الحكومة البرتغالية فى ترويج منتجاتها الى طريقة عجيبة ، ففى النبيذ مثلا لجأت الى اصدار القرارات بمنع المشروبات المحلية المماثلة بحجة أن مشروبات لشبونة اقل ضررا من مشروبات المستعمرات !

أما القطن فيستورد من أفريقية بعد حلجه . وكان الانتاج ينحصر فى الملابس الرخيصة التى تصدر ثانية الى المستعمرات الأفريقية . وكذلك الحال بصدد المنتجات الأخرى كالســكر والخضروات والزيوت وسائر المنتجات الاستوائية ، وشبه الاستوائية .

وقد ظل سالازار فى الحكم منذ سنة ١٩٢٧ حتى الآن . ولم تشهد البرتغال حاكما قاسيا مثل سالازار .. فهو ديكتاتور ، متكبر ، متيبس الفكر والمبادىء . فلا حرية ولا ديموقراطية ولا عدالة اجتماعية .. بل سلطة مطلقة له ولأتباعه وكانت نتيجة ذلك أن جثم الفقر والجهل والمرض على صدر الشعب البرتغالى ، وحال هذا النوع من الحكم بينه وبين الحياة الحرة الكريمة التى تتناسب مع أفكار العصر . وهو الذى كان سببا فى تفكك الشعب عامة ، والأسرة خاصة .

اما السلطة فمركزة فى أيدى قلة من الطغاة الذين رفعهم سالازار الى الحكم . وأما الثروة فقد اصبحت فى أيدى قلة من الرأسماليين الأجانب، ومعهم أقلية من المغامرين الوطنيين الذين صارت كل آمالهم فى الغنى والشهرة بأية وسيلة على حساب أغلبية الشعب . ولهذا تفشت البطالة بين أكثر من ٥٠٪ من القوى العاملة .

وبعد أن انتهت الحرب الماضية انتعش أمل الشعب فى منحه قسطا من الحرية والرخاء .. ولكن سرعان ما خاب أمله حين أيدت بريطانيا وأمريكا سالازار خاصة بعد أن انضم الى الأمم المتحدة ، وحلف شمال الأطلنطى !

وعقلية سالازار عقلية استعمارية عتيقة كما أسلفنا . فهو لا يزال يحلم بالامبراطورية البرتغالية ويعتقد أن أنجولا وموزمبيق جزء من الوطن البرتغالى الأم .

لهذا لم يكن مستطاعا ـ والحالة هذه ـ تحقيق الوحدة القومية ، أو تطوير المستعمرات البرتغالية فى ظل حكومة سالازار التى تناهض ذوى الآراء الحرة ، والمثقفين ، وأصحاب المهن وتبطش بكل الحركات الوطنية التحررية ، وتفتك بالشعب .

وفى عام ١٨٣٦ صدر مرسوم فى البرتغال بالغاء الرق ، بالاتفاق مع الحكومة البريطانية ، بعد أن اشتدت فى العالم كله الدعوة الى هـــذا الالغاء . وفى عام ١٨٤٢ وقعت الدولتان اتفاقية أعلنتا فيها أن تجارة الرقيق تعتبر قرصنة . وفى سنة ١٨٥٨ تقرر الغاء جميع أشكال الرق خلال عشرين عاما .

غير ان الرق وان ألغى فى المستعمرات البرتغالية بالنصوص القانونية فانه ظل قائما فى صور أخـــرى ، منها صورة الســـخرة ، والتمييز العنصرى (١) .

ففى عام ١٨٧٥ صدر قانون يرغم الأفريقى على التعاقد للعمل لمدة عامين مع مولاه السابق ولأجل تأكيد هذا الرق الجديد صدر عام ١٨٧٨ تشريع آخر يجعل من سلطة الموظف البرتغالى فى المنطقة أن يعتبر كل أفريقى لا يعمل بمقتضى القانون الأول .. عاطلا !

وقامت حجة البرتغاليين فى هذا النظام الجـــديد على أن الافريقى لا يصبح متحضرا الا عن طريق العمل ، وأن اجباره على ذلك جـزء من رسالتهم التمدينية !

وقد دافع المندوب البرتغالى عن هذه السياسة عام ١٨٩٥ فى المؤتمر السادس للجمعية الجغرافية الدولية ، فقال :

---

(١) نهاية الاستعمار . محمد هنالى . ص ١٥٤ .

« اننا نسمع اليوم الناس يتحدثون عن العمل الاجبارى ، كما نسمع بالمثل كلمة « الرق » التى كثيرا ما استخدمت لاستغلال ذوى القلوب الطيبة فى أوروبا . وعندى أن الزنجى لن يشتغل ابدا عن رضاء ذاتى . والوسيلة الوحيدة لارغامه على العمل هى أن تجعله يدفع ثمنا غاليـــا لاشباع ضروريات الحياة القليلة التى يحتاج اليها . وهذا كان هـــدف سياسة البرتغال الاقتصادية فى أفريقية » .

وتقول البرتغال أيضا فى معرض دفاعها عن تلك السياسة :

« ان المرسوم الصـــادر فى عام ١٩٢٦ قرر أن السخرة لا تستخدم الا للمصلحة العامة ، وان يؤدى عنها أجر . كما نص قانون سنة ١٩٣٠ الخاص بتنظيم شئون المستعمرات — على أن نظام العمل بالتعاقد يقوم على أساس الحرية الفردية ، وحق الوطنى فى الحصول على أجر عـــادل ومعونة مجزية ، والا تتدخل السلطات العامة الا لأغراض التفتيش » .

غير أن العبرة ليست بالنصوص المكتوبة ، وانما بالتطبيق ، والروح السائدة فى هذا التطبيق .

١ — ينص القانون فى حالة السخرة على عدم أداء الأجر عن الأعمال التى يعود نفعها على الأفريقيين مباشرة . وهذا مبدأ عجيب فى القرن العشرين ، اذ المفروض ان تلك الأعمال من صميم واجبات الحكومة ، وهى تحصل الرسوم والضرائب وكافة الأموال الأميرية اللازمة لها . وقد أسيء — بطبيعة الحال — استخدام ذلك النص لسلب الأفريقيين أجورهم ، وحرمانهم من ثمرات مجهودهم الشاق المضنى ! .

٢ — يرسل الافراد الذين لا تميل اليهم السلطات ، لسبب او لآخر ، الى « ساوتوميه » أو « برنسيب » للعمـــل فى مزارع قصب السكر بأساليب لا تختلف عن أسوأ مظاهر العبودية .

٣ — المفروض طبقا للتشريعات أن يحصل العامل بالاختيار أو بالتعاقد على الأجر العادل ، ولكنه لا يعطى فى الحقيقة الا الأجر الذى يكاد يمسك رمقه . والغذاء الذى يقدم اليه من أحط الانواع . والمأوى لا يختلف عن حظائر الحيوانات . والخدمات الطبية تكاد لا يكون لها وجود .

٤ — والمفروض كذلك ان يتعاقد الأفريقى فى حرية تامة . ولكن الذى يحدث فعلا أن صاحب العمل — سواء أكان فردا أم شركة — يتقدم بطلب الى السلطات يتضمن عدد الأيدى العاملة اللازمة . ويحال

الطلب الى المأمور المختص . وهنا يتسع المجال للرشوة ، اذ يعمـــد المأمور الى جمع أكبر عدد ممكن من العمال لتزداد مكاسبه .

٥ — كانت الحالة فى ظل الرق أقل سوءا من الحالة الحاضرة . فقد كان مالك العبد حريصا على أن يظل العبد حيا أطول مدة ممكنة بسبب ارتفاع ثمنه . أما فى ظل هذا القانون فصاحب المزرعة يدفع أجرا زهيدا له . وما عليه اذا مات العامل من سوء المعاملة ، أو سوء التغذية أو نقص الرعاية الطبية ، الا أن يطلب غيره !

٦ — لا يراعى أصحاب الأعمال والموظفون الشروط الخاصة باعفاء الصغار من العمل ، وانما يجرى استخدامهم على نطاق واسع ، وخارج مناطقهم بعيدا عن أهليهم ، وخاصة فى مزارع الشاى فى نياسا ، ومزارع البن فى أنجولا .

٧ — وعلى الخادم الأفريقى لدى أسرة أوروبية أن يحمل « تصريحا » يوضح مركزه . وعلى مخدومه التوقيع فى الدفتر كل يوم . فاذا نسى الاخير ان يفعل ، أو تعمـــد أن لا يفعل ، ذلك فان السلطة تقبض على الافريقى وتحلق له رأسه ، ويرسل للعمل فى الطـــرق أو يلقى به فى السجون !

ونعرض هذا النظام للنقد الشديد على أساس انه يؤدى الى استنفاد القوة البشرية فى المستعمرات البرتغالية . ولذلك يلاحظ أن الكثيرين من العمال الأفريقيين يهربون سرا الى المستعمرات المجاورة رغم ما فيها من سياسة التمييز العنصرى والعزل العنصرى ، كما فى جمهورية جنوب أفريقيا ، وروديسيا الجنوبية ، ولكنهم يفضلونها على بلادهم !

قال سالازار فى احدى المناسبات :

« أن البرتغال كانت سباقة فى ميدان كشف أفريقية . وليس لدى البرتغال أية نية فى التخلى عن مسئولياتها . وهى تدرك انها صاحبة رسالة مقدسة أمرها الله بالقيام بها لهداية الكافرين (!!) سواء أكانوا فى دولة الهند ، أو فى غابات الكونغو ، أو فى هضاب أنجولا . ولن تتخلى عن هذه الرسالة مهما يفعل الآخرون » .

وهذه الفلسفة الاستعمارية العنصرية تقوم على الأسس الآتية ، كما صورها جورج اميل ممن يقومون على شئون الدعاية الاستعمارية والعنصرية فى البرتغال :

١ ــ العنصر الجغرافى : ومؤداه امتداد رقعة البرتغال الصغيرة على أرض شاسعة عبر قارات ثلاث ، وتأكيد الحقيقة القائلة بأن البرتغال هى الدولة الاستعمارية الثالثة فى العالم !!

٢ ــ العنصر التاريخى : وفيه تكمن النظرية العنصرية التى تزعم ان البرتغال هو الشعب المختار لتمدين الغير على حد قول سالازار . ويقول جورج اميل أن ذلك « ترديد لملحمة أبطالنا من الملاحين المحاربين الذين دفعتهم الحوافز المقدسة فحملوا سيادتنا وايماننا الى اقاصى العالم . ويشمل هذا العنصر البطولى انبل المشاعر التى نعرض بها رسالتنا كشعب مختار » .

٣ ــ العنصر المادى : وهو أن تجنى البرتغال ثمرات المشاق والجهود المضنية ، الضاربة جذورها فى أعماق التاريخ والتى بذلتها فى كشف مجاهل القارة النائمة ولسلب ونهب كنوزها قبل أن تطأها أقدام المغيرين البيض الآخرين .

ويقول عنه « جورج اميل » : « انه حصيلة جهودنا ومتاعب مبعوثينا بحيث أتيح لنا أن نأخذ من البلاد القاصية ثرواتها المخبوءة ، ونؤسس مراكز للأنتاج والربح فى بلاد بعيدة جدا » .

٤ ــ العنصر الوطنى : وهو النعرة الكاذبة التى حدت بحاكم أنجولا أن يقول متفاخرا :

« أقسم أننا نحن البرتغاليين سوف ننفذ واجبنا كوطنيين مهما كانت الضرورة ، ومهما كانت الصعوبة ، فى التضحية . اننا نعرف كيف نموت ، ونستشهد من أجل أراضى (١) البرتغال التى نرى أن تكون وأن تظل دائما برتغالية » .

ويقول جورج اميل عن ذلك « استلهم الشعور الوطنى ــ كما جرى على ذلك لقرون عدة ــ ما كتبه كاموس فى لوسيداس .. استلهم رمز الوحدة الأدبية للأمبراطورية التى تغنى بارتيادها وفتوحاتها فى سبيل الحضارة فى أبيات من الشعر الباقى على مر الزمن » .

ومعنى هذا أن المجتمع البرتغالى الأمبراطورى الكبير يجب أن تترابط أجزاؤه من النواحى الثقافية ، والسياسية ، والاقتصادية ، وان يخضع

---

(١) يقصد مستعمرات البرتغال .

للسلطة المركزية فى لشبونة التى يجلس على قمتها السفاح الأكبر سالازار. وبعبارة أخرى : دولة واحدة ، ودين واحد ، وجيش واحد .

ويدل على حقيقة وجود هذا الاحساس الخيالى ما جاء فى افتتاحية جريدة « العالم البرتغالى » من أنه « بدون المستعمرات البرتغالية فى أفريقية سوف تكون شعبا صغيرا (١) » .

ويقول وزير المستعمرات :

« كثيرا ما يقال اننا نتغنى بتاريخنا . بل يقول البعض اننا نحتمى فى الماضى لنعوض تفاهة الحاضر . وبرغم ذلك فاننا فى البرتغال نشعر الآن أننا ورثة تقاليد عظيمة جدا حتى أنه يحق لجيل اليوم أن يستحضر الماضى لا كذكرى ميته وانما كمصدر للألهام للمستقبل !!

وقد جرصت حكومة سالازار على غرس هذه السياسة الاستعمارية، والفلسفة العنصرية فى عقول أفراد الشعب البرتغالى ، المغلوب على أمره، وبخاصة فى صفوف الشباب لألهاب خيالهم الساذج ، ولحملهم على الهجرة الى المستعمرات . ولم يهتم المثقفون بهذه الدعاية المسمومة فى أول الأمر لجهلهم حقائق الأحوال فى المستعمرات . ولكن تكفل الفقر فى البرتغال بعد ذلك باقناع البرتغاليين بما كانوا يرفضونه . فقد كان دخل الفرد فى البرتغال من ٧٠ الى ٨٠ جنيه فى السنة ، وهو أقل دخل فى أوروبا .

وبدأت هجرات البرتغاليين تفد على مستعمرات البرتغال فى أفريقية جماعات جماعات ، كالجراد بعد أن كانت تستورد منها الرقيق الى مزارعها . وقد كان لهذه الهجرات أثرها على هذه المستعمرات . ومن ثم أصبحت مدنها جميعا تعج بالبيض وسط بحر من جمهور أسود كالليل ، وأصبحت أحياء البيض معاقل تحمل الطابع البرتغالى . وقد نجحت حكومة سالازار فى هذه الناحية ، وان كانت قد عملت بمرور الزمن على تجميد الحدود الفاصلة بين عالم البيض وعالم السود .

وهكذا أصبح عامل اللون « مركب تفوق » لدى البرتغالى الدخيل .. و « مركب نقص » لدى الأفريقى الأصيل .. وبدأت السياسة العنصرية السالازارية المتحجرة .

وظل سالازار يحلم بالامبراطورية رغم المصاعب الجمة فى المستعمرات،

(١) نهاية الاستعمار البرتغالى المصدر السابق . ص ٦٥ .

والهجوم العالمى على سياسته الخرقاء فيها . وقد تحدث فى مايو ١٩٥٤ عن المشكلة الأفريقية عامة فقال :

« الحقيقة الواقعة تقول ان أفريقية على فوهة بركان حتى فيما يجاور الحدود (١) البرتغالية ولكن لماذا تندلع النار فى أفريقية ؟ .. ليس لنا أن نتخيل أن ذلك يرجع الى نار كامنة فى الداخل ، وأعنى حركة التاريخ الحتمية التى تدفع السكان الى التمرد والصراع والاستقلال . ان أفريقية تحترق لأن النيران أشعلت فيها من الخارج » ..

اما الرئيس أفريكو توماس فقد قال فى نوفمبر ١٩٦٠ :

« ان وجودنا فى أفريقية ليس كوجود الآخرين . ولسوف نواصل دائما سياستنا فى الضم والاستيعاب » .

اما الدكتور كاسترو فرنانديز ، رئيس الاتحاد القومى للحزب الحاكم فقد قالها دون مواربة او حياء :

« ان البرتغال فى أفريقية .. ولسوف تظل فى أفريقية » .

**العنصرية فى أنجولا :**

تقع أنجولا بين نهرى الكونغو وكونين . ويحدها من الشمال والشمال الشرقى الكونغو ( ليوبولدفيل ) ، ومن الجنوب جنوب غرب أفريقيا ، ومن الشرق زامبيا . وهى تطل من الناحية الغربية على المحيط الأطلنطى بساحل طوله حوالى ١٠٠٠ ميل ، وان لم تتوافر فيه الظروف الملائمة لانشاء الموانى الطبيعية الجيدة .

ويتكون الاقليم من سهل ساحلى يتراوح عرضه بين ٣٠ ، ١٠٠ ميل . وتمتد موازية لهذا الاقليم هضاب مرتفعة تتجه من الشمال الى الجنوب يتجاوز أعلاها ٧٥٠٠ قدم ، فى حين يتراوح الارتفاع فيها جميعها بين ٤٠٠٠ و ٦٠٠٠ قدم . ويخفف هذا الارتفاع من درجة الحـــرارة الشديدة ، ولذلك تصلح تلك المناطق لاقامة الاوروبيين . وتهبط الهضاب فى الشمال الشرقى مكونة جزءا من منابع مجموعة نهر الكونغو ، فى حين تقع الأجزاء المنخفضة فى الجنوب الشرقى فى نهار زمبيزى وبحـــيرات بتشوانا لاند الشمالية .

(١) يقصد المستعمرات البرتغالية فى افريقيا .

والنبات الطبيعي غزير في الشمال . وتغطى الغابات المدارية مساحات كبيرة من المرتفعات ، في حين توجد الأشجار في الهضاب . وتنتشر أعشاب السافانا في الجنوب والشرق . وتربة البلاد خصبة بوجه عام . ونظرا لتنوع المناخ يمكن زراعة مختلف أنواع نبات المناطق المدارية والمعتدلة .

وبالرغم من أن أنجولا قطر متسع فانها قليلة السكان ، اذ تبلغ كثافة سكانها ١ر٢٨ شخصا في الميل المربع . ويبلغ مجموع السكان فيها نحو ٥ مليون نسمة ، منهم ٢٠٠ ألف أوروبي استوطنوا هناك منذ عهد قريب . والقبائل الرئيسية هي البانتو والبالوندا في الشرق ، وأوفامبو في الجنوب ، ومبوندو والباكونجو في أقصى الشمال .

وتوجد في أنجولا مدن كبيرة كثيرة ، والعاصمة « لواندا » هي أكبرها اذ يزيد عدد سكانها على ٢٢٥ ألف نسمة ٣٥ ألفا من البيض ، وبنجويلا التي يزيد عدد سكانها على ١٩ ألفا ، وهما تقعان على المحيط ، ولوبيتو التي يزيد عدد سكانها على ٣٢ ألفا . ولواندا العاصمة من أجمل مدن أفريقية ، وهي ذات مناخ استوائي .

وتبلغ مساحة أنجولا حوالي ١ر٢٥٠ر٠٠٠ كيلو مربع ، أي قدر مساحة البرتغال التي تستعمرها ١٤ مرة .

وتمثل الزراعة الحرفة الأساسية للسكان الأصليين في أنجولا . وهي تقوم على مجرد أشباع الحاجات الأولية للأهالي ، كالاذرة والدخان الى جانب البطاطا .

أما الزراعة الحديثة فيمارسها الأوربيون ، وهي تمتاز بوجود الوحدات الزراعية الكبيرة والمتوسطة التي منحت للشركات والأفراد ، وازدياد استخدام الأساليب الفنية الحديثة تدريجيا — وان كان الاعتماد الأكبر على العمل اليدوي والعمال الأفريقيين بوجه خاص اذ أنهم أقل كلفة من استخدام الآلات الميكانيكية — والتركيز على انتاج المحصولات التجارية والصناعية وأهمها البن والقطن وقصب السكر . ويكون البن ٤٥٪ من صادرات أنجولا . ولكن هذا المحصول نقص منذ سنة ١٩٦١ بسبب الثورة الوطنية . وصناعة السكر من الصناعات ذات الاهمية الكبرى لاقتصاد أنجولا والبرتغال معا . وكذلك حرفة تربية الحيوان وأهمها الماشية والخنازير . وقد ترتب على وجود هذه الحرفة أن أصبحت أنجولا تصدر مقادير كبيرة من الجلود .

ومن اهم المعادن فى أنجولا الماس ، ولكنه يحتل المركز الثانى فى أهميته بعد تجارة البن . كما يتوافر فيها خام الحديد ، والمنجنيز . أما النحاس فلا يزال قليلا .

وأعظم عمل فى السنوات الأخيرة كان اكتشاف البترول عام ١٩٥٥ على مقربة من لواندا .

وقد لاحظ سالازار فى عام ١٩٤٣ ان الأراضى الفنية الشاسعة والتى يقل فيها عدد السكان هى المكمل الطبيعى للزراعة ، والصناعة فى الوطن الأم ( البرتغال ) بالاضافة الى أنها سوف تستوعب الفائض من السكان . لذلك وضعت حكومته مشروعات التنمية والتوطين . ولكن جهودها فى هذا السبيل لم تكن منسقة أو منظمة . كما أن مناخ أنجولا كان غير مشجع للكثيرين على هذه الهجرة . ومع ذلك فانها اجتذبت أكثر من غيرها من المستعمرات البرتغالية الأخرى نسبيا بسبب وفرة فرص العمل والعيش فيها .

ولقد عانت انجولا العبء الأكبر من مساوىء الاستعمار البرتغالى ومفاسده ، فكانت البلد الذى استنزف البرتغاليون موارده البشرية فى عهد تجارة الرقيق .

لذلك لا عجب أن أصبحت انجولا على درجة كبيرة من التخلف الاقتصادى بالقياس الى غيرها من البلاد الأفريقية الأخرى التى كانت تابعة للدول الاستعمارية مثل أفريقيا الوسطى ، والكونغو وكينيا ، وغانا وغيرها . وهذه الظاهرة ترجع الى عدة اعتبارات منها تخلف البرتغال ذاتها اقتصاديا ، وعدم اقبال أهلها على الاستيطان ، وقلة رأس المال البرتغالى المستثمر فى المستعمرات ، وعجز حكومة سالازار عن تشجيع رءوس الأموال الأجنبية ، وسوء الادارة .. الخ .

والحق أن التفرقة العنصرية التى يمارسها البرتغاليون فى أنجولا — وفى غيرها — تؤكد انهم أحفاد قراصنة ، لا مجرد استعماريين كغيرهم .

وأهم مظاهر هذه التفرقة العنصرية هى :

١ — ان الافريقيين محرومون من تحمل اية مسئولية فى ادارة بلادهم . واذا وقعت احدى الجرائم البسيطة فى قرية من قراهم ظلت بلا تحقيق أو عقاب حتى يحضر رجل ابيض أو قسيس محلى . واذا كانت الجريمة خطيرة تولى الفصل فيها المسئول البرتغالى .

والسلطة العليا فى المستعمرات ــ منذ قانون سنة ١٩٣٠ ــ يمثلها حاكم عام ، يعينه مجلس الوزراء بناء على توصية وزير شئون ما وراء البحار لمدة أربع سنوات قابلة للتجديد .

ويعاون الحاكم العام مجلس تشريعى ذو سلطة استشارية محدودة ، وأغلبية منتخبة من غير الأفريقيين . أما الباقون فيعينهم الحاكم العام .

وجهاز الحكم فى المستعمرات احتكار للبرتغاليين وحدهم . أما أبناء البلاد فعبارة عن جيش الأيدى العاملة لخدمة المصالح البرتغالية .

ومن يعين من الأهالى الوطنيين فى الجهاز الحكومى يكونون فى العادة عيونا للادارة البرتغالية . ولذلك ينظر اليهم مواطنوهم بعين الريبة ، ويعتبرونهم مجرد أدوات فى يد المستعمرين . وهكذا ، ومن خلال هذا النظام الادارى الصارم ، تمتد سلطة الحكومة البرتغالية ماشرة من وزارة المستعمرات فى لشبونة الى قلب المستعمرات ذاتها ، التى أصبحت منذ سنة ١٩٥١ تسمى «أقاليم ما وراء البحار» ورفع عنها اسم «المستعمرات» .

٢ ــ لا يسمح لغير الأفريقيين بالتمتع بأى حقوق مدنية . وتحول الأفريقى الى برتغالى مسألة صعبة لأنها تتطلب اجادة اللغة البرتغالية ، واستيعاب العادات والتقاليد البرتغالية . وهذا كله مستحيل بفضل العقبات التى تضعها الادارة البرتغالية . فالتعليم مثلا كله حكومى ، ولا يقبل فيه الا ابناء البيض فقط دون أبناء الوطنيين أصحاب البلاد الاصليين ...

٣ ــ الافريقيون بحكم القانون ممنوعون من دخول المبانى العامة ، والفنادق . ويسمح للافريقى بالسفر بالدرجة الثانية ، وتناول الطعام فى بعض المحال العامة بشرط أن يرتدى ملابس أوروبية نظيفة اذا كان رجلا . أما السيدة فيشترط أن ترتدى فستانا ، وأن تكون سافرة .. وفى كل محطة أوتوبيس .. وفى كل محطة سكة حديد .. وفى كل مطار .. وفى البنوك .. وفى المحال العامة .. وفى حلبات السباق .. وفى الملاعب والشواطىء .. وحتى فى المطاعم نجد أماكن مخصصة للبيض وأخرى للسود .. وفى كل مكان تجد اللافتات وعليها عبارة « للأوروبيين فقط » أو « للسود فقط » أو « ممنوع دخول السود والكلاب » !!

وكتبت السيدة / جويندولن م . كارتر الأستاذة الأمريكية فى كتابها « الاستقلال لأفريقيا » الذى وضعته بعد عدة رحلات الى أفريقيا (١) .

---

(١) نهاية الاستعمار البرتغالى . المصدر السابق . ص ٨٨ .

« لقد مضى بعض الوقت قبل أن أدرك طبيعة الاحساس الغريب الذى أحسست به ، وأنا فى قاعة الطعام بفندق لواندا المريح . كان الطعام شهيا والخدمة ممتازة . وأخيرا تبينت لماذا لم أكن أحس بأننى فى أفريقية . لم أر وجها أسود واحدا . حتى أوانى الطعام التى وضعت أمامى حملها خادم ابيض . ولم احس من قبل بأننى فى منطقة أوروبية ، معزولة عن القارة مثلما احسست بذلك فى هذا المكان من أنجولا البرتغالية . ولم يكن فى الفندق الذى نزلت فيه أى أفريقى . وحتى الخدم والبوابين كانوا من البرتغاليين . وفى المنطقة المنبسطة القريبة من لواندا توجد مزارع برتغالية صغيرة بها منازل بيضاء أنيقة تحيط بها أشجار الفاكهة ، الى جانب مزارع النخيل وقصب السكر الشاسعة . وشاهدت أعمال البناء تجرى على قدم وساق فوق الهضبة . وفى « سيلا » بوجه خاص قد دفع الأفريقيون دفعا الى ما وراء الجبال الجرانيتية التى ترتفع فوق السهل الأجرد فى الوقت الذى شيدت فيه المساكن الجبلية فى نظام هندسى بديع ، وأعدت لسكنى المستوطنين الجدد البيض » .

٤ ــ نقص الخدمات الطبية والخدمات العامة الأخرى فى الأحياء المخصصة للسود ، وكذلك قصور التغذية . الأمر الذى أدى الى هبوط معدل المواليد ، وارتفاع نسبة وفيات الأطفال ، ومخاطر العمل التى بلغت نسبة وفيات العمال منها حوالى ٤٠٪ .

٥ ــ تجنيد الأفراد للعمل . وجاء بالتقرير (١) الذى وضعه الكابتن هنريك جلفاو أن ١٢٪ من العمال رفضوا لأسباب صحية ، وأن ١٠٪ هربوا من العمل أو مرضوا أو لم يمكن الاعتماد عليهم لأسباب أخرى ، وتم الالتجاء الى العنف لتعويض النقص ، وأن ٣٣٪ من القادرين على العمل لا يعملون . الأمر الذى يدل على أنه لا يعفى العامل من السخرة الا الموت ! لذلك فهو يقرر أن النظام القائم هناك أكثر من الرق . وجاء بالتقرير أيضا أن المستوطنين كانوا يتوجهون الى ادارة شئون الوطنيين

---

(١) أوقدت الحكومة البرتغالية الكابتن هنريك جلفاو ، وكان يعمل مفتشا عاما فى المستعمرات ونائبا عن أنجولا فى البرلمان ، الى مستعمراتها فى أفريقيا عام ١٩٤٧ ليضع لها تقريرا عن أحوالها . وقد سافر جلفاو فعلا الى أنجولا ورفع تقريره الأول الى الجمعية الوطنية . وعلى اثر رفعه لهذا التقرير قام سالازار بسجنه . ولكنه استطاع الهرب عا ١٩٥٩ وظل مختفيا حتى عام ١٩٦١ . وقد أخفت الحكومة التقرير الى ان حصلت جريدة الأوبزرفر على صورة منه فنشرته فى عددها الصادر فى ٢٩ يناير ١٩٦١ .

طالبين العدد اللازم من العمال وكأنهم سلع . وباستمرار هذا الأسلوب، واساءة استخدامه ، تعود المستوطنون على فكرة التزام الحكومة بتدبير العمال لهم . ويصح القول بأنه يسود هناك اعتراف ضمنى بهذا الالتزام من قبل الحكومة حيث انها تمارس فعلا عملية توريد العمال ، وتقوم فى سبيل ذلك بأعمال وحشية كسجن المجندين للعمل ، وغير ذلك من الأعمال التى لا تتفق بأى حال مع نصوص القانون والانسانية والحضارة.

ومؤدى نظام السخرة أو تجنيد العمال أن العامل لا يستطيع اختيار صاحب العمل الذى يؤدى له أفضل الأجور ، وانما يرغم على العمل لدى الشخص الذى تعينه السلطات حيث يحصل على الحد الأدنى من الأجر الذى ينص عليه القانون .. وكثيرا ما يحشدون كما تحشد الحيوانات للعمل فى مزارع انجولا لدى المستوطنين حيث يموتون بنسبة تتراوح بين ٢٠٪ ، ٣٠٪ من كثرة الارهاق ، والضعف .

وتجند الحكومة أيضا العمال للقيام بخدماتها . وغالبا تلجأ الى استخدام النساء والأطفال والعجزة لأنه لا تتوافر لديها عادة الاعتمادات المالية لتشغيل الرجال أو الأصحاء . وأحيانا ترغمهم على العمل بدون اجر أو غذاء فى الطرق ، والمزارع الحكومية . وكان يشتد الطلب على العمال فى أقاليم نائية جدا فلا يؤدى لهم أجرهم الا بعد تنفيذ الأعمال بشهور طوال .

وكان الوطنيون الذكور فيما بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين عرضة لهذا العمل الاجبارى سواء لدى صاحب عمل من البيض ، أو فى الخدمات العامة . ولكى يعفى الأفريقى منه عليه أن يثبت ( أولا ) انه يعمل بنفسه فى مهنة أو تجارة أو صناعة ( ثانيا ) أنه سبق أن ادى هذه الخدمة الاجبارية للدولة أو لمقاول خاص لمدة ستة شهور على الأقل بصفة مستمرة ( ثالثا ) أو أن يكون فلاحا أوفى بكل الشروط التى حددتها تشريعات المزارعين .. الخ .

ويقول الكابتن جلفاو عن معاملة أصحاب الأعمال انفسهم للعمال (١) :

١ ــ انهم يقاومون بكل الطرق الممكنة سياسة الأجور العادلة .

٢ ــ يسيئون معاملة العمال بكل وسيلة ، اذ ما تزال العقوبات البدنية ، وأساليب العنف الجثمانى قائمة . كما تسود الفكرة القائلة بأن الوطنى مجرد « حيوان » لحمل الأثقال .

---

(١) فى تقريره المشار اليه آنفا .

٣ ــ الاصرار على أداء كل شيء بوساطة العمل اليدوى .
٤ ــ نقل العمال من جهة الى أخرى دون مراعاة التغييرات فى البيئة المناخيـــة .
٥ ــ عدم العناية بتوفير المساكن الصحية اللائقة .
٦ ــ ان روح الابادة ما تزال متغلغلة فى نفوس أصحاب الأعمال .

ويختتم الكابتن جلفاو تقريره بالعبارات الخطيرة التالية :

« انى أتحمل مسئولية اثبات صحة كل ما أقول . انكم لا تستطيعون توجيه النقد الى الا لأنى لم أذكر الحقيقة كلها ، أو بالأحرى لأنى لم أصف جميع وجوه المشكلة ، ولكن هذا يتطلب مجلدات كبيرة ويستغرق ساعات كثيرة » ويضيف الى ذلك أن هذه الحقائق « لا يمكن ادراكها تماما عن طريق التقارير أو الاحصائيات الرسمية لأن الأرقام أو الألفاظ صماء ساكنة .. انها لا تصرخ ولا تتحدث عن الألم الذى يعذب الأفريقيين .. ولا الدماء الغزيرة التى تسيل منهم ، وانما يتطلب الأمر أن يتوجه المرء ليشاهد الأشياء بنفسه ، وأن يشجع الذين يريدون أن يروها بدلا من أن نوصد فى وجوههم الأبواب » .

**العنصرية فى موزمبيق :**

ان موزمبيق تحدها من الغرب محمية «سوازيلاند» وجمهورية جنوب أفريقيا وروديسيا الجنوبية وزامبيا ( روديسيا الشمالية ) ومالاوى ، ( نياسالاند ) . وتحدها من الشمال جمهورية تانزانيا (تنجانيقا وزنجبار) . ويحدها من الشرق المحيط الهادى ، بطول ١٤٣٠ ميلا ، فى مواجهة عدة جزر أهمها وأكبرها جزيرة مدغشقر . وتقوم طائفة من الموانى الطبيعية الجيدة على الساحل .

وتبلغ مساحة المستعمرة ٧٨٣٣٠ كيلو مربع ، ويقدر عـــدد سكانها بنحو ٦ مليون نسمة منهم ٥٠ ألف من الأوروبيين . وتوجد فى مناطق كثيرة منها الغابات بجوار الأنهار . وفى السلاسل الجبلية فى الشمال تنتشر أشجار النخيل ، وجوز الهند . ويزرع الأهالى عـــددا من المحصولات التجارية مثل قصب السكر ، والقطن ، والفواكه وأهمها الموز .

وتعتبر موزمبيق مثل أنجولا تماما فى درجة تخلفها الاقتصـــادى بالقياس الى غيرها من البلاد الأفريقية التى كانت تابعة للدول الاستعمارية ،

اذ تقوم حياة السكان الوطنيين على الزراعة البدائية وحـدها كما هى الحـال فى انجولا .

اما الشركات الأجنبية فتحتكر ثروة موزمبيق ، وتمتلك مساحات واسعة من أرضها نتيجة اتفاقيات قديمة أبرمت بوسائل الاحتيال والغش والنصب .

واحصائيات سنة ١٩٦٠ عن صادرات موزمبيق هى :

١١٢ ألف طن صادرات من السكر .
٤٥ ألف طن صادرات من القطن .
٤٥ ألف طن صادرات من الذرة .
٩ كيلو جرام من الذهب .
٤ آلاف طن من البوكسيت .
مليون رأس من الماشية .
٩٩ ألف من الأغنام .
٣٨٥ ألف من الماعز .
٩٠ ألف من الخنزير .

ومن أهم الشركات الاحتكارية فى الاقليم « شركة موزمبيق » وهى شركة برتغالية ، ويعتبر أساس نشأتها منح امتياز الكشف عن الثروة المعدنية على طول نهرى بوزي وبنجوى ، ومن اهم شروط الامتياز :

١ ــ استغلال ادارة مساحة تربو على ١٢٠٠٠ ميل مربع .
٢ ــ مدة الامتياز خمسون سنة .
٣ ــ تعطى الحكومة ١٠٪ من الأسهم ، كما تحصل على ٥ر٧٪ من صافى الأرباح . ومقابل ذلك تمتنع الحكومة عن جباية الضرائب فى المنطقة مدة الامتياز .
٤ ــ تضمن الحكومة احتكار التجارة والتعدين والصـيد وجمع الضرائب وانشـاء الطرق والموانى وخطوط المواصـلات ، والمصارف ، والبريد . وهكذا أصبحت الشركة حكومة داخل حكومة .

كما أن هناك « شركة نياسا » البريطانية ، و « شركة زمبيزيا » التى يتبع كبار مساهميها جنوب أفريقيا ، وألمانيا ، وانجلترا ، والبرتغال .

وقد كانت موزمبيق العمود الفقرى لصناعة التعدين فى جنوب أفريقيا وروديسيا بما كانت تمدهما به من العمال المجندين طبقا لنظام السخرة .

وتتفق موزمبيق وأنجولا فى سائر النظم الادارية والاجتماعية والتمييز العنصري .

* * *

ولو اننا عقدنا مقارنة بين وضع السود فى المستعمرات البرتغالية ووضعهم فى الولايات المتحدة مثلا لوجدنا أن الطائفة الأولى أسوأ حالا بكثير من الطائفة الثانية الذين ما يزال هناك بارقة أمل أمامهم حيث تعمل الحكومة ، والمحكمة العليا لتخفيف حدة العنصرية ، وتتدخل بالفعل وبالقوانين لهذا الغرض . كما يسمح فى كثير من الأحيان لهم بالتعبير عن شعورهم فرادى وجماعات للمطالبة بحقوقهم فى المساواة التامة بينهم وبين البيض . أما فى المستعمرات البرتغالية فعلى العكس تماما حيث تمعن الحكومة الاستبدادية فى سياستها الغاشمة ، وتضرب بيد من حديد كل من تسول له نفسه المقاومة ، أو حتى مجرد الاحتجاج !

وهى تمارس هذا التمييز العنصرى المتزايد فى مستعمراتها بقوة القانون ، وبقوة السلاح معا .

فالسود — فضلا عن عدم تمتعهم بالحقوق المدنية كما سلف — لا يستطيعون التنقل بحرية من مكان الى مكان حتى فى داخل المناطق المخصصة لهم .. الا بتصريحات خاصة للمرور ، قد تزيد بالنسبة للشخص الواحد فى بعض الحالات الى ثمانية أو تسعة تصريحات .. حتى النساء السوداوات بدأت السلطات البرتغالية تجبرهن على حمل هذه التصريحات .

وفى كل عام يلقى البوليس القبض على أكثر من نصف مليون افريقى لمخالفتهم « نظام تصريحات المرور » .. وأكثر من ٥٠٪ من القضايا التى تنظرها المحاكم من هذه المخالفات .

وليس فى الدنيا كلها دولة تطبق مثل هذه النظم البربرية ، أو تعزل رعاياها بسبب اللون هذا العزل الهمجى ، أو تجعل المستوطنين الغرباء وهم أقلية ضئيلة ، يستأثرون بـ ٧٨٪ من مساحة الأرض الصالحة للزراعة بينما تترك للأغلبية الساحقة من أهل البلاد الأصليين ١٣٪ من الباقى .

وليس فى الدنيا كلها بلد يتساقط سكانه كالذباب من الجوع فى الوقت الذى تفيض فيه ثروات البلد عن حاجة السكان كما هى الحال فى المستعمرات البرتغالية .

ومن هنا نجد أن سياسة البرتغال فى مستعمراتها الافريقية منافية لجميع المبادىء الانسانية والاتفاقات الدولية . وليس أدل على ذلك من عدم انضمامها بالأمس الى اتفاقية الغاء السخرة التى أعدها مكتب العمل الدولى التابع لعصبة الأمم ، وعدم سماحها اليوم بدخول لجان دولية من هيئة الأمم المتحدة للتحرى والاستقصاء فى مستعمراتها ، بل وغلق الباب فى هذه المستعمرات أمام جميع الزائرين المعروفين بمشاعرهم الانسانية !

وقد وصف « ندابانينجى » هذه السياسة فى كتابه « القومية الافريقية » بقوله :

« يظن البرتغاليون ان الله ارتكب خطأ بأن جعل الأفريقى أفريقيا ، وأن سياستهم فى الأدماج جهد يبذل لتصحيح هذا الخطأ !! » (١) .

---

Ndabaningi Sithole - African Nationalism. (1)

الفصل
## الثالث : العنصرية فى جمهورية جنوب افريقية

### تاريخ استعمار جنوب افريقية :

اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٧٨ . غير أن علاقة الأوروبيين بسكان هذه المنطقة لم تبدأ الا منذ سنة ١٦٠١ عندما بدأت سفن شركة الهند الشرقيـة الانجليزية فى التوقف فى « الكاب » . وفى سنة ١٦٢٠ حاولت سفينتان بريطانيتان رفع العلم البريطانى عليها ، ولكنهما فشلتا . وفى سنة ١٦٥٢ تمكن « جان فان ريبيك » وأتباعه من احتلال هذه المنطقة لحساب شركة الهند الشرقية الهولندية ، وتمكنوا من بناء قلعة فيها ، ومزرعة صغيرة ، ومحطة تجارية حتى تستطيع سفنهم من التوقف ، والحصول على التموين فى رحلتها الطويلة من هولندا الى جزر الهند الشرقية الهولندية ( اندونيسيا الآن ) .

وفى هذه المرحلة لم يتوغل الهولنديون فى الداخل حتى لا يكونوا بعيدين عن البحر ، وخشية حدوث اضطرابات بينهم وبين السكان الأصليين .

ولكن بالتدريج بدأ المزيد من المهاجرين الهولنديين يفدون الى المنطقة والى المناطق الأخرى المجاورة بقصد القيام بالرعى والزراعة مع خضوعهم لحكم شركة الهند الشرقية الهولندية التى لم يكن يهمها من تلك المناطق شيئا سوى التجارة ، والحصول على المزيد من الربح . وقد أطلق على أخلاط الهولنديين المهاجرين اسم ( البور Baers ) . أى الزراع .

ولم يجد البور الأرض هناك خالية اذ كانت مسكونة بعناصر البوشمن ، والهتنتوت السكان الأصليين ، الذين قاوموا الأغارة على أراضيهم مقاومة ضعيفة تتناسب مع ضعفهم السياسى والحربى حتى انتهى الأمر بابادة البوشمن ، وخضوع الهتنتوت ، والتحول الى رقيق للهولنديين .

وكان لنقص النساء الهولنديات المهاجرات الى منطقة الكاب أثره فى اتخاذ المهاجرين نساء من الهتنتوت ، مما أوجد سلالة مختلطة أطلق عليها اسم « الملونين Coloured » .

وفى نفس الوقت الذى كان فيه الهولنديون يحتلون منطقة الكاب فى الجنوب كانت بعض قبائل البانتو تزحف من الشمال نحو الجنوب الشرقى لتستقر فى المنطقة التى أطلق عليها « فاسكوداجا ما » اسم « ناتال » .

فالمنطقة اذن كان يسكنها الأفريقيون من قديم ولم تكن خالية من السكان كما أدعى الأوربيون .

ولما سيطرت الثورة الفرنسية على هولندا ، وطردت أسرة أورانج المالكة ، وكونت جمهورية بتافيا قام بعض الهولنديين باعلان الجمهورية فى الكاب مما دفع انجلترا الى احتلال بعض المستعمرات الهولندية ، ومنها ( الكاب ) ذاتها ، ورفع العلم البريطانى عليها سنة ١٧٩٥ .

وبعد ثمانى سنوات تنازلت بريطانيا بموجب معاهدة « أمين Ameins عن معظم ما أخذته من هولندا ومنها الكاب . ولكنها عادت واحتلتها ثانية عام ١٨٠٦ بحجة حماية هذه المنطقة من حروب نابليون .

وفى مؤتمر فينا ، المنعقد سنة ١٨١٤ ، ضمت مستعمرة الكاب رسميا الى انجلترا بعد أن تنازلت عنها هولندا نهائيا لبريطانيا فى مقابل ستة ملايين من الجنيهات .

وهكذا أصبح على البور ، الذين ولدوا وتربوا كطبقة حاكمة ارستقراطية - أن يخضعوا لحكم بريطانيا التى أرسلت المبشرين الى هناك ، ورفعت شعار . . حسن المعاملة للأفريقيين ، وخاصة بعد الغاء الرقيق ، وألقت اللوم كله فى ذلك على الهولنديين .

وقد بدأت هجرات البور نحو الشمال تاركين أراضيهم بمنطقة الكاب لأفواج جديدة من المهاجرين الانجليز ، وضغطوا فى الشمال على الأفريقيين، وانشأوا ولاية أورنج الحرة ثم جمهورية الترنسفال .

ولكن انجلترا بعد أن رأت الذهب والماس يتدفق فى هاتين الجمهوريتين اشتبكت مع البور فى حروب عنيفة انتصر فيها البوير أولا ( ١٨٨٠ - ١٨٨١ ) ثم انتصرت انجلترا بعد ذلك ( ١٨٩٩ - ١٩٠٢ ) ثم انضمت الولايات الأربعة : الكاب ، وناتال ، والترنسفال ، والأورنج .

وفى سنة ١٩١٠ قام اتحاد جنوب أفريقيا من هذه الولايات الأربع ، ودخلت ضمن الدومنيون البريطانى ، ثم ضمن مجموعة الكومونولث الذى طردت منه سنة ١٩٦١ على أثر تجمع الرأى العام ضدها لممارستها التمييز العنصرى .

**اقتصاديات الاقليم :**

جمهورية جنوب أفريقية تتكون من هضبة مرتفعة تتخللها أودية أنهار ، وسهولها الساحلية ضيقة . وتكاد تكون الهضبة مستوية فى كثير من أجزائها .

وتبلغ مساحة الاقليم ١٫٢٥٠٫٠٠٠ كيلو متر ، ٦٥٪ منها تصلح للمراعى أكثر مما تصلح للزراعة . وتقدر مساحة الأرض الزراعية ١٦ مليون فدان يزرع منها ٩ مليون فدان أذره ، و ٤ مليون فدان قمحا وشوفان ، ونصف مليون فدان قصب سكر . كما يزرع الطباق والقطن . وتغطى الغابات ٤ مليون فدان أخرى . وقد ترتب على وفرة المراعى أن أصبحت المنطقة تصدر أصوافا بما قيمته ٢٥ مليون جنيها .

ويبلغ عدد الماشية ١٢ مليون رأس منها ٧ مليون يمتلكها البيض وحدهم الذين لا يزيد عددهم عن ٣٪ مليون شخص بينما يمتلك ٥ مليون رأس باقى السكان ومجموع السكان حوالى ١٥ مليون شخص منهم ٤٧٥٫٠٠٠ من الملونين و ٣٢٨٠٠٠ من الأسيويين ( الهنود ) .

وتعد الثروة المعدنية أكبر اقتصاديات اتحـــاد جنوب أفريقية . فالذهب أكثر من نصف الانتاج العالمى ، وتتركز مناجمه فى ترنسفال وتنتج ما قيمته حوالى ٣٥٠ مليون جنيه . كما يوجد البلاتين فى نفس المنطقة ويبلغ ٤١٪ من مجموع الانتاج العالمى ، وهو أكبر انتاج فى أى دولة فى العالم . ويبلغ الماس أيضا ١٦٪ والحـــديد ١٧٪ من الانتاج العالمى . ويوجد بها أيضا النحاس ، والأنتيمون ، والفحم ، والفضة ، والمنجنيز بكميات وفيرة . وقد بلغ انتاجها من الفحم وحده ما قيمته ٢٥ مليون جنيه . كما باعت من اليورانيوم للولايات المتحدة عام ١٩٦٢ ما قيمته ٥٠ مليون جنيه .

ويرى الجيولوجيون أن هذا المستوى الضخم من الانتاج سيظل ربع قرن آخر .

وتزيد استثمارات بريطانيا هناك عن ١٠٠٠ مليون جنيه ، ويصل حجم التجارة بينهما حوالى ٣٠٠ مليون جنيه .

وتبلغ استثمارات الولايات المتحدة حتى نهاية عام ١٩٦٢ حـوالى ٥٣٠ مليون دولار ، ويبلغ حجم التجارة بينهما ٥٠٠ مليون دولار .

## التفرقة العنصرية :

تمارس فى اتحاد جنوب افريقية جميع صور التمييز العنصرى الذى تزداد حدته يوما بعد يوم لاصرار الحكومة على اقتراف هذه الجريمة مهما كان الثمن الذى تدفعه لها ، الى حد أن صرح وزير العدل فيها ـ عقب قرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للامم المتحدة بطردها من جميع المنظمات الدولية ـ بأن « حكومة جنوب افريقيا مصرة على موقفها من سياسة التمييز العنصرى ، وأن حالة الطوارىء التى أعلنتها الحكومة ستستمر على العناصر المعارضة لهذه السياسة ، وحتى لا يستطيع افريقى ان يرفع راسه فى وجه أسياده البيض » !!

وقد قاسى « غاندى » من التمييز العنصرى عندما سافر الى جنوب أفريقية لمحـــاولة ايجاد تسوية لمشاكل الهنود فى الاقليم ، اذ منع من الركوب فى عربات الدرجة الأولى ، كما لم تسمح له فنادق الدرجة الأولى بالمبيت فيها . وكذلك طرد من المحكمة ، وقبض عليه لتواجده خارج مسكنه بعد التاسعة بدون تصريح (١) !!

والأفكار الرئيسية التى بنى عليها مجتمع جنوب أفريقية هى أفكار البور مع بعض الاختـــلاط بالهجنوت Huguenots ، وقليل من الألمان وكل هؤلاء المستوطنين قد أتوا من المجتمعات البروتستنتية الأوروبية فى القرن السابع عشر . ولذلك فأفكارهم الاجتماعية والسياسية والدينية هى من نتاج حركة الأصـــلاح الدينى ، والمعارضة الشديدة للمذهب الكاثوليكى . وقد بنيت آراؤهم الدينيـــة ـ التى أثرت فى نظـرتهم الاجتماعية ـ على قصص العهد القديم ( التوراه ) أكثر من العهد الجديد ( الانجيل ) (٢) .

ولذلك كان يرى البيض فى جنوب أفريقية أنه « مادام الله قد أوجد خلافا فى الشكل بين البيض والسود فانكار هذا الاختلاف من الأمـــور الشاذة . وقد حاولوا تأييد ذلك من قصص العهد القديم ، وهم يعتقدون من واجبهم حيال الانسانية والحضارة الاجتماعية أن يحتفظوا بالاختلاف بين ذرية حام وسام ويافث ( أبناء نوح ، عليه السلام ) ..

---

(١) دفاع عن الزنوج بقلم احمد محمد عطية . ص ٧٩ .

(٢) التفرقة العنصرية فى افريقية ـ د . فؤاد الصقار . ١٠٧ .

والواقع أن البور فى الوقت الحاضر لم تتغير نظرتهم عما كان عليه آباؤهم وأجدادهم منذ ثلاثة قرون . فهم مقتنعون تمام الاقتناع ، عن ثقة وايمان ، بأنهم شعب مختار ، يحمل رسالة ، ويعمل على نشرها فى هذه المناطق المتأخرة .

وساعدت الكنائس بطريق مباشر أحيانا ــ وبطريق غير مباشر فى كثير من الأحيان على تقوية هذا الاعتقاد لدى البيض بتقسيم السكان الى بيض مسيحيين وسود غيرمسيحيين . وقد زاد التعاون بين الكنيسة والبيض فى الحروب ضد القبائل الافريقية عندما أعطت الكنيسة للبيض تأييدا صليبيا لتبرير جميع الجرائم التى يرتكبونها فى حق السود ، لأنهم ــ فى نظرها ــ كانوا « أداة الله ويده لتــدمير النظم الافــريقية الوثنية » .!

وكان للرقيق أيضا أثره فى نشوء فكرة التمييز العنصرى . فقد استرق هؤلاء المهاجرون الأوائل سكان المنطقة ، كما جلبوا الكثير من الرقيق من غرب أفريقية ومن جزر آسيا للقيام بجميع الأعمال الشاقة ، والخدمات المنزلية للمستوطنين . وبالرغم من الغاء الرق فانه قد ترك أثرا اجتماعيا عميقا فى مجتمع جنوب أفريقية .

وهكذا ارتبطت السيادة باللون الأبيض ، والعبودية باللون الأسود .

ويدل تاريخ القرون الثلاثة الماضية على قوة سياسة التمييز العنصرى فى مجتمع جنوب أفريقية . ذلك التاريخ المملوء بالحروب العنيفة المستمرة . حــروب بين القبائل ، بعضها البعض . وحــروب بين الأوروبيين والافريقيين . وحروب بين المستعمرين . وحروب بين الانجليز والبور . الأمر الذى روى ارض جنوب أفريقيا بالدماء وأنبت فيها الحقــد ، والكراهية ، والثأر .

ان سياسة التمييز العنصرى فى مجتمع جنوب أفريقيا من وضــع البريطانيين الذين كانوا يتظاهرون بمعارضتهم لها . فقد كان اللورد ملنر ــ الذى عرفناه فى مصر ــ مندوبا ساميا فى جنوب أفريقية بين سنتى ١٨٩٧ ، ١٩٠٥ . وكانت سياسته الخاصة بالأجناس سياسة استعمارية بحتة ، اذ قال صراحة « ان على الجنس البريطانى . رسالة خاصة فى العالم » . وكان ضد اختلاط الجنس ، زاعما أن المســاواة السياسية غير ممكنة ، وان على البيض أن يسودوا لارتفاع مستواهم

فوق السود بدرجات عديدة ، لا يتجاوزها السود الا بعد عدة قرون . . وقد لا يجتازونها على الاطلاق (۱) !

وفى سنة ١٩٤٨ انتخب الدكتور مالان رئيسا للوزارة فعمّق من التفرقة العنصرية كسياسة وطنية فى كل صغيرة وكبيرة من أمور الحياة فى مجتمع جنوب أفريقية .

وفى سنة ١٩٥٤ ، جاءت المرحلة الثالثة لسياسة التمييز العنصرى حين استقال الدكتور مالان وخلفه المستر ستريدوم الذى ضاعف من شدة هذه السياسة ، وقسوتها وأعقبه بعد قليل الدكتور فرفورد الأكثر تعصبا من سابقه ، والذى أعلن بعد تعيينه بمدة قصيرة طرده لممثلى السود من المجلسين : وهم ثلاثة من البيض فى مجلس العموم ، وثلاثة آخرون من البيض أيضا فى مجلس الشيوخ — وقد عـزا ذلك الى أن وضعهم يدعوهم الى التعبير عن آراء الأفريقيين ، رغم أنهم من البيض . ولم يكن الدكتور فرفورد يطيق حتى ذلك !! . . .

**مظاهر التمييز العنصرى :**

ان البناء السياسى لجمهوية جنوب أفريقيا ، وهو البرلمان ، يطوى فى أعماقه هذا الحاجز اللونى ، اذ أن قانون جنوب أفريقية الذى صـدر سنة ١٩٠٩ ينص فى المادتين ٢٦ ، ٤٤ منه على أن عضو البرلمان بمجلسيه يجب أن يكون رعية بريطانية ، وينحدر من سلالة اوروبية . وقد تناول تشريع لاحق العدد الصغير من الناخبين غير الأوروبيين الذين يقيدون فى الجدول العام للانتخاب . ويقتصر تمثيل هؤلاء الناخبين فى المجلسين النيابيين على عدد صغير محدد من الأوروبيين .

كما أن غير الأوروبيين محرومون بحكم القانون والعرف من تولى منصب الحاكم العام ، ومن عضوية مجلس الوزراء ، ومن كافة المراكز المرموقة فى الخدمة العامة .

ويذهب الجرمان الى أبعد من هذا . فلم يحدث أن عين افريقى فى منصب قاضى المقاطعة أو حاكمها الادارى ، أو فى أى منصب مساعد حتى فى المناطق الأفريقية الخالصة (۲) .

---

(1) L. M. Thompson, The Unification of South Africa

(۲) الحرية المدنية فى جنوب افريقية . تأليف : ادجار هـ . بروكس و ج . ب ماكولى . ترجمة محمود أحمد حسين . ص ٨١ .

وقد اصدر الجنرال سمسطس - باعتباره وزير الدفاع - اثناء الحرب العالمية الثانية أمرا ينص على أنه « حيث يوجد فرقة عسكرية مختلطة من الأوروبيين فلحامل اكبر رتبة من الأوربيين أن يتولى القيادة حتى ولو وجد من غير الأوروبيين من هو أعلى رتبة منه . فمثلا يتقدم الجندى الأوروبى على الجاويش غير الأوروبى . وبقدر المستطاع لا تضع الدولة غير الأوروبى فى منصب له نفوذ على أى أوروبى . واذا نشأ مثل هذا الوضع فانه يعتبر وضعا شاذا يتعين تصفيته بأقصى سرعة » !

وأن سيلا من التشريعات العنصرية يتدفق من برلمان جنوب أفريقيا مكتسحا كرامة الافريقيين من السود والملونين على السواء .

من هذه التشريعات « قانون قيد السكان » الذى ينص على أن كل شخص فى جنوب أفريقية يجب أن يقيد اما كأبيض واما كملون واما كوطنى .

كما أن كل ملون يرتب حسب السلالة او القبيلة التى ينتمى اليها ( قانون رقم ٣٠ لعام ١٩٥٠ مادة خامسة ) .

ويستحيل أن يتخلص شخص ما أو أحد ابنائه من التصنيف الذى وضع فيه .

وبقرار تحريم التزاوج المختلط منع الزواج بين الأوروبيين وغير الأوروبيين . وكل زواج من هذا القبيل باطل ، والموثق الذى يعقده عرضة لتوقيع الغرامة ( المادتان ١ ، ٢ من القانون رقم ٥٥ لسنة ١٩٤٩ ) .

ويحرم قانون البغاء المعدل الاختلاط الجنسى غير المشروع - حتى لو كان عن تراض - بين الأوروبيين وغير الأوروبيين . واذا حدث هذا الاختلاط المحرم ونتج عنه مواود فانه يعتبر ملونا ( القانون رقم ٢١ لسنة ١٩٥٠ ) . اما الاحتمال الوحيد فى أن يدون المولود غير الشرعى لامرأة بيضاء من رجل غير أوروبى فى سجل البيض فهو عندما :

١ - تكون السلطات غير متيقنة من أن الأب غير أوروبى .
٢ - ويكون الطفل أوروبيا فى طلعته !

وعلى اساس هذا التمييز العنصرى حددت حقوق وواجبات كل مواطن أوروبى أو غير أوروبى .

فقد خصصت فى المحكمة العليا غرفة لمحام هندى ليلبس فيها الروب . ومن العجيب أن هذا المحامى يدخل من نفس الباب مع زملائه البيض ،

ويجلس معهم فى قاعة الجلسة . وللأبيض مكان يدلى منه بشهادته فى المحكمة غير المكان المخصص للأسود .

وتقضى قوانين المصانع باعـــداد غرف استراحة ، ودورات مياه للأوروبيين منفصلة عما يعد منها لغير الأوروبيين . وهذا ما يطبق على مكاتب العمل ، والمساكن .

وقد خصصت سكة الحديد عربات من الدرجة الأولى والثانية لغير الأوروبيين كما خصصت لهم غرف انتظار منفصلة أيضا .

وسرى هذا التمييز العنصرى نفسه فى سيارات الركوب العامة ، وفى الترام وكافة وسائل النقل .

وتبدو سياسة التمييز العنصرى كذلك فى الخدمات الاجتماعية ، وخاصة المعاشات والمنح . فالحد الأعلى لمعاش التقاعد ١١٤ جنيه سنويا للأوروبيين و ٤٩ جنيه للملون و ٤٣ جنيه للهندى و ١٢ جنيه للأفريقى الذى يعيش فى مدينة كبيرة و ٩ جنيهات لمن يعيش فى مدينة صغيرة و ٦ جنيهات لمن يعيش فى الريف . أما المنح فلا تعطى الا للأوروبيين كمنح البطالة ، أو المساعدات الاجتماعية للأسر الفقيرة ، بحجة أن الميزانية لا تسمح بذلك .

وهناك قانون « مناطق الفئات » الذى يحدد مناطق التملك للأفراد على أساس من الجنس وحده ، ويحرم عليهم التملك فى بقية أجـزاء المدينة . كما يجيز ارغامهم على أن يعيشوا فى مناطق معينة لا يتجاوزونها الى غيرها ، أو ارغامهم على التخلى عن مهن مارسوها قانونيا فى هـذه المناطق بما يتبعها من شهرة ليزاولوها من جديد فى مناطق اخرى . وقد يحرم المرء من أن يعيش فى منزل بناه بنفسه قبل صدور هذا القانون . وقد يصبح الابن محروما من أن يرث متاعا اقتناه أبوه بطريقة شرعية . وان السلطة التى خولت للحاكم العام أو للوزير بناء على هذا القانون تمارس على أساس تقارير يرفعها مجلس ادارة مناطق الفئات الذى يعتبر بمثابة محكمة ادارية لا يمكن استئناف أحكامها أمام أية جهـة قضائية أخرى .

ويهدف قانون (١) مقاومة الشيوعية فى الظاهر الى الحد من نشر المذاهب الخطرة . غير أن الوسائل التى اتخذها تناقض ذلك تماما .

---

(١) القانون رقم ٤٤ لسنة ١٩٥٠ المعدل فى عام ١٩٥١ .

فقد أعطى للحاكم العام أمر تحديد ما اذا كان الفرد شيوعيا أم غير شيوعى. كما أن العقوبات التى توقع عليه هى أيضا مسألة ادارية خالصة . وقد عرف هذا القانون الشيوعى بأنه « الشخص الذى يعلن أنه شيوعى ، أو من يعتبره الحاكم العام كذلك » . واذا جردنا هذه العبارة من زخرفها اللفظى ، ونفذنا الى معناها الصحيح فانها تصبح : « ان الشيوعى هو الشخص الذى يعتبره الحاكم العام شيوعيا » . أو هو بصريح العبارة « الشخص الذى يريد الحاكم أن ينكل به » ... ولتوضيح ذلك نقول انه من الجائز ان يعتبر الحاكم الشخص الذى يهاجم التمييز العنصرى ، أو ذاك الذى يطالب بالمساواة العنصرية أو ما شابه ذلك .. شيوعيا !

والقانون رقم ٦٤ لسنة ١٩٥٦ يحظر ايقاف تنفيذ اى أمر ادارى ولو بحكم من المحاكم ، وخاصة اذا كان الأجراء متعلقا بالأفريقيين . كما صدر القانونان ٧٩ و ٢٨٣ لسنة ١٩٥٧ بعدم جواز الغاء أى اجراء قانونى من شأنه أن يوقف أو يرجىء تنفيذ بعض الأوامر الادارية كالأوامر الصادرة بجلاء أو رحيل أو طرد أو عزل أو منـــع الوطنيين من أحياء أو أماكن معينة ولو رفع عنها استئناف أو التماس اعادة نظر . بل ان القانون يشتط لدرجة الغاء ايقاف التنفيذ الذى صدر بالفعل . صحيح أن للمحاكم فى النهاية أن تقرر بطلان الأمر ، أو تحكم بالتعويض عنه ، ولكن بعد أن يكون الافريقى قد أجبر على الرحيل من المنطقة !

وان قانون الأمن العام (١) ليشل البرلمان والمحاكم ، ويوقف سلطاتها فى ظروف خاصة ، ويضعها فى يد الحاكم العام لمدة غير محدودة .

* * *

ان حق الفرد فى حرية التنقل داخل بلاده هو من الحقوق المدنية الطبيعية فى أى بلد من بلاد العالم الا فى جمهورية جنوب أفريقيا التى تتسم بالشذوذ فى كل شىء !

فالقوانين التى تقيد من حرية انتقال الهنود داخل أقاليم جنوب افريقية أساسها قوانين الهجرة الى الولايات قبل تكوين الاتحاد . فقد كانت هذه الولايات دولا لكل منها كيانها المستقل ، وصاحبة الحق فى تنظيم وتحريم الدخول فى أراضيها . ولكن الاحتفاظ بهذه القيود حتى الآن بنى على أساس التفرقة العنصرية لا القوانين السابقة .. بعد مضى

(١) القانون رقم ٣ لسنة ١٩٥٣ .

أكثر من نصف قرن على تكوين الاتحاد ، لا زلت ترى أفرادا ولدوا ونشأوا فى البلاد لعدة أجيال يعاملون وكأنهم مهاجرون تخضع انتقالاتهم — بعيدا عن منطقة سكنهم — للرقابة الحكومية (١) .

وان القيود المفروضة على حرية انتقال الأفريقيين فى جنوب أفريقية لها جذورها أيضا فى التدابير التى اتخذها المستعمون الأوائل لتوطيد سلطانهم ، ولتأمين بقاء شعوب هـذه المنطقـة من العـالم متخلفة فقد فرضت التدابير لابقاء الأفريقيين فى المعـازل الوطنيـة والمزارع بعيـدا عن المنـاطق الحضرية التى يسكنها الأوروبيون الا أولئك الذين يعمـلون كخـدم أو مسـتخدمين فى تلك المنـاطق . وان هذه الصـورة البشعة من الاستعباد راسخة بقـوة التشريع كقانون « المناطق الحضرية » الموحد الصادر عام ١٩٤٥ ، وقانون مناطق الفئات سالفى الذكر . وبمقتضى القانون الأخير عندما يسمح للافريقى باختراق المناطق الحضرية ، المحرمة عليه ، للعمل اليدوى الذى يسخر فيه كخادم او مزارع أو مستخدم ، لا يكتسب حق الاقامة الدائمة فى مكان العمل ، بل يبقى فيه على أساس أنه منح حق اقامة موقوته يعود بعدها الى المعزل الوطنى . بل أن تغيير الأفريقى لمسكنه فى داخل منطقته — أو معزله — ليس عملية سهلة ، اذ لابد من موافقة رسمية للانتقال الى الموطن الجديد . أما الرحيل الى منطقة أخرى فهو أمر مستحيل .. وبعامة فان انتقال الأفريقى داخل الاتحاد — مهما كانت أسبابه — يحتاج الى اجراءات معقدة وتأشيرات رسمية عسيرة المنال . والمجال الوحيد الباقى له هو امكانية التنقل فى داخل الحدود المحيطة بمحل اقامته الحالى .. وبتعبير أدق داخل جدران مسكنه !

أما الرعايا الأوروبيون فلهم أن يتنقلوا بدون قيد أو شرط ، والى أى مكان ما عدا المعازل الوطنية ، فان ذلك يتطلب تصريحا من السلطات .

هذا فضلا عن أن الحرية الشخصية — حتى فى داخل الحـدود المسموح بها — تخضع لسلطات مطلقة تصدر من الوزير أو من ينـدبه الوزير لهذا الفرض حيث يستطيع الوزير ، أو هذا المندوب ، وبلا محاكمة من اى نوع .. ان يقيد حرية أى شخص فى الانتقال من مكان الى آخر ، أو أن يمنعه من حضور اجتماعات ، أن يقصيه من منطقة الى منطقة ،

---

(١) الحرية المدنية فى جنوب افريقية — المصدر السابق . ص ٦٦ .

او يحرمه من مغادرة الاتحاد وكل هذه العقوبات المؤلمة لا تستند غالبا الى اى سبب ، أو جريمة .. بل ولا تستند الى أى قانون . وهى حينئذ تطبق عليها عقوبات الجرائم السياسية .

وطبقا للقانون رقم ٦٧ لسنة ١٩٥١ ، المعدل بالقانون رقم ٧٩ لسنة ١٩٥٧ ، يتحتم على كل أفريقى جاوز الستة عشر عاما أن يحمل بطاقة شخصية ــ بعد الغاء جوازات المرور ــ يبين فيها اسم الافريقى ، ومحل اقامته ، ومكان عمله .. الخ . وقد كان القانون يستعمل كلمة « الرجل الوطنى » ثم عدل لاستعمال كلمة « وطنى » فقط حتى تشمل النساء أيضا رغم احتجاجهن ، وخاصة فى المدن الصفرى . وتمثل مخالفات المرور ، بتطبيق هذا القانون ، نسبة كبيرة من القضايا فى المحاكم .

وهناك مشروع يرسل بمقتضاه الأفريقيون المحبوسون لمدد قصيرة الى العمل بالمزارع .

ولقد اتسع نطاق القوانين التى تجيز فرض قيود ادارية على الحريات الشخصية :

١ ــ ففى سنة ١٩٥٠ صدر قانون مقاومة الشيوعية الذى منح وزير العدل سلطة اقصاء أى شخص عن منطقته اذا اقتنع ، أو قرر أن هذا الشخص يدافع عن .. أو يدعو .. أو يشجع على تحقيق أى غرض من أغراض الشيوعية ، أو يقوم بعمل .. أو يمتنع عن عمل يساعد على تحقيق هذا الفرض ، أو أن ذلك الشخص من منطقة يظن أن فيها من يفعل ذلك . واذا وضعنا فى اعتبارنا أن مدلول كلمة « شيوعية » واسع المدى ، وان أى فعل أو الامتناع يمكن أن يؤخذ أو يفسر حسب الأهواء والأغراض الذاتية .. اذا وضعنا فى اعتبارنا كل ذلك لأدركنا مدى التهديد الخطير للحرية الشخصية الذى يتمثل فى هذا القانون .

٢ ــ وفى عام ١٩٥٢ صدر قانون الشرائع الوطنية الذى يبيح للحاكم العام أن يأمر باقصاء فرد أو قبيلة بأسرها عن محل الاقامة الدائم الى أى مكان آخر أو منطقة أخرى وعدم العودة بعد فترة محدودة ، أو لفترة غير محدودة على الاطلاق . وعصيان الشخص المطلوب اقصاؤه يترتب عليه القبض عليه ، وترحيله

بدون محاكمة باعتبار أن أمر الحاكم العام واجب النفاذ ، ولا يجوز وقف تنفيذه من اية سلطة أخرى ، على أساس أن هذا « النفى الادارى » يقتضيه الصالح العام .

٣ - وفى سنة ١٩٥٥ صدر قانون يحرم على أى فرد مغادرة الاتحاد الا بموجب تصريح أو جواز سفر باسم الاتحاد ، وهو عسير المنال ، مع أن هذا التصريح أو الجواز يسبب لحامليه متاعب لا حد لها فى كل البلاد التى تنفر من اسم الاتحاد ، والصورة الكريمة التى يدل عليها فى ذهن كل من يسمع هذا الاسم فى كل ارجاء العالم .

٤ - كما صدر قانون آخر سنة ١٩٥٥ يحرم الاجتماعات ، ويعطى للوزير سلطة النفى الادارى لكل شخص يرى أنه يروج مشاعر العداء ضد الأوروبيين فى الاتحاد .

ويمكننا أن نتصور بسهولة أن اى مطالبة عادية للاصلاح أو لتحسين الأحوال يمكن ان تفسر على أنها أعمال عدائية ضد الأوروبيين لأن الأخيرين هم المكلفون بهذا الاصلاح ، والاوصياء عليه فى نظر الاتحاد .

٥ - وفى سنة ١٩٥٦ صدر قانون المناطق الحضرية الذى يعطى لمأمور المنطقة ، أو مفوض الشئون الوطنية ، ان يقضى اى أفريقى عن المناطق الحضرية أو ارساله الى المزارع بحجة انه مشاغب ، أو عاطل ، .. والنفى اما دائم أو مؤقت . وقد استغل هذا القانون باستمرار ضد الافريقيين الذين يزعجون السلطات لتحسين وسائل النقل ، أو الذين يعارضون فى حمل نسائهم البطاقات الشخصية .. الخ .

هذا فضلا أن القانون يعطى مجالس المدن سلطة هدم المسكن الذى يقيم فيه ذلك الشخص وأسرته حتى لا يبقى له من أثر فى المنطقة ، وكأنه وباء .

٦ - وفى سنة ١٩٥٦ صدر قانون آخر يسمح للحاكم العام - بدون محاكمة أو تحقيق - بالقبض على الأفريقيين ، واعتقالهم فى أى وقت متى اقتضى الصالح العام ذلك .

وليس حظ الفرد بأحسن من حظ الصحافة . فاذا ذهب أحد الصحفيين فى التعبير عن رأيه مذهبا لا ترتاح له الحكومة فمأواه السجون بتهمة الترويج للشيوعية ..

نعم ان عددا من المصلحين الأحرار ، ذوى المراكز الكبيرة ، يجاهرون بآرائهم ، ويستطيعون ان يقفوا على أقدامهم الى حد ما .. ولكن هل تستطيع الشخصيات الأقل مكانة أن تفعل هذا ؟ .. مستحيل .. فالتعليق السياسى ممنوع علنا .. اذ أن كل تعليق يمكن أن تعتبره الحكومة ترويجا للشيوعية .

وفى عام ١٩٥٢ قامت فى الاتحاد حركة مقاومة سلبية ضد التمييز العنصرى بقيادة الأفريقيين والهنود ، واشترك فيها قليل من الأوروبيين، وقد واجهت الحكومة هذه المعارضة بتعديل القانون الجنائى سنة ١٩٥٣ ، وفرض عقوبات أكبر على الاحتجاج ضد قوانين البلاد .

ويجوز فرض العقوبات القاسية ـ كالجلد بالسياط ـ حتى للمخالفة الأولى .. بل حتى للمخالفات البسيطة .. بصرف النظر عن نوايا الكاتب، واتجاهاته .

ولا عجب اذا تسبب هذا القانون فى تكميم الصحافة ، والغاء رسالتها الحقيقية .

* * *

وبالنسبة الى العمالة بصفة عامة ، فقد فرضت القيود الآتية على غير الأوروبيين :

١ ـ قيود على التمرن والتلمذة الصناعية من شأنها حرمان غير الأوروبيين ، وخاصة الافريقيين .

٢ ـ حفظ المراكز العليا فى صناعة المناجم للأوروبيين وحدهم حيث يتمتعون بأكبر الأجور .

٣ ـ التدخل فى حرية الحركة النقابية للعمال بحيث يمنع تكوين النقابات المختلفة على غير الأوروبيين وخاصة الافريقيين .

٤ ـ منع الافريقيين من ممارسة الوسائل القانونية للصلح والتحكيم والتوفيق(١) .

---

(١) قانون التوفيق الصناعى لعام ١٩٥٦ . قسم ٤٥ و ٤٨ و ٥١ .

٥ ــ ان الاضراب ــ كوسيلة للاحتجاج أو للمطالبة بتحسين الأجور وأحوال العمل مسموح به للأوروبيين فقــط . أما بالنسبة لغيرهم فيعتبر جريمة عقوبتهــا الغــرامة التى لا تزيد على ٥٠٠ جنيه والسجن لمدة لا تتجاوز ثلاث سنوات ، أو بالعقوبتين معا . وتطبق نفس العقوبة على كل من يحرض أو يعطف على حركة الاضراب (١) .

٦ ــ لا يسمح فى مناطق العمل لغير الأوروبيين باقامة مساكن للعمال المشتغلين فى الصناعة . ولذلك يأوى العمال غير الأوروبيين ــ الذين يسخرون فى تلك الأعمال ــ الى حظائر قذرة ، فى أماكن بعيدة عن مناطق العمل ، ولا يتمتعون بأية رعاية صــحية ، أو خدمة اجتماعية .

٧ ــ حرمان العمال الملونين والافريقيين من الانتفاع بنظام التأمينات الاجتماعية .

٨ ــ لا يرقى اى افريقى أو ملون الى أى منصب رئيسى فى أعمال الخدمة المدنية ، على أن معظمهم ــ اذا استخدموا ــ يقومون بالخدمات الأقل أجرا ، والأكثر مشقة وجهــدا كخــدم أو سعاة (٢) .

وقد أشار الى كل هذه المظاهر الصارخة من التمييز العنصرى وغيرها تقرير مكتب العمل الدولى بجنيف الصادر فى عام ١٩٦٤ .

وللحد من تعليم الوطنيين وضــعت عراقيل فى طريق فتح مدارس خاصة بهم ، كما منعوا من الالتحاق بمعظم المدارس الحكومية العمالية وخاصة الجامعات . وحتى فى هذه المدارس والجامعــات لا يعيشون فى نفس الأماكن التى يعيش فيها البيض . كما أنهم محرومون من النشاط الاجتماعى والرياضى . وخطة التعليم العادى المسموح به لهم ترتكز على حماية النظام القبلى ، والابقاء على الفروق القبلية واللغوية . أى على أساس التفرقة العنصرية البحتة . فالتعليم فى المدارس الابتدائيــة للأفريقيين مختلف عن المدارس الأخرى التى يتعلم فيها أبناء البيض . وبالتالى يكون التعليم بمعناه الحقيقى لا وجود له .

---

(١) قانون التوفيق الصناعى لعام ١٩٥٦ قسم ٧٩ .

(٢) قانون التوفيق الصــناعى لعــام ١٩٥٦ قسم ٧٧ ( عدل هــذا القانون فى عام ١٩٥٩ ) .

ان القانون رقم ٤٧ لسنة ١٩٥٣ أوجب على كل المدارس الوطنية أن تسجل ولو كانت قائمة قبل صدوره ، وأن يكون تسجيلها حقا مطلقا لوزير الشئون الوطنية الذى يرفض التسجيل فى معظم الحالات . وقد جعل القانون عقوبة الابقاء على مدرسة غير مسجلة السجن او الغرامة .

وبناء على هذا القانون رفض تسجيل عدد من المدارس الكبرى ، العظيمة الشهرة ، والتى سجلت نجاحا رائعا .. وكان من بينها مدرسة عريقة ، يزيد عمرها على مائة سنة .

ان فلسفة التعليم الجديدة فى جنوب أفريقيا لا تشعر الافريقى انه يتعلم ليكون حرا فى دولة حرة ، وانما يتعلم ليكون صالحا لأى وضع تريده له الدولة . فهى فلسفة عنصرية خالصة .

* * *

وحكومة جنوب أفريقيا تحبط دائما الاختلاط الاجتماعى الحر المنتظم بين البيض وغير البيض . بل وقد يعتبر المسئولون مثل هذا الاختلاط كاتجاهات شيوعية أو غير مرغوب فيها بحجة خطرها على الأمن العام . فمثلا تعود شرطة الأمن والمباحث أن يدونوا أسماء أو أرقام سيارات أولئك الذين يعقدون أو يحضرون تلك الاجتماعات العادية ، حتى رجال الدين منهم .

* * *

وصفوة القول أن الأفريقيين فى جنوب أفريقيا لا يتمتعون بحكم القانون ، ولا بأية حماية مدنية أو اجتماعية أو انسانية .. بل ليس لهم أى حق قبل الدولة ، وليس لهم أقل حرية مدنية . وان ادارة شئون الوطنيين التى تمارس هذه السياسة العنصرية هى ــ الى حد كبير ــ استبداد منظم بقوة القانون والعرف أيضا ، وليس هناك أى سلطان ، أو رقابة على نشاطها ، وقراراتها . وان الاستبداد الرسمى ، المنبعث من هذه الادارة وغيرها ، يزداد باطراد ، ويحل محل الحقوق الشرعية ، والطبيعية للأفريقى ، صاحب البلاد الأصلى .

* * *

حتى الحرية الدينية لم تسلم من هذا الاعتداء المنظم . فعلى اثر تطبيق قانون « المناطق الوطنية » أصبحت ممارسة الوطنيين للشعائر الدينية ، سواء فى داخل مناطقهم أو خارجها ، خاضعة للسلطان المطلق

الممنوح لوزير الشئون الوطنية . وهو يستطيع بحكم هـــذه السلطة المطلقة ــ أن يمنع الافريقيين من اقامة الشعائر مع الأوروبيين ، جنبا الى جنب .. أو يسحب الترخيص باقامة كنيسة جديدة فى الأحيـــاء الوطنية .. أو يفرض على أبناء طائفة معينة ، أو جنس ما من الملونين أن يقيموا شعائرهم فى كنيسة خاصة .. أو غير تلك القيود التى أصبحت طابع الحياة كلها فى جنوب أفريقيا .

وقد وقع د . جـ . هـ . كلايتون ، رئيس أساقفة الانجليكان السابق لمدينة الكاب ، خطابا فى ٦ مارس ١٩٥٧ علق فيه على هـــذه السياسة الدينية : « نحن نعترف بخطورة عصيان قوانين البلاد ، ونؤمن بأن الله أمرنا بطاعة أولى الأمر منا . ولكننا أمرنا أيضا بأن نعطى ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله . واذن فهناك ما هو لله وليس لقيصر . ونحن نؤمن بأن ما ورد فى الفقرة ( ٢٩ جـ ) هو ضمن ما لله » (١) . ولكن هل كل ما جعله رئيس أساقفة الانجلكان لقيصر ، هو لقيصر فعلا ؟. وأين ما للافريقيين ؟؟.

كذلك فقد صدر بيان من رئيس الطائفة الميثودية ورؤساء الأقسام فيها ، وهم يمثلون ما يربو على مليون نفس جاء فيه :

« نحب أن نؤكد أن الميثوديين يحترمون القانون . ولكن اذا وضعنا هذا القانون فى موضع نختار فيه بين طاعة الحكومة وطاعة الله فنحن نكرر أن اختيارنا واضح . وعلينا أن نطيع الله لا الانسان » .

وكتب اتحاد العمدانيين يقول :

« نحن لا نوافق على أن أداء العبادة يحتاج لأذن من سلطات الدولة » .

وجاء فى بيان لكبير أساقفة الطائفة الرومانية الكاثوليكية ما يلى :

« نرى أن القانون يتضمن زعما للحكومة بأن تحكم عبادة الفرد ، واقامته الشعائر الدينية . ونحن لا نقبل مثل هذا الزعم » .

وربما كان أقوى احتجاج على هذا القانون ذلك البيان الذى صـــدر

---

(١) ان المادة ( ٢٩ جـ ) لقانون الشرائع الوطنية المعدل عام ١٩٥٧ تنص على انه « لا يجوز لأى شخص أن يقوم بادارة كنيسة أو مستشفى او ناد أو أية منشأة أو مكان للترفيه ــ لم يكن قائما قبل اول يناير ١٩٣٨ ويقبل الوطنيين او يسمح لهم بحضوره ــ فى مكان يقع داخل المنطقة الحضرية أو فى القرية الوطنية ، كذلك لا يجوز لأى شخص أن يعقد او يسمح بعقد اجتماع أو جلسة ويقبل فيها الوطنيين أو يسمح لهم بحضورها فى الأمكنة المذكورة الا بموافقة الوزير » .

من مجلس الطوائف الهولنـدية التى قبلت مقترحات الوزير الأساسية بالتحفظات الآتية : ـ

١ ـ أن تعاليم المسيح منبثقة من الله للبشرية جميعا ، ولا تقبل قيدا على انسان ما .

٢ ـ ان تحديد كيف وأين ولمن تنشر هذه التعاليم هو من حق الكنيسة وحدها .

٣ ـ أن واجب الدولة كخادم للاله هو السماح للكنيسة بالقيـــام بالدعوة الالهية ، واحترام سيادة الكنيسة فى مجالها الخاص .

* * *

ونختتم هذا الفصل بفقرات من خطاب للجنرال سمطس ، الرئيس السابق لوزراء الاتحاد ، تفوح منها رائحة النازية ، فقد قال :

« ان اشتراك الفرد فى المجهود الحكومى الشاق يبدو لى أساسيا فى كل تقدم صحيح .. وهناك انحلال فى المبادىء القومية يأكل مقومات الحياة فى الحكومات الحرة ... واليوم نرى انحطاطا فى مسئولية الفرد ، وفى نصيبه فى الحكم » .

## الفصل الرابع : العنصرية فى جنوب غرب افريقية

### الجغرافية الطبيعية للأقليم :

تقع جنوب غرب أفريقية فى شمال غرب اتحاد جنوب أفريقية ، بين خطى عرض ١٧ الى ٢٩ جنوبا ، من نهر كونينى الى نهر الأورنج ، ويمر فى منتصفها مدار السرطان . وتبلغ مساحتها ٨٢٤ كيلو تقريبا . وعاصمتها هى مدينة « وندهوك » . ومعظم أجزائها قليلة المطر . والمنطقة الشمالية غير ملائمة للرعى ، وتنتشر فيها الملاريا . وتتركز الحيوانات فى الوسط .

واذا استثنينا المنطقة الشمالية ، والجزء الشرقى ( صحراء كلها رى ) فاننا نجد اقليمين مهمين ، أولهما الهضبة الداخلية ، وهى أفضل مناطق الرعى ، وتتمتع بمناخ صحى ومياه باطنية وغـيره ، ويعيش فيهـا الأوروبيون . وثانيهما منطقة ثامب على الساحل ، وفيه أحسن الموانى الطبيعية حيث المياه الهادئة ، والرصيف القارى عميق .

وتوجد اغنى رواسب الماس فى الجنـوب قرب الساحل ، اذ كان المستخرج منه سنة ١٩٤٩ يبلغ ٢٨٠٫٠٠٠ قيراط ، وفى سنة ١٩٥٥ يبلغ ٥٨٦٫٠٠٠ قيراط ، وقدر مجموع انتاج سنة ١٩٦٠ بحوالى ٤٠ مليون جنيه ، صدر منه ما قيمته ١٥ مليون جنيه .

ويوجد أيضا الحديد ، والمنجنيز ، والفحم والبترول . وبلغت قيمة جميع المعادن المصدرة سنة ١٩٦٠ حوالى ٢٤ مليون جنيه .

كما يوجد من الماشية ٣ مليون رأس من الأغنام ، و ١٦٣ الف من الماشـية .

وهى تنتج من القمح ١٢ الف طن . كما تنتج الذرة ، والبطاطس .

ويبلغ عدد سكان الاقليم حوالى ٤٥٨ الفا من السكان منهم حوالى ٤٩ الفا من الأوروبيين . أما الباقى فمن القبائل الأفريقية ومن الملونين .

**الاستعمار الألمانى والبريطانى :**

وقد كانت جنوب غرب افريقيا مستعمرة المانية قبل الحرب العالمية الأولى حيث تمكنت ألمانيا من ضمها فى سنة ١٨٩٠ ، سيطرت على اقتصادياتها ، من الأغنام والرعى فانحدر السكان الأصليون الذين لم يهاجروا من البلاد الى حرفة الصيد ، نظرا للحكم الألمانى القاسى .

وفى سنة ١٩١٤ ، حين نشبت الحرب العالمية الأولى ، قامت القوات البريطانية من جنوب أفريقيا باحتلال الأقليم وبسطت نفوذها عليه وطردت منه الألمان .

وبعد تكوين عصبة الأمم أعطيت جنوب أفريقية حق الانتداب على جنوب غرب أفريقية لتقوم بادارتها بالنيابة عن الحكومة البريطانية مع مراعاة روح وميثاق عصبة الأمم .

وأصبح الانتداب وصاية وفى ظل الأمم المتحدة . واخذت حكومة جنوب أفريقية فى تشجيع الهجرة البيضاء لتكون منهم الطبقة الحاكمة ، التى منحتها أجود الأراضى الصالحة للزراعة والرعى بعد أن طردت منها أصحابها الشرعيين من الأفريقيين والملونين .

**سيطرة اتحاد جنوب أفريقية :**

لم تعترف حكومة جنوب أفريقية بسلطة الهيئة الدولية ، لرغبتها فى ضم جنوب غرب افريقية اليها . وقد حاول الجنرال سمطس ، حينما كان رئيسا لحكومة الاتحاد ، ضم جنوب افريقية فعلا الى هذا الاتحاد ، ولكن هيئة الأمم المتحدة رفضت .

وجاء بعده الدكتور مالان الذى رفض ارسال تقارير الى الأمم المتحدة، وأعلن تمهيدا للضم تخصيص ستة مقاعد فى الجمعية الوطنية ، وأربعة مقاعد فى مجلس الشيوخ ، لجنوب غرب أفريقية ينتخبون من البيض ، اذ حرم الافريقيون والملونون من حق التصويت ، طبقا للقانون الخاص بشئون جنوب غرب أفريقية الصادر سنة ١٩٤٩ . واقد تم أول انتخاب فى سنة ١٩٥٠ الذى كسب فيه الحزب الوطنى ، برئاسة الدكتور مالان ، جميع المقاعد ، وكذلك فى انتخاب سنة ١٩٥٣ ، مما يدل على ان البيض هناك من غلاة المستعمرين ، ومن أشد سياسة التمييز العنصرى .

وكانت الخطوة الثانية فى سياسة الضم حين أعلن الدكتور مالان فى سنة ١٩٥٣ أنه ليس على استعداد للاعتراف بسلطة مجلس الوصاية

على هذه المنطقة ، وانما هو على استعداد فقط لعقد معاهدة مع بريطانيا وفرنسا والأمم المتحدة للاعتراف بالوضع الراهن .

أما الخطوة الأخيرة فقد كانت فى اصدار قانون تنظيم شئون الوطنيين هناك فى ابريل ١٩٥٤ ، الذى نقلت بموجبه ادارة شئون الوطنيين فى جنوب غرب افريقية الى ادارة شئون الوطنيين فى الاتحاد ذاته . كما نقلت أيضا شئون أراضى الوطنيين .

ولا تزال حكومة اتحاد جنوب أفريقية تسيطر على الأقليم سيطرة كاملة ، دون اعتراف منها بأى سلطة أو اشراف لهيئة الأمم المتحدة عليها ، ورغم عدم اعتراف هذه الهيئة بالوضع كله .

وقد سبق أن عرض الأمر فى سنة ١٩٥٠ على محكمة العدل الدولية فأصدرت قرارها بأن جنوب غرب أفريقية ما يزال تحت الوصاية الدولية، وأن اتحاد جنوب افريقية ليس من سلطته أن يغير من هذا المركز الدولى . ولكن حكومة الاتحاد لم تعبأ بهذا القرار .

وفى سنة ١٩٥٧ شكلت الأمم المتحدة لجنة للمساعى الحميدة للوصول الى اتفاق دولى فى هذا الشأن . وقد وضعت هذه اللجنة عدة حلول عملية تتسم بالمرونة ، والتساهل ، الا ان حكومة الاتحاد لم تقبل أيا منها. الأمر الذى جعل العلاقة بين حكومة الاتحاد والامم المتحدة سيئة . ومما جعلها أكثر سوءا ازدياد معارضة جميع الدول ، والرأى العالمى ، لسياسة التفرقة العنصرية التى تنتهجها بدون حياء ، أو مداراه . وقد انتهى الأمر بطرد الاتحاد من المنظمة الدولية كما سبق .

**مظاهر التفرقة العنصرية :**

يمكن أن نأخذ صورة عن التفرقة العنصرية فى جنوب غرب أفريقية من تقرير مجلس الوصاية التابع للأمم المتحدة . فقد لاحظ المجلس ما يأتى : —

١ — ليس هناك أى تساو فى الحقوق والواجبات المدنية بين السكان الأصليين والأوروبيين .

٢ — ليس للسكان الأصليين أى تمثيل نيابى ، بل هم محرومون من الانتخابات .

٣ — قصر الوظائف على البيض

٤ ـ لا ينفق على ألوطنيين سوى ١٠٪ من الميزانية بالرغم من أنهم يكونون ٩٠٪ من السكان .

٥ ـ زجت حكومة جنوب أفريقية الآلاف منهم فى السجون والمعتقلات بدون محاكمة .

كما طردت آلافا أخرى من البلاد أو اضطرتهم اضطرارا الى الهجرة بحجة أنهم مجرمون . وقد لاحظ مجلس الوصاية أن زيادة نسبة من الصقت بهم تهمة الاجرام ظاهرة شاذة .

٦ ـ ان التعليم متأخر للغاية . وحجة حكومة الاتحاد فى ذلك أنه لا يتوفر لديها الأمكانيات الخاصة بالتعليم الثانوى والمهنى والعالى .

وتشبه مشكلة الأرض فى جنوب غرب أفريقية مشكلتها فى اتحـاد جنوب أفريقية . فالافريقيون وهم حوالى ٩٠٪ من السكان لا يمتلكون أكثر من ٢٢٪ من مساحة الأرض ، معظمها من المناطق غير الصالحة للانتاج . وقد بدأت مشكلة الأرض منذ الاستعمار الألمانى الذى بنى سياسته على أساس امتلاك الأراضى بعد أن عقد سلسلة من المعاهدات الصورية مع زعماء الأفريقيين يبيعون بمقتضاها بعض أراضيهم الى الحكومة الألمانية . وبناء على هذه المعاهدات امتلكت الحكومة الألمانية معظم المناطق الصالحة للزراعة لمنحها للمستوطنين الألمان .

وقد صدر أمر امبراطورى ألمانى فى سنة ١٨٩٨ ثم فى سنة ١٩٠٣ بتكوين معازل للأفريقيين ، واعطاء الدولة الحق فى انتزاع الأراضى التى يمتلكها الأفريقيون حتى يمكن ايجـــاد أرض لاســـتقرار المهاجرين الأوروبيين .

وقد اتبعت حكومة جنوب أفريقيا نفس هذه السياسة ، وزادت عليها ما تتبعه فى بلادها من التفرقة العنصرية . فضلا عن منح أفـراد القبيلة الواحدة عدة أراض متباعدة بقصد تشتيت القبائل ، والقضـــاء عليها جمـلة .

ويمكن القول أن التفرقة العنصرية التى تمارس فى جنوب أفريقية تطبق تطبيقا كاملا فى جنوب غرب أفريقية بكل ما فيها من ظلم .

## الفصل
## الخامس : العنصرية فى روديسيا الجنوبية

تقع روديسيا الجنوبية فى شمال منطقة الترنسفال ، وتبلغ مساحتها ١٥٠ ألف ميل مربع وتحدها من الشمال جمهورية زامبيا ( روديسيا الشمالية ) بحد يمتد حذاء نهر زمبيزى . وحدودها الجنوبية مع مستعمرة بتشوانالاند . وتلتقى حدودها فى الغرب بأفريقية الجنوبية الغربية ، وفى الشرق مع موزمبيق ، وفى الجنوب الشرقى مع جنوب أفريقية . وهى منطقة داخلية لا تطل على بحار . ومناخها من النوع السودانى . ويبلغ عدد سكانها حوالى ٣ مليون نسمة منهم ٢٢١ الف أوروبى تتركز فى أيديهم السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية كلها .

وتبلغ المساحة المنزرعة فى روديسيا الجنوبية ٩٧ مليون فدان خصص منها للأوروبيين فى مبدأ الأمر ٥١ مليون فدان وللأفريقيين ٢١ مليون فدان ثم خفض نصيب الأوروبيين فى الوقت الحاضر الى ٤١ مليون ، ولكن لم يزد نصيب الأفريقيين مع ذلك .

ويزرع فى روديسيا الفول السودانى ، والذرة ، والقمح ، والطباق ، والارز ، والقطن وبها ٢ مليون رأس من الماشية و ١٣٦ الف من الأغنام، ونصف مليون من الماعز .

وبها من المعادن : الابنوس ، والكروم ، والفحم ، والنحاس ، والذهب، والقصدير وقيمتها ٢٧ مليون جنيه سنويا .

وعاصمتها سالسبورى فى الشمال الشرقى على طريق الخط الحديدى من جنوب أفريقية وقد انشىء على الزمبيزى سد كاريبا سنة ١٩٥٩ على بعد ٣٠٠ ميل من شلالات فيكتوريا ، وهو ثانى سد فى العالم وتبلغ سعته ١٤٠ مليون قدم مكعب ، وتبلغ مساحة بحيرة الصناعية فى الأدغال ٢٠٠٠ ميل مربع ، وقد ادت مياهها المخزونة الى استصلاح ٤٢٥٫٠٠٠ فدان وتوليد طاقة كهربائية قدرها ٢٤٠ الف كيلوات / ساعة .

وان استعمار جنـــوب افريقية قد تم على ثلاث مراحل . فكان الهولنديون أول من أســوا مستعمرة لهم فى الكاب ، كما سلف ، منذ أكثر من ثلاثماية عام . ولما اخضـــع البريطانيون منطقة الكاب انطلق المستعمرون الهولنديون نحو الداخل وأسسوا جمهوريات البويرفى الشمال حتى يبعدوا عن السيطرة البريطانية . وفى المرحلة الثالثة أراد البريطانيون الغزاة أن ينتشروا فى الشمال فانحرفوا فى بتشوانالاند متجنبين مناطق البوير واستوطنوا حول نهر زمبيزى حيث توجد مناطق غنية بالمناجم ، ولا تكاد تختلف فى جوها عن جو بلادهم . ولقد شجعهم على الاستيطان أيضا أن أهل المنطقة قبائل غالبيتها مسالمة ، وعلى الفطرة فلم يجـــد البريطانيون صعوبة فى الاقامة بينهم ، ثم اتباع سياستهم الاستعمارية بابرام تلك المعاهدات الهزلية التى اتقنها البريطانيون . ففى عام ١٨٩٠ أبرم السير هارى جونسون بطريق هذه المعاهدات ، عدة اتفاقيات مع زعماء القبائل .

وفى مطلع القرن العشرين بدأت تتبلور نظم الادارة هناك فكانت شمال روديسيا وجنوبها تحت ادارة شركة شارتر البريطانية وأصبحت نياسالاند محمية مفوضها العام السير هارى جونسون نفسه .

وفى سنة ١٩٢٢ أجرى استفتاء بين المستوطنين الأوروبيين يخيرهم بين أن يدخلوا فى اتحاد جنوب أفريقيـــة أو يحصلوا على حكم ذاتى فاختاروا الأمر الثانى بينما وكلت ادارة روديسيا الشمالية ونياسالاند الى وزارة المستعمرات البريطانية . وكان غرض المستعمرين من هذه التقسيمات المصطنعة هو تفتيت الأقليم الواحد ، وتنويع وسائل الادارة ، لبث بذور الفرقة والتناحر فيما بين أجزاء هذا الأقليم .

ومنذ ان خلا الجو للأوروبيين ــ فى ظل الحكم الذاتى المزيف ــ بدات موجة من اضطهاد الأفريقيين فى روديسيا الجنـــوبية ، وتفتق ذهن المستعمرين عن أبشع وسائل الارهاب والاستبداد والابادة مما أجبر الأفريقيين على الهجرة من هذه المنطقة الغنية .

وهؤلاء الغزاة ــ الذين سيطروا على المنطقة المسالمة بقوة السلاح ــ قد اتوا من جنوب أفريقية بعد أن تعلموا هناك دروس التفرقة العنصرية . ولذلك أصروا منذ بداية الاستيطان الأوربى ــ كما نص المرسوم الذى نظم ادارة شركة جنوب أفريقية البريطانية لهذه المنطقة ــ على أن يخصص

للأوربيين مناطق خاصة بعيده عن مناطق الإفريقيين بحجة توفير العناية للعناصر الأوربية .

وهكذا بدأ تاريخ الاستعمار الأوروبى لهذه المنطقة بالفصل التام بين الأوروبيين فى مناطق السكنى ، وفى امتلاك الأراضى الزراعية .

وقد قسمت البلاد بناء على ذلك الى منطقتين : منطقـــة غنية ، صالحة للانتاج . ومنطقة فقيرة فى كل شيء (١) .

وقد تأيد هذا الفصل فى سنة ١٩٣٠ عندما صدر قانون تقسيم الأراضى الذى قسم البلاد الى : مناطق أوروبية ، ومناطق أفريقية ، ومناطق غير موزعة ، ومناطق غابات . وتبعا لهذا التقسيم منح الأفريقيون ونسبتهم ٩٢٫٣٪ من مجموع السكان حوالى ٣٣٪ من مساحة الأرض بينما منح الأوروبيون ونسبتهم ٧٫٢٪ حوالى ٥٠٪ من المساحة ولم يخصص الباقى لأى من الفريقين .

ويعيش الأفريقيون فى معازل خاصة باستثناء ١٠٪ يعملون فى خدمة المزارع الأوروبية ، والخدمات المنزلية للأوروبيين . كما يعمل حوالى ٥٣٠ ألف أفريقى فى الصناعات الاستخراجية والتحويلية المختلفة . ومعنى ذلك أن أكثر من ١٫٥ مليون أفريقى يعيشون فى معازلهم الخاصة . أما الأوروبيون فيعيش حوالى ٧٠٪ منهم فى المدن ، ويعمل حوالى ٦٠٪ بالخدمات والادارة والأعمال المدنية وغيرها .

والأقلية الأوروبية فى روديسيا الجنوبية على اتصال وثيق بالأقلية الأوروبية فى اتحاد جنوب أفريقية . ولذلك فان أى قانون يتخذ فى جنوب أفريقية يجد له صدى كبير فى نفوس الأوروبيين فى روديسيا الجنوبية ، ويتخذونه لهم مثلا أعلى فى علاقتهم بالأفريقيين .

وبالرغم من اختلاف ظروف البلدين فقد أثرت سياسة اتحاد جنوب أفريقية تأثيرا كبيرا فى روديسيا الجنوبية . فعنـــدما تولى الجنرال هرتزوج وحزبه الحكم فى جنوب أفريقية ، وبدأ فى ممارسة سياسة التفرقة العنصرية الحادة انعكس ذلك فى روديسيا الجنوبية حيث نادى زعماؤها بنظرية « التطور المتوازى Parallel development » التى تسمح بتطور كل عنصر فى طريقه الخاص ، ومن بداية مختلفة عن بداية الآخر (٢) .

---

(١) التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقية . المصدر السابق . ص ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٤٩ .

وفى سنة ١٩٣٥ قدم رئيس الوزراء مقترحاته التى أخذت بها اللجنة الملكية سنة ١٩٣٨ وتقرر بمقتضاها تقسيم البلاد الى منطقتين : اوروبية وأفريقية على أن تتطور كل منطقة فى طريقها الخاص ، مع سـيطرة الأوروبيين واشرافهم على التطور فى المنطقة الأفريقية .

بل ان المستوطنين الغزاة البيض يعتبرون روديسيا الجنوبية دولة بيضاء تقطنها أغلبية أفريقية لخدمة البيض .

وللرغبة فى تحقيق هذه الأفكار ، وتسهيل استيطان البيض وهجرتهم اليها مدت السكك الحديدية لتصل روديسيا الجنوبية بجنوب افريقية ، كما مدت الى الساحل عن طريق موزمبيق .

كما طبق نظام « تصاريح المرور » على سكان روديسيا الجنوبية طبقا لنفس النظام المتبع فى جنوب أفريقية . وكذلك شروط سكنى الافريقيين فى مناطق المدن . كما نفذ الحاجز اللونى فى الصناعة ، وأنشئت ادارة لشئون الوطنيين .

والأفريقيون هناك ممنوعون من شرب الخمر ، ومن دخول فنادق الأوروبيين . كما أن هناك عربات خاصة ، وسيارات خاصة للأفريقيين ، ولهم دور لهو خاصة أيضا . وحتى فى المصالح والشركات والبنوك لهم أبواب يخرجون منها ، ودورات مياه مخصصة لهم غير دورات البيض .

وقد حدث أن وفدا من الاتحاد العالمى للعمال وصل الى سالزبورى فى أثناء رحلة دراسية فى أفريقية . وذهب رؤساء اتحادات عمال روديسيا الجنوبية البيض لاستقبالهم فى المطار واكتشفوا أن أحد أعضاء الوفد كان زنجيا من الكونغو . وكان موقفا عصيبا وحساسا . فقد تحدث المستقبلون البيض مع رئيس الوفد على انفراد وأفهموه أن العضو الأسود ينبغى أن يقيم فى حى السود حيث لا يقبل أى فندق فى المنطقة البيضاء ايواءه مع بقية الأعضاء وكانت النتيجة أن رفض باقى أعضاء الوفد هذا الوضع المهين ، وقبلوا جميعا أن يقيموا مع العضو الزنجى فى الحى الأسود !

وقد علق أحد الصحفيين البريطانيين بعد زيارته لروديسيا الجنوبية، على الأوضاع هناك قائلا : « ان الأسلوب الوحيـد الذى قد يستطيع الأفريقى أن يتعلم به فنا من الفنون ، أو صناعة من الصناعات ، هو أن يرتكب جريمة تكفى للحكم عليه بعقوبة مدتها خمس سنوات يقضيها فى السجن حيث يتعلم هناك ما يريد من الفنون والصناعات » !

ولا تتفق مصروفات الحكومة على كل من العنصرين مع عدد كل منهما ففى سنة ١٩٥٠ مثلا بلغت جملة النفقات حوالى ٢٢٫٥ مليون جنيه نال منها الأفريقيون ٢٫٥ مليون فقط . أما العشرون مليونا الباقية فقد انفقت على شئون الأوروبيين .

وليست الضرائب متساوية أيضا . فهناك ضرائب خاصة على الافريقيين ، وهى ضرائب الرءوس Poll taxes ، ومؤداها يدفع كل افريقى ذكر بالغ جنيها ، بالاضافة الى نصف جنيه عن كل زوجة . وقد صدر قانون هذه الضريبة فى سنة ١٩٠٤ ، ومنذ ذلك الحين لم يتغير كما أعطت القوانين للمجالس الأفريقية المحلية فرض ضرائب مباشرة، ورسوما اضافية للانفاق منها على المعازل الأفريقية تتراوح بين عشرة قروش وجنيه ونصف على كل أفريقى فى العام . كل ذلك دفع بالأفريقيين الى الهجرة الى مناطق المدن ــ كما حدث فى جنوب افريقية ــ وقدر أن هناك أكثر من ٢٠٠ الف أفريقى يعملون فى المدن وحولها . وهذا العدد هو ضعف ما كان موجودا قبل ذلك بسنوات قليلة . ولكن قوانين سكنى الوطنيين ، وقوانين المرور ، وقوانين الصناعة كلها تحد من هجرتهم . والواقع أن التطور الاقتصادى السريع للأوروبيين فى روديسيا الجنوبية كان سببا فى أن يواجهوا نفس الموقف الذى ظهر فى جنوب افريقية منذ بداية هذا القرن . فالتقدم التعدينى والصناعى ، اعتمد على العمال ذوى الأجــــور المنخفضة كما اعتمد الأوروبيون فى المدن على اليــد العاملة والخدمة الأفريقية ، هذا فضلا عن ضغط السكان الأفريقيين وازدحامهم فى معازلهم الفقيرة المحدودة المساحة التى حشرهم فيها الاستعمار . كل ذلك دفع الأفريقيين من المعازل الى المدن (١) .

وكانت النتيجة المترتبة على النظام الاستعمارى صــدور القوانين الخاصة بتشغيل الأفريقيين فى الأعمال الصناعية فقد حدد قانون العمل الصناعى لسنة ١٩٤٥ عمل الأفريقيين فى مناطق المدن ، وفى الصناعات والأعمال المسموح لهم بالعمل فيها . وبناء على ذلك القانون حــــرم الأفريقيون من وصف « المستخدمين Employeeer » كما حددت أجور العمال الفنيين وكلهم من الأوروبيين . ولم يعد أمام الأفريقيين الا العمل كخدم فى منازل هؤلاء الأوروبيين .

---

(١) التفرقة العنصرية فى أفريقية . المصدر السابق . ص ١٥٨ .

وقد حرم على الأفريقيين تكوين نقابات لهم بعكس الأوروبيين ، لأنهم ـ حسب القوانين ـ لم يعترف بهم كمستخدمين أو كعمال .

وقد حدثت أزمة كبيرة بين الحكومة ونقابة الصحفيين فى أوائل سنة ١٩٥٤ لأن هذه النقابة قد سمحت لصحفى أفريقى بالانتساب اليها، وطلبت الحكومة من النقابة طرد هذا العضو والا سحب ترخيصها مع أن هذا العضو ـ وهو المستر هوف Hove كان عضو البرلمان الفدرالى !

أما التعليم فهو شبيه بما هو متبع تقريبا فى اتحاد جنوب أفريقية ، اذ تقوم الحكومة والجمعيات التبشيرية بالأشراف على تعليم الأوروبيين الذى يتعلمون اجباريا وبالمجان فى المدارس الابتدائية . كما الغيت الرسوم المدرسية فى المدارس الثانوية بالنسبة لهم فى سنة ١٩٣٥ . أما بالنسبة للأفريقيين فتقوم الجمعيات التبشيرية بالتعليم الابتدائى بموجب مساعدة مادية ضـــئيلة تدفعها لهـــا الحكومة . والتعليم الابتدائى للأفريقيين اختيارى ، وهو دون تعليم الأوروبيين . أما التعليم الأعلى من ذلك فهو قليل ، وعلى الأخص التعليم الجامعى .

ولما أحس المستعمرون بالقوة النامية للتحرر ، ولنزعة الحكم الذاتى ـ وخاصة بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر ـ وشعروا أن ثمة اتجاها نحو انتشار وتكاتف القومية الأفريقية فى كل من كينيا ، واوغندة ، ونياسالاند، وروديسيا الشمالية ، واتجاها نحو الوحدة والتآزر التى تهدد سلطان الرجل الأبيض فى المنطقة ، وتنذر باكتساح روديسيا الجنوبية الغنية ، وتكرر مشكلات تشبه مشكلات البوير .. عندئذ عمد المستعمرون فى سنة ١٩٥٣ الى تكوين اتحاد زائف باسم اتحـــاد وسط أفريقية ويتكون من روديسيا الشمالية وروديسيا الجنوبية ، ونياسالاند . وتبلغ مساحة الاتحاد ٤٨٨ ألف ميـــل مربع ويسكنه نحـــو ٧٫٣٥٦٫٥٠٠ نسمة منهم ٩٦٪ من الأفريقيين . والاتحاد بمناطقة الثلاثة كان خاضعا لبريطانيا ، وله مجلس وزراء على النمط البريطانى وجمعية تشريعية فيدرالية .

وقد تكون هذا الاتحاد بعد صراع فكرى طويل ، ومعارضة شديدة من جانب الأفريقيين لأن معنى تكوين الاتحاد سيطرة حوالى ٢٦٥ ألف أوربى على حياة ومصاير أكثر من ٧ مليون أفريقى . كما أن الارتباط بروديسيا الجنوبية ـ التى لا تختلف فى نظامها عن اتحاد جنوب أفريقية ـ

---

(١) افريقية وراء الصحراء . المصدر السابق . ص ١٠٧ .

سيجعل التفرقة العنصرية تسود فى المناطق الأخرى من الاتحاد التى قد تكون فيها التفرقة العنصرية أقل وطأة .

وأتت تلك المعارضة الشديدة من الأفريقيين فى نياسالاند برئاسة الدكتور هاستنج باندا الذى عاد الى بلاده سنة ١٩٥٨ ، وتزعم الحركة الوطنية بها ، وطالب اخراج نياسالاند من الاتحاد ، ومنحها دستورا خاصا يسيطر عليه الأفريقيون بالرغم من أن نياسالاند أصغر وأفقر المناطق الثلاثة .

وفى عام ١٩٥٦ ، وبعد انتخابات مزيفة ، تشكلت حكومة اتحادية تحت رئاسة أحد عملاء الاستعمار هو السير روى ويلنسكى الاستعمارى وفى سنة ١٩٥٩ قامت الحكومة بحل حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى لروديسيا الجنوبية لأنه طالب بالغاء قانون تحديد الأراضى ، وأرسل زعماؤه الى مناطق موبوءة بذبابة تسى‌تسى . وهذا القانون لا يبيح للأفريقى بأن يمتلك أكثر من ثمانية أفدنة بينما تبلغ ملكية الفرد الأوروبى ٨٠٠ فدان لا يستطع عمليا زراعتها . ويبلغ أجر الأفريقى ١٨ شلنا فى الشهر بينما يبلغ أجر الأوروبى الذى يشتغل فى نفس العمل ٢٨٠ شلنا فى الشهر .

وقد انحل اتحاد وسط افريقية المزيف حيث استقلت نياسالاند فى يوليو سنة ١٩٦٤ ، وسميت « جمهورية مالاوى » كما استقلت روديسيا الشمالية فى أكتوبر ١٩٦٤ وسميت « جمهورية زامبيا » .

يقول الدكتور قوامى نكروما فى كتابه ( الاستعمار الجديد ) عن وضع روديسيا قبل التطورات الأخيرة : « وبالرغم من أن روديسيا ما زالت مستعمرة من الناحية النظرية الا أنها تمثل شكلا محنطا ومتحجرا من أقدم أشكال الاستعمار الجديد الذى ظل مطبقا فى جنوب أفريقيا الى أن تم تأليف اتحادها . ويتلخص هذا النظام فى عدم استخدام أهل البلاد نفسها فى ادارة بلادهم كما هو الوضع فى الدول الخاضعة للشكل الحديث من أشكال الاستعمار الجديد ، وانما فى الافادة من أقلية دخيلة وغريبة فى حكمها . وبالرغم من أن غالبية الطبقة الأوروبية الحاكمة فى روديسيا قد وفدت الى المستعمرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية الا أن بريطانيا اعتبرتها هى التى تمثل الحكومة مع أن نسبتها لا تعدوا ١٦ ٪ من أهل البلاد الأصليين . وتتلقى هذه الحكومة العنصرية حمايتها من الضغط الخارجى لأنها ما زالت مستعمرة بريطانية فى عرف القانون الدولى ، بينما تبرر بريطانيا فشلها فى ممارسة حقوقها القانونية فى الحيلولة دون اضطهاد

السكان الأفريقيين واستغلالهم ، بسبب وجود ميثاق برلمانى بريطانى مزعوم ينص على ذلك . ويعنى هذا أن بريطانيا بمحافظتها على وضع روديسيا من الناحية الشكلية كمستعمرة ، تقضى حمايتها الرسمية عليها لتمثل دولة عنصرية ثانية كجنوب أفريقيا . كما تترك دعاة العنصرية من الاوروبيين أحرارا فى معاملة السكان الأفريقيين على النحو الذى يشاءونه.

« ولا ريب فى أن المناورات التى مثلت فى موضوع « استقلال » روديسيا تعتبر نموذجا رائعا للطريقة التى يعمل بها الاستعمار الجديد ، أو للمتاعب العملية التى يخلقها هذا النظام . فليس فى امكان أقلية أوروبية يقل تعدادها عن ربع مليون نسمة أن تحتفظ فى ظل الأوضاع الأفريقية الراهنة بسيطرتها على أربعة ملايين من الأفريقيين اذا لم تكن تتلقى دعما خارجيا من جهة أخرى وعندما يتحدث المستوطنون عن « الاستقلال » فانهم لا يعنون بذلك الوقوف وحدهم على أقدامهم وانما يعنون البحث عن سيد استعمارى جديد يكون فى رأيهم أهلا لثقتهم أكثر من بريطانيا » (١) .

ومشكلة روديسيا الجنوبية ــ بعد تصفية ذلك الاتحاد المزيف ــ ظلت بدون حل ، بل أخذت تتفاقم يوما بعد يوم ، وتهدد بالانفجار .

وقد حدث الانفجار بالفعل ، اذ أعلن أيان سميث رئيس حكومة الأقلية البيضاء فيها فى ١١ نوفمبر عام ١٩٦٥ الاستقلال من جانب واحد متحديا إستنكار الرأى العام الافريقى والعالمى لمحاولة فرض ٢٢٠ الف مستوطن اوروبى هناك على أربعة ملايين افريقى من أهل البلاد . وقد استهان سميث بكل هذه الاستنكارات والتهديدات ، وبالنتائج الخطيرة المترتبة عليها ، وقال فى بيان صحفى له أنه لا يمكن حل المشاكل العنصرية فى روديسيا (٢) !

وقد أعلن سميث مع الاستقلال دستورا يحكم سيطرة البيض على روديسيا ، ويعزز الرقابة على الافريقيين ، ويشدد اجراءات الطوارىء لقمع كل احتجاج من جانبهم بأقسى الوسائل ، وأقصى العقوبات .

---

(١) الاستعمار الجديد . د . قوامى نكروما . ترجمة خيرى حماد . الأهرام فى ١٩٦٦/٣/١٧ .

(٢) الأهرام فى ١٩٥٦/١١/١٢ .

فقد جاء فى الصحف أن حكومة الأقلية البيضاء غير الشرعية نشرت حالة من الارهاب ضد الوطنيين ، وبدات قواتها فى حفر الخنادق واقامة معسكرات على الحدود المشتركة مع زامبيا وخاصة عند النقط الحيوية مثل السكك الحديدية ، والطرق البرية ، والكوبرى الكبير الذى يصل بين روديسيا وزامبيا فوق نهر الزامبيزى عند شلالات نياجرا .

والغريب أن الذين يقومون بهذه الأعمال فى جيش روديسيا ضد الوطنيين هم الجنود الأفريقيون بينما يصوب اليهم الضباط الأوروبيون البنادق والمسدسات والمدافع ، بينما تستطيع الحكومة أن تعبىء جيشا من البيض قوامه ٥٦ ألف رجل ، ولكنها تريد أن تنكل بالوطنيين على أيدى مواطنيهم لما فى ذلك من اثارة المشاعر ، وبث بذور الفرقة بينهم .

وقد بلغ عدد المعتقلين السياسيين ٢٥٠٠٠٠ من بينهم جوشوا نكومو زعيم حزب زابو ، ومن المنتظر ان يتزايد عددهم بين حين وآخر بسبب الاضطرابات التى يثيرها الوطنيون ضد هذه الحكومة العنصرية . وجاء من بلدة جويلو فى روديسيا أن الحكومة جمعت ١٨٤ طالبا أفريقيا تتراوح أعمارهم بين ١٥ و ٢١ عاما وجلدتهم بالسياط لاشتراكهم فى احدى المظاهرات (١) .

وحسب أرقام الميزانية الرسمية ( ١٩٦٤ — ١٩٦٥ ) التى أذاعتها الحكومة بلغت مصروفات الحرب نحو ١٣ مليون جنيه . اى ما يوازي ١٨٪ من الميزانية العامة .

ومن الطبيعى ان سميث لا يقوم بهذه الخطوة الجريئة وحده ، ولا يستطيع بدون شك ان يعتمد فيها على مساندة وتأييد البيض فى روديسيا وحدهم ...

فما هى القوى الأجنبية التى تقف وراءه ؟

أولا — أن بريطانيا التى سعى رئيس وزرائها — ويلسون — الى سميث فى روديسيا ذاتها ، وقام بمفاوضات ذرا للرماد .. ثم لما اعلن سميث الاستقلال من جانب واحد قامت حكومة ويلسون بفصل سميث ووزرائه من مناصبهم ، وأعلنت أن هذا الاستقلال عمل غير قانونى بحجة أن البرلمان البريطانى

---

(١) الأهرام فى ١٩٦٥/١١/١٩ .

وحـــده هو صاحب السلطة الشرعية فى منح روديســـيا استقلالها ... بريطانيا هذه هى شريكته الفعليــة فى تلك المؤامرة ضد أهل البلاد الشرعيين ، وأصــحاب المصــلحة والأغلبية العظمى فيها . وما قرار حظر ارسال البترول الى روديسيا الا مهزلة أخرى تمثلها بريطانيا حتى لا تفقد هيبتها أمام الرأى العام العالمى ، وتحتفظ بعلاقاتها مع بعض الدول الأفريقية المترددة . فقد مرت سفن بريطانية ــ ترفع أعلام الامبراطورية ــ تشق طريقها الى روديسيا حاملة اليهـــا بترولا ! وفى ١٩٦٥/١١/١٨ أذاع رئيس وزراء بريطانيـــا بالراديو البريطانى كلمة موجهة الى شعب روديسيا قال فيها أن بريطانيا تخوض معركة ضد الذين يريدون اتخاذ اجراءات عنيفة ضد روديسيا ، وانها لن تؤيد أى حرب عصابات يشنها الوطنيون الأفريقيون ضد الحكومة البيضاء . كما انها لن تؤيد أى نوع من أنواع الهجوم على روديسيا يقع عليها من الخارج (١) . ومضى ويلسون يقول أن الخطر يكمن فى أن الأمم المتحدة قد تعطى تأييدها لاجراء يتخذ سواء من جانب الدول الأفريقية ، أو غيرها من الدول ، ويمكن أن تكون بينها دول شيوعية . وأشار ويلسون الى انه سيكون فى روديسيا فى هــذه الحــالة جيش احمر يرتدى الزى العســكرى للأمم المتحدة(٢) . كما أدلى بحديث آخر الى محطة « يونيتد ستيبس نيوز . آند ورلد ريبورت » قال فيه « أن تولى الأفريقيين الحكم فى هذا الوقت معناه خفض مستويات الحضارة لأنه فى كل مكان حكم فيه الأفريقيون حدثت اضطرابات وسفك دماء (٣) »

ثانيـــا ــ كما جاء بالصحف أيضا أن الولايات المتحدة تنقل على سفنها بترولا لروديسيا وأن كانت تلقى بشــحناتها هذه فى احدى موانى المستعمرات البرتغـالية أو فى موانى جنوب افريقية

---

(١) يقصد الدول الأفريقية التى كانت تتشاور لارسال جيوش الى روديسيا لمناصرة الوطنيين فيها .

(٢) الأهرام فى ١٩٦٥/١١/١٩ .

(٣) الأهرام فى ١٩٦٥/١١/٢ .

لاعادة شحنه الى روديسيا حتى لا تتهم ــ كبريطانيا ــ بممالأة حكومة الأقلية البيضاء (١) .

ثالثـا ــ أن حكومة البرتغال ــ التى تتبع سياسة عنصرية شديدة ــ تؤازر حكومة سميث بكل قوة . فقد بذلت معاونتها لها منذ لحظة اعلان الاستقلال بكل الوسائل ، ومنها أبدت استعدادها لنقل كل انتاجها من بترول أنجولا الى روديسيا . فضلا عن اعادة شـحن البترول البريطانى والأمريكى الذى ينقل الى روديسيا عن طريق موانيها .

رابعـا ــ وكذلك تفعل حكومة جنوب أفريقية التى تتبع السياسـة العنصرية بنفس الدرجة .

خامسا ــ وقفت الأمم المتحدة عاجزة عن العمل الجدى فى مواجهة هذه الحكومة غير الشرعية المتمردة ، المتحـدية للعـالم أجمع لا الافريقيين وحدهم . فلا استطاع مجلس الأمن أن يصل الى نتيجة . ولا نجحت الجمعية العامة ــ بما فيها من أغلبيـة آسيوية افريقية ــ فى الحصول على قرار بالتدخل العسكرى المباشر فى روديسيا ، مع أن الجمعية العامة نفسها هى التى اتخذت من قبل قرارات أخرى بالتدخل فى بعض منـاطق النزاع الملتهبة فى العالم ومنها الكونغو . فقد كان واضـحا منذ البداية أن بريطانيا ــ بتأييد الولايات المتحدة ــ تعارض هذا التدخل المسلح فى مشكلة روديسيا الجنوبية . ولم يجد وزيرخارجية بريطانيا عذرا يعرضه أمام مجلس الأمن لمعارضة التدخل العسكرى الا أن بريطانيا تعارض هذا التدخل حتى لا تفاجأ بجنود حمر فى روديسيا يرتدون قبعات الأمم المتحدة!

وكل ما فعلته الجمعية العامة للأمم المتحدة التى انعقدت فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٦٥ أن أصدرت قرارا بأغلبية ١٠٧ صوتا مقابل صوتين ، هما جنوب أفريقيا والبرتغال ، يدعو بريطانيا الى استنكار اعلان استقلال روديسـيا من جانب واحد ، وتنفيذ كافة القرارات السابقة التى تدعو الى انهـاء التمرد ! !

---

(١) الأهرام فى ١٩٦٥/١٢/٢٧ والأهرام فى ١٩٦٦/١/٩ .

سادساً — رأت الدول الأفريقية أن لا تعتمد على بريطانيـا والولايات المتحدة .. ولا على الأمم المتحدة فأصدرت « منظمة الوحـدة الأفريقية » قرارا اجماعيا يقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا اذا لم تتخذ الاجراءات لسحق حكومة الأقليـــــة البيضاء فى روديسيا فى موعد أقصاه ١٥ ديسمبر سنة ١٩٦٥

ورغم هذا الاجماع فى أصدار القرار أعلنت بعض الدول الافريقية — قبل انتهاء المهلة المحددة — بعض التحفظات التى تشبه التراجع عن تنفيذ القرار .

الا أنه بعد انتهاء المهلة المحددة دون أن تتخذ بريطانيا الاجراءات المطلوبة قطعت كثير من الدول الافريقية — وفى مقدمتها الجمهورية العربية المتحدة — علاقاتها الدبلوماسية معها ، ولا تزال هذه العلاقات مقطوعة حتى الآن .

## الفصل السادس : العنصرية فى زامبيا ( روديسيا الشمالية )

تقع روديسيا الشمالية فى شمال روديسيا الجنوبية . وتحيط بها نياسالاند وموزمبيق من الشرق ، وانجولا من الغرب ، والكونغو وتنجانيقا من الشمال .

وتبلغ مساحتها ٢٩٠ الف ميل تقريبا ، ويقدر عدد سكانها بحوالى ٢٫٢٥٠٫٠٠٠ نسمة منهم ٢٫١٤٠٫٠٠٠ افريقى . أى حوالى ٩٦٫٥٪ من السكان بينما لا يتجاوز عدد الأوروبيين ٧٤ الف نسمة . أى حوالى ٣٫٢٪ من السكان .

وتوجد بها مساحات واسعة صالحة للرعى ، ويزرع فيها الذرة والطباق والفول السودانى ، وأشجار الأخشاب .

وبها من الحيوانات ١½ مليون رأس من الماشية ، ١٧٧ الفا من الأغنام والماعز .

وبها ثروة ضخمة من المعادن واهمها الذهب والفضة ، والكوبالت ، والنحاس ، والرصاص والزنك . وقد بلغ ما انتجته من النحاس عام ١٩٦٠ حوالى ١٣٠ مليون جنيه .

ويملك الأفريقيون ، وهم الأغلبية الساحقة ، ٥٠ مليون فدان من الأراضى التى يكثر فيها ذباب تسى تسى بينما يملك الأوروبيون – وهم اقلية ضئيلة كما سبق – ٤٠ مليون فدان من أجود الأراضى .

وتعتمد زامبيا فى مصادر الطاقة الكهربائية على خزان كاريبا الذى اشتركت فى بنائه . كما ينتظر عمل سد آخر على نهر كافو – أحد روافد نهر زمبيزى – فى زامبيا نفسها .

وتوجد مناجم للفحم فى زامبيان ، ولكنها غير مستغلة لأن الشركات التى تديرها هى الشركات التى تدير مناجم الفحم فى روديسيا الجنوبية .

* * *

وسكان زامبيا من قبائل البانتو . وهناك حوالى ٧٣ قبيلة تتكلم ٣٠ لهجة . والحدود بينها غير واضحة . وتعيش هذه القبائل تحت سيطرة رؤسائها الذين يخضعون بدورهم للحكومة المركزية .

وفى أثناء سيطرة شركة جنوب أفريقيا البريطانية كانت هذه الشركة تتدخل فى تعيين الزعماء . كما أن القوانين الخاصة بادارة شئون الوطنيين قد اعطت هذه الادارة الحق فى تعيين وفصل الزعماء ، وعقابهم . وكان الزعماء مسئولين عن مد الحكومة بالعمال فى مقابل منحهم اعانات مالية قليلة ، واعطائهم الحق فى تشغيل العمال بدون أجر فى حقولهم .

* * *

وكانت روديسيا الشمالية ــ قبل استقلالها ــ محمية بريطانية تحت اشراف وزارة المستعمرات البريطانية يحكمها مجلس وزراء وجمعية تشريعية يتكون أغلب أعضائها من الأوروبيين ، والأقلية الأفريقية يعينها الحاكم العام من المؤيدين لسياسة الحكومة ، ويدينون بالولاء له .

وقد أصدر وزير المستعمرات البريطانى سنة ١٩٥٨ دستور روديسيا الشمالية الذى تضمن تعديلات طفيفة للأوضاع السياسية السابقة .

* * *

وسياسة التفرقة العنصرية التى تمارس فى جنوب أفريقية ، وفى روديسيا الجنوبية تمارس أيضا وان كان على نطاق ضيق فى روديسيا الشمالية .

فهناك حاجز لولى بالنسبة للمحلات التجارية ، ودور اللهو ، والفنادق والمطاعم .

كما أن لهم عربات خاصة فى السكة الحديدية ، والسيارات . وكذلك فان للأفريقيين أبوابا خاصة فى بعض مكاتب البريد .

وقد وافقت الجمعية التشريعية سنة ١٩٥٤ على مشروع جديد ظاهره التقدمية وباطنه التفرقة العنصرية . وقد اعتقد الأفريقيون بحق عند صدوره انه مجرد مخدر حتى يتوقفوا عن الكفاح ، والمطالبة بالحقوق السياسية والاجتماعية التى تجعلهم أصحاب السلطة فى بلادهم .

(١) التفرقة العنصرية فى افريقية . المصدر السابق . ص ١٦٢ .

ويعمل فى حرفة التعدين — وهى الثروة الحقيقية فى البلاد — حوالى ٦٠٠٠ أوروبى و ٥٠ ألف أفريقى تقريبا ولا يزيد أجر العامل الأفريقى عن ٧ جنيه فى الشهر بينما يبلغ متوسط أجر العامل الأوروبى ٢٠٠ جنيه.

وقد أدى الانخفاض الشديد لأجور الأفريقيين — بالمقارنة الى أجور الأوروبيين — الى حدوث اضطرابات كثيرة فى منطقة النحاس نذكر منها اضطرابات سنة ١٩٣٥ ، وسنة ١٩٤٠ ، وسنة ١٩٥٣ .

ولم يسمح لغير الأوروبيين بتكوين نقابات للعمال ، أو بحق الاضراب، أو بالتدخل فى الأمور السياسية .

وقد فرضت ضرائب الرءوس على الأفريقيين مقدارها خمسون قرشا على كل ذكر يزيد عن ١٨ سنة ، كما فرضت ضرائب على تعدد الزوجات وصلت فى المدن الى ٨٧٫٥ قرشا وفى الريف خمسون قرشا .

وكان القانون يسمح بدفع الضريبة عينا بدلا من دفعها نقدا بأن يقوم الأفريقى بالعمل فى الخدمات العامة كالطرق والمطارات وغيرها . ونظرا لفقر الأفريقيين ، وعجزهم عن دفع الضريبة فقد كانوا يؤدونها عينا لا نقدا ، مما دعا الحكومة الى الغاء الضريبة عينا ، ووضعت عقوبة الغرامة والسجن لمدة ثلاثة أشهر لمن يمتنع — ولو عجزا — عن الدفع .

والمستوى التعليمى متأخر جدا فى المناطق الأفريقية ، وتقوم به الجمعيات التبشيرية كما فى روديسيا الجنوبية . وكذلك الشأن فى الخدمات الصحية ، فان حوالى نصف زامبيا ليس به مستشفيات ، أو مراكز صحية ، أو صيدليات .

أما دخل الحكومة يكاد لا يخصص منه — كما هو واضح — للأفريقيين الا النذر اليسير فهناك مثلا مدرسة حكومية واحدة للأفريقيين فى البلاد كلها . ولم تخصص منح دراسية فى جامعة « ماكريرى » الأفريقية الا فى أضيق نطاق .

والمبرر الذى يدعيه الأوربيون لهذه المظاهر العديدة من التفرقة العنصرية هو أن رجال القبائل الأفريقيين يحملون فى دمهم جرثومة الملاريا (١) .

---

(١) أفريقية وراء الصحراء . صلاح صبرى . ص ١٢٣ .

وقد كانت الحركة السلمية التى قام بها الأفريقيون عام ١٩٥٦ فى كل مكان فى زامبيا ( روديسيا الشمالية ) أول محاولة لتحطيم هـذه التفرقة العنصرية التى يسندها العرف المستقر أكثر مما يسندها القانون المكتوب . وقد نظم هذه المظاهرات الزعيم الأفريقى « شيسلى » وهو من أكثر الزعماء احتراما لدى الأوروبيين والأفريقيين على السواء ، لأنه يؤمن بالمقاومة السلبية التى ابتدعها غاندى . وبالفعل دخلت المظاهرات السلمية الى جميع المرافق العامة ، كمكاتب البريد والسكة الحديد وغيرها واستخدمت الأماكن المخصصة للبيض . وقد أجبر الموظفون الأوروبيون على استقبالهم والترحيب بهم وخدمتهم على مضض . وفى أكتوبر ١٩٦٤ نالت روديسيا الشمالية استقلالها ، وسميت « جمهورية زامبيا » .

## الفصل
## السابع : العنصرية فى مالاوى ( نياسالاند )

تقع نياسالاند فى الجنوب الشرقى من افريقية . ولها حدود مع تنزانيا فى الشمال والشمال الشرقى وتحـــدها موزمبيق من الشرق والجنوب والجنوب الغربى . وتحدها من الغرب زامبيا .

وبحيرة نياسا طولها ٣٦٠ ميلا وعرضها من ١٠ الى ٥٠ ميـــلا . والارض حولها مرتفعة ، فهى بداية الأخدود الأفريقى الذى يمتد شمالا الى بحيرة تنجانيقا وبحيرات كيفو وادوار والبرت . والأجزاء الغربية والجنوبية فى البحيرة هى اكثر ملاءمة لاســـتقرار الأوروبيين الذى بدأ منذ سنة ١٨٧٠ .

وأكثر المناطق كثافة فى السكان هى الأجزاء الجنوبية والجنوبية الغربية حيث توجـد العاصمة ( بلانتير ) ومدينة ( زوميا ) اللتين يكثر فيهما الأوروبيون .

وبالرغم من أن مساحة مالاوى ١/٢ مســـاحة زامبيا الا أن سكانها يزيدون عن عدد سكان زامبيا ، اذ يبلغ تعدادهـم الآن حوالى ٣ مليون نسمة . والسبب فى ذلك خصوبة التربة .

وتوجد بها السفانا ، والأخشاب البامبو ، ويزرع القطن ، والطباق الذى يوجد بكثرة . كما يزرع الذرة والشاى . والبلاد تكفى نفسها من جميع المواد الزراعية باستثناء السكر والدقيق .

ويقدر عدد ما بها من الماشية نحـو ٣٦٠ الف رأس ، ومن الاغنام نحو ٤٠٠ ألف .

وتشبه نياسالاند الى حد كبير روديسيا الشمالية فكلاهما كانت محمية بريطانية ، ويتشابه دستور كل منهما .

ونظرا للفجـوة الواســعة بين الأوروبيين والأفريقيين فى النواحى الاقتصادية والحضارية فليس هناك فى الواقع اختلاط بين المجموعتين .

ولذلك لا يسمح للأفريقيين بدخول نوادى الأوروبيين أو فنادقهم . كما أن شرب الخمور محظور بالنسبة للأفريقيين وحدهم . كما منعوا من دخـول دور اللهــو والسينما ، وان كانت بعضها تخصص بعض مقاعد رخيصة لهم .

وهناك فى المدن الهامة احياء خاصة للأفريقيين ، وعددهم فيها قليل ويشتغلون كخدم أو غير ذلك من المهن الحقيرة .

وقوانين المرور Pass Law سارية أيضا على الأفريقيين فى نياسا ، على نحو ما هو متبع فى روديسيا الشمالية .

ولا يسمح للأفريقيين بالبقاء فى خارج منازلهم بعد الساعة التاسعة مساء .

وتعتبر مشكلة الأرض اخطر مشاكل الأفريقيين فى نياسا . وبالرغم من تخصيص ١٣٪ فقط منها للأوروبيين الا أنها أجودها تربة ، وأصحها مناخا لخلوها من ذباب تسى تسى ، واكثرها أمطارا . اما ما عداها — على كثرتها وقلة جودتها — فقد تركت للأفريقيين . ولذلك تحـــول الأفريقيون الى عمال زراعيين لدى الأوروبيين الذين أصبحوا من كبار الملاك نظرا لقلة عددهم .

وتفرض هناك كما هو الحال فى زامبيا على الأهالى ضرائب الرءوس التى زيدت عدة مرات آخرها سنة ١٩٥١ بعد أن ارتفع ثمن الطباق الذى يزرعه الأهالى .

والتعليم والخدمات الصحية معدومة كما فى زامبيا .

وقد ظهر زعيم أفريقى فى نياسا هــو الدكتور هاستنجزباندا ، بدأ حياته برعى الأغنام على شواطىء بحيرة نياسا ثم غامر بالسفر كغيره من أبناء بلدته ، واتجه جنوبا إفقضى مرحلة من حياته فى جنوب أفريقية . وكان شغوفا بالقراءة والتأمل محبا للعلوم . ولم يلبث أن اكتشف موطن الداء فى بلاده . وفى لندن تعلم ، وحصل على اجازة الطب . وكان — وهو فى لندن — قلبه يتألم حين يرى معالم الخطط الاستعمارية التى تنسج هناك فى وزارة المستعمرات لتحيل بلاده وبلاد قارته بأسرها الى مناجم للثروة البشرية ، والخامات المعدنية ، والمواد الأولية .

وعندما أعلن اتحـــاد وسط أفريقية سنة ١٩٥٣ استشعر باندا ما يعنيه هذا الاتحاد بالنسبة لبلاده . فهو يعنى زيادة هجرة البيض اليها، وغلبتهم على مواطنيه .

واتصلت الأسباب بينه وبين شعبه ، واصبح زعيمه الأول رغم انه لم يره منذ أن كان طفلا . وعاش بعد تخرجه كطبيب فى غانا حيث شهد مولد امة غانا الجديدة سنة ١٩٥٧ . وفى سنة ١٩٥٨ عاد الى بلاده حيث استقبله شعبه استقبال الفاتحين . وأعلن باندا للشعب أنه لا يملك الاستقلال فى جيبه ، بل ان على الشعب أن ينتزع حقه لنفسه . والقى القبض عليه فى مارس ١٩٥٩ هو وستة وعشرون من زعماء الحزب ، ونقلوا بالطائرة الى روديسيا الجنوبية .

ولم يفلح الاستعمار فى اخماد الثورة . فقد واقف الرأى العالمى الى جانب شعب نياسالاند ، وأطلق سراح باندا سنة ١٩٦١ وتولى الحكم ، وفى يوليو ١٩٦٤ أعلن استقلال نياسا التى سميت « جمهورية مالاوى » .

## الفصل
## الثامن : العنصرية فى كينيا

### الطبيعة الجغرافية :

تقع كينيا فى شرق افريقية تحدها من الشمال اثيوبيا ، ومن الشرق الصومال ، ومن الغرب السودان وأوغندة وبحيرة فيكتوريا ، ومن الجنوب تنجانيقا . وهى تطل على المحيط الهندى .

ولا يوجد فى أراضيها غير نهر واحد صالح للملاحة - فى بعض اجزائه - هو نهر « تانا » وتبلغ مساحتها حوالى ٢٢٥ الف ميل مربع منها حوالى ٥٢٣٠ ميل مربع من المياه . وتفتقر كينيا الى الأمطار ومياه الأنهار ، ولذلك فان معظم أراضيها غير صالحة للزراعة . وتشترك مع كينيا فى هذه البحيرة العظيمة كل من تنزانيا واوغندة . والى جانب هذه البحيرة توجد بحيرة رودلف التى تقع فى الشمال ، وبحيرة تنجانيقا التى تفصل بين تنزانيا ورواندا ، ومجموعة بحيرات البرت وكيفو وادوار بين اوغندا والكنغو ، وبحيرة نياسا التى تشكل غالبية الحدود بين تنجانيقا ونياسالاند . وجمال هذه البحيرات وفوائدها تجل عن الوصف . كما أنها تلعب دورا حيويا فى الجغرافيا والمواصلات والاقتصاديات المتصلة بجميع انحاء المنطقة .

ويتجه الاخدود الافريقى من جنوبها الى شمالها ويرتفع على جانبيه وفى قاعه تكوينات بركانية خصبة اجتذبت أنظار الأوربيين فى مطلع القرن العشرين واطلق عليها اسم المرتفعات البيضاء .

ويصف جون جنتر روعة الطبيعة فى كينيا بقوله : « وصلنا الى كينيا بالطائرة من اثيوبيا ، فما ان اشرفنا على نيروبى حتى بدت البلاد من تحتنا وقد غمرها فيض غريب من الألوان الزاهية المتداخلة . بل كانت الأشجار نفسها تتلألأ فى الأضواء وكأنها قطع من الزجاج »(١) .

---

(١) داخل افريقية . المصدر السابق . الجزء الثانى . ص ٢٠٢ .

ويبلغ تعداد شعب كينيا حوالى ٧ مليون ، يتكونون من أكثر من ٢٠٠ قبيلة معظمها من البانتو ، وثمة قبائل نيلية وحامية . وبعض هـذه القبائل رعاة . ولكن غالبيتهم يمارسون الزراعة المتنقلة . ويسود العرب بالقرب من الساحل ، وينتشر الهنود فى الداخل حيث توجد أيضا قبائل اشهرها الكيكويو .

ولا يزيد عدد الأوروبيين فى كينيا عن ٦٦٫٠٠٠ قبل استقلالها .

**اقتصاديات كينيا :**

١ ــ تسيطر الجالية الأوروبية فى كينيا على ٧٥٪ من الانتاج الزراعى فى البلاد .

٢ ــ تدير رءوس الأموال الأوروبية ٨٠٪ من الصناعات الموجودة والباقى مثل صناعة السكر يديره رجال الأعمال الأسيويون .

٣ ــ يسيطر الآسيويون ( هنود ــ باكستانيون ) على التجارة فى كينيا وخاصة تجارة التجزئة حيث يشاركهم الأوروبيون فى بيوت الاستيراد والتصدير الكبرى .

أدى ذلك الى تمكين بريطانيا من السيطرة على البلاد . وحين تحقق الاستقلال لم تجد كينيا نفسها فى حاجة شديدة الى مصادر خارجية لتمويل التنمية بقدر ما وضعتها بريطانيا أمام الحاجة للتفاهم معها . وانتهزت بريطانيا فرصة رغبة كنياتا فى الحكم ومحاولة الاعتدال بين العناصر المتطرفة يسارا ويمينا فأخذت تغريه بالمساعدات والقروض حتى لا يطلب من أى جهة أخرى . وتمثلت هذه القروض والمساعدات خلال ٦٤/٦٥ فى:

١ ــ قرض لتوطين الأفريقيين فى الأراضى التى يتركها الأوروبيون بحوالى ١٢ مليون جنيه .

٢ ــ قروض لتعويض الأوروبيين الذين يتركون وظائفهم أو أراضيهم بحوالى ١٣ مليون جنيه .

٣ ــ مهمات ومنشئات عسكرية تشكل قاعدتها العسكرية فى كينيا بحوالى ١٠ مليون جنيه .

٤ ــ مساعدات فى شكل منح التنمية الانتاجية أو خدمات ومرتبات موظفين بحوالى ٢٨ مليون .

ويتضح مما سبق ان بريطانيا قد نجحت فى وقف كينيانا عن التعامل الواسع مع آى دول أخرى حتى الغربية منها . كما أيدت الجناح اليمينى فى الحكومة وفرضت على كينيانا سياسة رجعية تتضح آثارها تدريجيا فى موقفه من الجناح الوطنى وموقفه من ثوار الكونغو (١) .

### كينيا والعالم الخارجى :

من قديم اتصلت أسباب التجارة بين آسيا وشرق أفريقية حيث استطاعت السفن المصرية من العهد الفرعونى أن تصل اليها عن طريق الملاحة فى البحر الأحمر ، والدوران حول القرن الأفريقى . وانتظمت طرق التجارة بين الشاطئين الأفريقى والآسيوى بعد أن كشف الملاحون سر الرياح الموسمية وهبوبها الى آسيا صيفا ومنها شتاء .

وكان ظهور الاسلام عاملا قويا فى توغل النفوذ العربى والاسلامى فى داخل شرق أفريقية . واقام المسلمون مراكز اســــتقرار على طول الساحل تمتد من الصومال شمالا الى موزمبيق جنوبا . وبدأ عهد السيادة العربية الفارسية من القرن العاشر الميلادى . ووصل الى ذروته بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر . واستقرت الحضارة الاسلامية منذ ذلك الوقت حتى الآن .

فلم يكن المسلمون تجارا فحسب بل كانوا رسل حضارة ودعاة سلام.

وعندما دار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح وشاهدوا شرق القارة أدهشهم ما رأوه .. من مدن عامرة ذات حضــــارة وحكومات مستقرة . ووجدوا انفسهم أمام الملاحين العــــرب المزودين بالخرائط والأجهزة البحرية ، وتولى ملاحون محليون توجيه «فاسكودى جاما» الى الهند مستفيدين من الرياح الموسمية .

ثم بدأت الحرب عنيفة ، ضارية بين الدول العربية الاسلامية المستقرة هناك والدول الغربية الوافدة الطامعة الغازية ـ ولكن البرتغاليين ـ رغم انتصارهم على العرب المسلمين ـ فأنهم لم يتوغلوا فى الداخل كثيرا بادىء الأمر ، وكانوا يحصلون على ما يحتاجون اليه عن طريق المبـــادلة مع التجار الوطنيين . ورحل البرتغاليون من شرق أفريقية نهائيا عام ١٧٣٠ وكانوا حكاما ظالمين قساة ، الا أنهم عادوا بعد ذلك كما سبق (٢) .

---

(١) الحرب الاقتصادية . صلاح نصر . ص ٤٣٣ .

(٢) قضية كينيا . سلسلة المكتبة الثقافية . د . عبد العزيز كامل . ص ٢٠ .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر نشطت جهـود الكشف الجغرافى فى أفريقية وشجعتها المطامع الاستعمارية .

وكانت بريطانيا وقتئذ تسيطرعلى الهند ، مما جعلها على مقربة من شرق القارة ، وعلى صلة مباشرة بتطوراته . وكان العرب هم الذين تولوا زيادة الرحلات التى قام بها الأوربيون . فالكشف الجغرافى هنـــا هو فى الواقع تسجيل علمى للمعلومات التى سبق أن وصل اليها التجـــار العرب . وفى شرق القارة كان التنافس بين بريطانيا والمانيا .

اما بريطانيا فقد تقدمت تحت راية العمل الانسانى ومكافحة الرقيق بينما كانت تهدف فى الحقيقة الى مد العالم الجديد ـ أمريكا ـ بحاجته الى الأيدى العاملة الرخيصة . وسبق أن قامت السفن البريطانية بدور كبير فى هذه التجارة بين غرب القارة والعالم الجديد عندما كانت الولايات المتحدة مستعمرة بريطانية !

وفى ظل الدفاع المزيف ـ عن الكرامة الانسانية استطاعت بريطانيا فيما بعد أن تحتفظ بالأفريقيين فى بلادهم بدلا من تصديرهم الى الخارج ـ لتستغلهم فى الانتاج المحلى ـ واستطاعت أن تبسط نفوذها على الحكام الأفريقيين ، وأن تحطم القوة البحرية العربية فى المحيط الهندى ، وأن تمهد السبيل للسيطرة على شرق افريقية .

ويرتبط تاريخ الاستعمار البريطانى لكينيا بخط السكة الحديد الذى انشىء فى الأصل لفتح اوغندا واستغلالها ، وليس لكينيا ذاتها . وقصة هذا الخط الحديدى هى قصة شائقة ، وخيالية تشبه الأساطير على حد تعبير جون جنتر(١) . فقد قررت الحكومة سنة ١٨٩٥ أن تنفذ المشروع على أن يمتد من مومباسا على الساحل مخترقا الصــــحارى والأدغال والغابات التى لم يسبق كشفها من قبل الى أن يصل الى هضبة ترتفع الى ٧٠٠٠ قدم ثم ينحدر الى وادى عمقه ١٥٠٠ قدم عبر وادى الأخدود، ثم يرتفع ثانية الى حافة الكيكويو على ارتفاع ٨٥٠٠ قدم ويهبط مرة أخرى الى بحيرة فيكتوريا . وقبل ارساء القضبان الحديدية على جزء من هذا التيه الطويل قضى ٣٠٠٠ عامل من ٤٠٠٠ نحبهم من الجوع والأرهاق !

وفى سنة ١٨٩٩ بلغ الخط « نيروبى » . ومع ذلك فان امتـــداد الخط الى كامبالا فى أوغندا لم ينته قبل عام ١٩٢٦ .

---

(١) داخل افريقية المصدر السابق ص ٢٠٧ .

ويعتبر لورد « ديلامير » ابرز شخصية فى تاريخ الاستيطان الأوربى فى كينيا ففيه تجسدت أهداف الاستيطان وضـياع أراضى الأفريقيين يقول جنتر(١) « وقصة ديلامير تعتبر من الملاحم ، ويمكن دراستها دراسة تفصيلية فى كتاب اليزابث هكسلى « وطن الرجل الأبيض » وقد صادفت ديلامير العقبات والصعوبات من مختلف الأنواع الى سنة ١٩٠٣ حينما منحته الحكومة ١٠٠,٠٠٠ فدان فى « نجورو » حيث انشـأ « المزرعة الاستوائية » لتربية الماشية .. وأقام مزرعة أخرى فى الأخدود » .

ويقول أيضا (٢) :

**« من الحقائق التاريخية الغريبـة التى لا يعرفها الا القليلون أن الحكومة البريطانية فى سنة ١٩٠٣ عرضت كينيا على اليهود لكى ينشئوا فيها وطنا قوميا . وقد ناقش زعماء الصهيونية ذلك العرض فى لندن وانتهوا الى رفضه فى سنة ١٩٠٥ . ولو أن الدكتور وايزمان وصحبه قد قبلوا هذا العرض السخى لتغير وجه التاريخ ، ولأصبحت كينيا اليوم اسرائيل » .**

* * *

وفى عام ١٨٨٦ تكونت « شركة شرق أفريقيا الامبراطورية البريطانية » التى تولت حكم المنطقة الواسعة الممتدة من ممباسا على الساحل حتى بحيرة فيكتوريا ، أى كينيا حاليا . وظلت هذه المنطقة حتى الصومال شمالا تحت سيطرة هـذه الشركة الى عام ١٨٩٤ . وعنـدما تسلمت الحكومة البريطانية مقاليد الحكم فى أوغنده ظهر واضحا أنه لا يصح ان تستمر سيطرة الشركة على هذه المنطقة الواسعة .

وشاهدت حدود كينيا عدة تعديلات بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد ظلت « محمية » من الناحية الرسمية حتى عام ١٩٢٠ .

وفى عام ١٩٢٤ أبرمت بريطانيا معاهدة مع ايطاليا تنازلت بمقتضاها كينيا الى الصومال الايطالى عن كل من نهر جوبا ، وعن شريط مجاور من الأرض القاحلة .

وفى عام ١٩٢٦ نقلت الى كينيا تبعية شمال شرق أوغنده والأرض المشرفة على شمال بحيرة رودلف . وبهذا اصبحت مساحة كينيا نحو ٢٢٥ الف ميل مربع .

---

(١) داخل أفريقية . المصدر السابق . ص ٢٠٧ .

(٢) داخل أفريقية المصدر السابق ص ٢٠٨ .

وهكذا اصبحت كينيا فى مطلع القرن العشرين من نصيب بريطانيا بعد ان قضت على نفوذ الفرس والعرب ثم الألمان والفرنسيين والبرتغاليين فى تلك المنطقة بأسرها .

**مشكلة الأرض :**

وتمثل مشكلة الأرض أخطر المشاكل فى كينيا . فللأرض عندهم منزلة تصل الى حد القداسة . ويؤكد علماء الأنثروبولوجيا هذه الحقيقة ، ويوضحون الرباط الروحى الذى يربط بين الأفريقى وتراب أرضه التى يزرعها أو يرعى عليها . فهى ــ عنده ــ تأوى اليها أرواح أجداده وهى ــ عنده أيضا ــ تقوم بدور ايجابى فى حياته اليومية . وزعماء القبائل يستمدون سلطانهم من دفاعهم عنها وقت الحرب ، وحل مشكلاتها وقت السلم ! (١) .

ويذكر الرئيس جوموكينياتا أن الكيكويو ــ اكبر القبائل ــ يعتقدون ان الأرض أم القبيلة . واذا كانت الأم تحمل جنينها تسعة أشهر ، ثم ترضعه فترة قصيرة أخرى فان الأرض تحمله وتطعمه طوال حياته !.. ثم يرقد فى جوفها بعد مماته !

ويقول جنتر ان مشكلة الأرض بصرف النظر عن التغيرات السياسية ــ أصبحت جزءا لا تنفصم عراه عن المشكلة العنصرية !

فبانتشار البيض ازداد عدد الأفريقيين المبعدين عن أرضهم التى يعتبرونها مقدسة لهم . وقد كان الأفريقيون يظنون أن الأوربيين يستأجرون هذه الأراضى بينما كان هؤلاء يعتقدون أنهم يشترونها . ومن هنا نشأ سوء فهم بالغ . وبهذه الطريقة من الغش والخداع فقد الأفريقيون مساحات شاسعة ، وراح البريطانيون يتوسعون ما استطاعوا فى تمليكها للبيض الذين حاولوا تملك أجود الأراضى ، وأغناها .

يقول جنتر(٢) أنه حتى سنة ١٩٠١ لم يكن هناك الا ثلاثة عشر مستوطنا أوروبيا فى جميع أنحاء كينيا ، زادوا فى سنة ١٩١١ الى ٣٠٠٠ ، ثم أصبحوا ٩٠٠٠ فى سنة ١٩٢١ و ٧٠٠٠ فى عام ١٩٣٠ .

واخذ العدد فى الزيادة حتى وصل فى الوقت الحاضر الى نحو ٦٦٠٠٠ مستوطن منهم نحو ٤٠٠٠ يعملون فى الزراعة . وبلغ مجموع

---

(١) قضية كينيا . المصدر السابق . ص ٤٣ .

(٢) داخل افريقية . المصدر السابق . ص ٢١٠ .

المساحة التى استولى عليها البيض حتى الآن ١٦ الف ميل مربع بينما يتكدس ملايين الأفريقيين فى نحـو ٥٠ الف ميل مربع التى خصصتها الحكومة لهم .

**التفرقة العنصرية :**

والنظام المعازل هذا ابتدعه العقل الأوربى كنتيجة لاختراعه نظرية التفرقة العنصرية . وقد خصصت الحكومة معازل لكل قبيلة على حدة امعانا فى سياسة التفرقة العنصرية ، ومنعا لاتحاد القبائل ضد المستعمرين اللصوص .

وادى اغتصاب الأرض الى تكدس الافريقيين فى هذه المعازل ، فارتفعت فيها كثافة السكان الى درجة خطيرة .

فمعازل الكيكويو والكافرندو ــ مع أنها لا تكون الا ٤ ٪ من مجموع المساحة الكلية لكينيا ــ يتكدس فيها نصف مجموع السكان . وبلغت نسبة الكثافة فى بعض المعازل من ٤٠٠ نسمة الى ١٠٠٠ نسمة فى الميل المربع .

واشتد ارهاق الافريقيين للتربة ، واستنزافهم خصوبتها ، وانحدر مستوى المعيشة والصحة فيها ، وفتكت أمراض سوء التغذية بالأطفال .

واشتد ضغط الحكومة فلم تكتف بذلك ، وانما فرضت على الافريقيين ضرائب باهظة اضطرتهم الى الهجرة أو العمـــل كأجراء لدى البيض فى الأراضى التى انتزعوها منهم .

وتستعمل فى كينيا « تصاريح المرور » المعروفة ، أو كما يسمونها هناك « كيباندى » . ولقد قاوم الأفريقيون هذا النظام ، وثاروا ضده ، واعتبروه « شارة العبودية » .

وقصص سوء معاملة الأوربيين الدخلاء للافريقيين أصحاب البلاد ، واحتقارهم عديدة ، وذائعة وكلها تقوم على أساس العنصرية السوداء .

فسير « دندس » من رجال السلك السياسى البريطانى عمل فى شرق افريقية فى مطلع القرن العشرين ، ويذكر فى كتابه قصصا غريبة من هذا النوع يشبه الأساطير . فهناك بريطانى من أسرة عريقة مزق جسد خادمه الأفريقى بالرصاص . ولما سئل عن سبب ذلك قال فى برود (١) :

---

(١) قضية كينيا . المصدر السابق ص ٤٩ .

« ان الشقى الأسود قدم الى قشدة رديئـــة مع الكعك » واورد الدكتور « نورمان ليز » قصصا أخرى . وقد عقد فى كتابه عن « كينيا » فصلا بعنوان « أبيض واسود » ذكر فيه قصة بريطـــانى ظل يضرب بالسوط خادمه الأفريقى حتى فقد وعيه ومات بحجة أنه كلفه بأن يصحب فرسا له الى محطة السكة الحديد ، التى تبعد عن منزله ثلاثين كيلومترا، فتجرأ على ركوبها دون اذن !!

وحين يهرب الخدم الأفريقيون من سادتهم لهذه القسوة الوحشية ، والمعاملة البربرية يتعقبهم البوليس كما تتعقب كلاب الصيد الفريسة حتى يعيدوهم الى سادتهم ، ويوقعون عليهم أشد العقوبات .

ويحاول الدكتور ليز أن يلتمس المعاذير ، والمبررات لهذه المعـــاملة اللاانسانية ويفلسفها ، فيقول :

« ان الأوربيين فى كينيا يعيشون فى ظروف تخلق الجريمة فى عقولهم . فالجريمة لا يمكن تجنبها حيث يعطى بعض الأفراد ــ دون البعض الآخر ــ القوة ، والسيادة على شعب محكوم يستخدم أفراده كعمال .. ان هذه الجريمة غريبة عن أى عمل لا يحمل معنى السيادة العنصرية » .

ويذكر جنتر قصصا أخرى من هذا النوع فيقول(١) :

« ان مجتمع كينيا يمارس نظاما ثلاثى الأركان للتفرقة العنصرية(٢) . ويتضح ذلك للزائر تماما بمجرد وصوله الى نيروبى . فهناك دورات مياه منفصلة للســـادة الأوروبيين ، وأخـــرى للســـادة الأســـيويين . بينما لا توجـــد دورات مياه للأفريقيين بتاتا . ويستخـــدم الأوربيون الأفريقيين لقيادة سيارتهم وللعمل فى حدائقهم ، وللخدمة العامة نهارا فى منازلهم ، الى غير ذلك من الأعمال .

ويقول ايضا :

« ويعيش الأوربى والهندى والأفريقى ، كل فى عالمه الخاص المنفصل . اذن فهو مجتمع ذو طبقات محدودة ثلاث . والأفريقيون رغم أغلبيتهم العددية الضخمة فرض عليهم فرضا أن يقبلوا وضعا اجتماعيا مهينا فى عقر دارهم » .

---

(١) داخل افريقية . المصدر السابق . ص ٢٢٥ .

(٢) وهم الأوربيون والهنود والأفريقيون .

ويقول :

« لا يتصور المجتمع الأوربى اطلاقا مجرد التفكير فى أن رجلا أسود يمكن أن يسمح له بارتياد أحد الفنادق ، أو المطاعم الكبرى . وقد أتيت وزوجتى أمرا لم يسبق له مثيل فى نيروبى ، عندما دعونا ضيوفا من الأفريقيين لتناول الكوكتيل مرتين فى بهو فندقنا ، ولا تسلنى كيف فعلنا ذلك » .

« ان الكراهية التى يكنها البيض للسود فى كينيا وغيرها من مستعمرات البيض مردها الأساسى هو الجنس ، والخوف من قيام علاقات جنسية مختلطة بين البيض والسود .

وقد انفجر فينا أحد المستوطنين قائلا « الفرق بين الولايات المتحدة وكينيا ان من تقبل مخالطته للبيض منا يعامل فى أمريكا كأبيض . أما هنا فيظل أسود فى نظر البيض » .

* * *

وقد حاولت بريطانيا من بدء استعمارها كينيا تحويل مشكلة الأرض الى قضية أسلحتها فيها المستندات والحجج القانونية الملفقة ، وميدانها اللجان أو قاعات التحقيق .

أما جوهر المشكلة فقد ضاع فى زحمة هذه الأساليب الملتوية التى أتقنها أساتذة الاستعمار من البريطانيين .. وبقى الوضع كما كان : أرضا انتزعها المستوطنون الغرباء اللصوص من أصحابها الأفريقيين ، الذين فرضت عليهم الحياة فى معازل ضيقة عفنة أو العمل بأجور تافهة فى مزارع البيض ، واحساسا متزايدا بالظلم . وقد انتهى الأمر الى أن جمع « القضاة » أوراقهم ، وتحول النزاع القانونى والسياسى الى حرب عصابات وانهـــار من الدماء تسيل من جانب الوطنيين .. والى قادة وجنود ، ودبابات وطيارات ، ورصاص ، وسجون ومعتقلات ومطاردات مستمرة من جانب المستعمرين .

وتاريخ كينيا ــ قبل حرب الماماو الشهيرة ــ حافل بلجان التحقيق، والاستقصاء التى أوفدتها الحكومة البريطانية لدراسة الأحوال ، وتقديم المقترحات حتى أصبحت كينيا تدعى بحق « أرض اللجان الملكية » .

ولجنة « داو » ــ أو كما تسمى رسميا «اللجنة الملكية لشرق أفريقية» التى عملت بين سنتى ١٩٥٣ و ١٩٥٥ لها تقرير من أضخم التقارير .

وقد اقترح تكوين هذه اللجنة سير فيليب ميشيل ، الحاكم العام السابق ، عام ١٩٥٢ لتهدئة الحال ، أو لتحذير الوطنيين عندما كانت نيران القوات الملكية تحصد المجاهدين الفارين فى الغابات كما تحصد الآمنين المستقرين فى المعازل على السواء !

وقد أشارت اللجنة فى تقريرها الى وضع الأفريقى فى المدينة حيث يجد طرق الثروة والرقى الاجتماعى مسدود أمامه بعد أن ترك وراءه روابطه القبلية وحياته التقليدية باستقرارها وانتظامها . ففى المدينة ينسلخ الأفريقى من ماضيه وتضطرب أمامه سبل الحاضر ، ولا يجد امامه املا فى المستقبل . وهو يعيش فى المدينة حياة كئيبة ، ضيقة ذات مستوى خفيض بينما يرى الأوربى الذى سرق أرضه ، وثروة بلاده ، ينعم بكل الملذات ويتحكم فى مصيره ، ويطبع كل شىء بطابعه .

## الفصل التاسع : العنصرية فى تانزانيا :

تكونت جمهورية تانزانيا فى ابريل سنة ١٩٦٤ ، من جمهوريتى تنجانيقا التى استقلت فى ديسمبر سنة ١٩٦١ ، وزنجبار التى استقلت فى نفس التاريخ .

### تنجانيقا :

تتنوع التضاريس فى تنجانيقا ، ويغلب عليها الارتفاع وخاصة فى الشمال والغـــرب . أما الوسط فمتجانس فى ارتفاعه بالرغم من كونه هضبة . والمناطق المرتفعة فى تنجانيقا لها أهميتها وخطورتها لا من حيث وفرة أمطارها وخصوبتها بالنسبة الى ما يجاورها فحسب ، وانما لمـا يوجد بها من حضارة نسبية لاحتكاك الوطنيين فيها بالأوربيين .

وتنتشر فى ٤/٥ تنجانيقا ذبابة تسى‌تسى‌التى‌تسبب تلفا أكثر مما تسببه فى اى منطقة أخرى فى شرق افريقية .

وتبلغ مساحة تنجانيقا حوالى ٣٦٤ الف ميل مربع منها حوالى ٢٠ ألف من المياه ، وطول سواحلها ٤٥٠ ميلا . ويحدها من الجنوب موزمبيق، ومن الغرب الكونغو ومن الشمال كينيا وأوغندة . ويقدر عدد سكانها بحوالى ثمانية ملايين نسمة مقسمين بين القبائل المختلفة كالمساى ، والواشاجا ، والسكوما وهى أكبر القبائل .

وهناك حوالى ٢٨ ألف أوربى - أغلبهم من البريطانيين - و ٧٦ ألف هندى و ١٧ ألف عربى وحوالى ٦ آلاف من جنسيات أخرى .

والزراعة هى أهم حرفة للوطنيين ، اذ يزرعون البن ، وهو أهم غلاتهم . وكذلك السيسال وجوز الهند . ويقدر انتاجهم من السيسال بنصف انتـاج العـالم . كما يزرع القطن والذرة . وهم ينتجون أيضا الأخشاب من الغابات التى تقـدر بحـوالى ١٠٧ ألف طن يصدر منها

حوالى ٢٥ الف طن مكعب ، اذ أن المساحة التى تغطيها الغابات هى ١٣٥ الف ميل مربع . وتوجد من الحيوانات ٧ مليون رأس من الماشية ، و ٢½ مليون من الأغنام ومثلها من الماعز .

وبتنجانيقا معادن بلغت قيمة ما أنتج منها سنة ١٩٦٠ حوالى ٧١/٢ مليون جنيه منها ٤ مليون من الماس و ١١/٢ من الذهب . والباقى من الرصاص والمايكا والملح .

أما الصناعة هناك فهى استهلاكية محضة كالطباق ، والأثاث ، والمشروبات والجلود وزيوت البذور ، والصابون ، وحلج القطن ، وحفظ اللحوم . وقد بلغ انتاج هذه الصناعات سنة ١٩٦٠ حوالى ٩ مليون جنيه.

وعاصمتها ـ دار السلام وهى أهم مدنها . وقد أنشأها العرب فى القرن الثامن . كما أن لها ببلاد فارس والهند علاقات قديمة أيضا .

كما أن الأتراك والبرتغاليين قد استقروا على الساحل فى القرنين السادس عشر والسابع عشر لمدد قصيرة ، ولكنهم لم يتوغلوا نحو الداخل.

وترجع علاقة الأوروبيين بهذه البلاد الى أواخر القرن التاسع عشر عندما تمكن الدكتور كارى بيترز الألمانى من عقد بضع اتفاقيات مع زعماء القبائل بوسائل الخداع المعروفة فى ذلك الوقت ، وفى معظم مناطق القارة. وعلى أثر ذلك حضرت الشركات الأجنبية لاستغلال أراضى تنجانيقا ، وأعلن أن هذه الأراضى ألمانية . كما تمكنت ألمانيا من عقد اتفاقية مماثلة سنة ١٨٩٠ مع سلطان زنجبار .

واستمرت الادارة الألمانية فى المنطقتين حتى قيام الحرب العالمية الأولى عندما تمكنت بريطانيا من طردها عام ١٩١٧ .

وفى معاهدة فرساى ـ سنة ١٩١٩ ـ وضعت تنجانيقا تحت اشراف عصبة الأمم التى انتدبت عليها بريطانيا سنة ١٩٢٢ . وبعد الحرب العالمية الثانية ، وتكوين هيئة الأمم المتحدة ، حل مجلس الوصاية محل مجلس الانتداب فى سنة ١٩٤٦ مع استمرار بريطانيا فى الاشراف عليها . ومعنى هذا أن تنجانيقا ظلت تحت الحكم البريطانى زهاء أربعة وأربعين عاما ، من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٦١ ، وان كانت ـ من الناحية القانونية ـ خاضعة لأشراف عصبة الأمم ثم هيئة الأمم المتحدة . ولذلك كانت بريطانية تديرها حسب أهوائها ، وتعاملها كمستعمراتها الأخرى فى أفريقية ـ من حيث بث الفتن والدسائس بين القبائل ، والتطوير البطىء سواء من

الناحية الدستورية أو الاجتماعية ، وتمكين الأقلية من السيطرة التامة على شئون البلاد .

ففى سنة ١٩٢٠ صدرت تعليمات الحكومة البريطانية ــ بتكوين مجلس ادارى يكون جميع أعضائه من البريطانيين . وفى سنة ١٩٥٦ تكونت جمعيــة تشريعية من ١٣ عضــوا من الموظفين البريطانيين و ١٠ أعضاء من غير الموظفين المعينين ايضا ، ٧ منهم من الأوربيين ، وأوربى واحد لتمثيل مصالح الأفريقيين ، وعضوين من الهنود !

وقد استمرت معارضة الأفريقيين لهذا النظام المبنى على العنصرية، كما اخذ النقد يشتد فى داخل الأمم المتحدة .

وفى عام ١٩٥٧ وضعت الادارة البريطانية دستورا جديدا ــ تحت تأثير الضغط والسخط المتزايدين ــ أصرت فيه هذه الادارة الاستعمارية على التمسك بقاعدة التمثيل العنصرى المتساوى . أى يتساوى عــدد ممثلى ٨٠ ألف هندى و ٢٨ ألف أوربى .

وقد استمر هذا الوضع حتى حصل « حزب المؤتمر الوطنى » برياسة يوليوس نيريرى سنة ١٩٦٠ على أغلبية مقاعد الجمعية التشريعية ، واصبح نيريرى رئيس الحكومة . ولما أعلن استقلال البلاد فى ديسمبر من نفس السنة انتخب رئيسا للجمهورية .

* * *

ويتركز النشاط الاقتصادى ، والدخل القومى فى يد الأوربيين ، ولهم وحدهم التعليم والخدمات الصحية ، والأعمال الفنية .

أما مشكلة الأرض فقد قررت الادارة البريطانية فى سنة ١٩٣٢ حجز مناطق معينة للأفريقيين أهمها الأقليم الشمالى والأقليم الأوسط . ولكن مع مرور الزمن قررت اللجنة المشكلة من البريطانيين منذ سنة ١٩٢٤ ، النظر فى استقرار الأوربيين فى تنجانيقا اسوة بما اتبع فى كينيا . وهكذا كانت تنتزع أجود الأراضى من الأفريقيين لتعطى للأوربيين . وكان ذلك عاملا مشجعا للأوربيين على الهجرة والاستيطان فى تلك البلاد . وهكذا زادت مساحة الأراضى التى يمتلكها الأوربيون شيئا فشيئا حتى بلغت حوالى ٢٫٥ مليون فدان مغلقة فى وجه الأفريقيين وهى اجــود أراضى تنجانيقا وان كانت تمثل نسبة ضئيلة الى جمــلة المساحة الموجودة

فى البلاد الا أن المســاحة التى تركت للأفريقيين ينتشر فيهــا ذباب تسى تسى .

وقد أصبح فى تنجانيقا شركات أجنبية تمتلك مساحات واسعة من الأرض تستغل بعضها لزراعة الفول السودانى ، أو المحاصيل الأخرى . كما أصبح فيها عدد كبير من الأوربيين الذين أثروا على حساب الوطنيين مثل « الرويد هيتشكوك » ملك الكتان الذى يملك مزارع شاســعة ، « وجون وليامسون » ملك الماس الذى بلغ ربحه الصافى خــلال عشرة الأعوام الأخيرة اثنى عشر مليون جنيه استرلينى !

## زنجبــار :

تقع جزيرة زنجبار جنوب خط الاستواء ، وعلى بعد ٢٥ ميلا من الساحل الشرقى لأفريقيا ، ومساحتها ٦٤٠ ميل مربع . ويبلغ عــدد سكانها ٣١٥ الفا منهم ٢٤٠ الفا من الأفريقيين ، و ٥٠ الفا من العرب ، و ١٧ الفا من الهنود .

والقرنفل أهم انتاج الجزيرة ، ويقدر بنحو ٥٧٪ من انتاج العـالم وتقطر جذوره وتصدر على هيئة زيت . كما تصدر الأخشاب والكاكاو . كما أن بها نحو ٥٠ مليون شجرة جوز هند . ويزرع بها أيضــا الأرز والبرتقال والليمون .

وقد حظيت زنجبار ــ كغيرها من الأقاليم الأفريقية ــ باهتمام العرب الذين نشروا فيها راية الاسلام ، ووحدوا قبائلها ، بين القرنين الثالثعشر والخامس عشر وفى نهاية القرن الثامن عشر طرد سكان زنجبار البرتغاليين الغزاة بمساعدة عرب عمان من الشيعة النازحين اليها والى الساحل الشرقى ، وتوطدت الصلات الاقتصادية والثقافية بين الساحل الشرقى والعالم الاسلامى كما توطد حكم أمراء عمان ولحق بهم فى القرن التالى بعض المستعمرين السينيين من مقاطعة شيراز الفارسية . وهكذا حل التجار العرب شيئا فشيئا محل التجار الأغريق واليهود .

وكان أهم أمراء عمان فى زنزبار السلطان سعيد الذى حكم بين سنتى ١٨٠٦ ، ١٩٥٦ ، وأدخل فيها زراعة القرنفل .

وفى سنة ١٨٢٢ دخل الجزيرة الجميلة الوادعة عنصر جديد اذ تظاهر الانجليز بمحاربة الرقيق لوضع أقدامهم فى القارة الأفريقية الغنيــة بخاماتها البشرية وبموادها الأولية . وفى عام ١٨٤٠ تأسست أول قنصلية

بريطانية فى زنجبار . وفى سنة ١٨٤٥ عقدوا معاهدة مع السلطان ليحدوا من ممارسة رعيته لتجارة الرقيق . وتوفى هذا السلطان عام ١٨٦١ ، وتولى أولاده الحكم .

وبدأ المبشرون الأمريكيون يتكاثرون .

واستطاعت بريطانيا بخططها الاستعمارية أن تربط بين التجار العرب وتجارة الرقيق، وأعطت للأفريقيين صورة مشوهة جعلت للعرب فيها الدور الرئيسى زورا وبهتانا .

ولقد استمر حكم الأغلبية العربية فى زنجبار الى أن بدأ صراع الدول الاستعمارية فى القارة ، وفتح الطريق الى ذلك الملك ليوبولد الثانى ، ملك بلجيكا ، سنة ١٨٧٠ . وتلت الحملات البلجيكية حملة ألمانية . ودخلت انجلترا الميدان فتغلغل نفوذها فى زنجبار سنة ١٨٩٠ ، وأعلنتها محمية بموجب معاهدة « هليجولاند » التى عقدت بين ألمانيا وانجلترا ، وحدت من سلطات السلطان .

وفى سنة ١٩٠٢ تولى العرش السلطان السيد على ، ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وازدادت العناصر الأجنبية نفوذا فى عهده لحداثة سنه حتى أصبحت زنجبار مستعمرة فى سنة ١٩١٣ ، وانتقلت شئون ادارتها الى وزارة المستعمرات ، وعين القنصل مقيما عاما .
ولما احتج السلطان تراجعت بريطانيا وشكلت مجلسا تشريعيا يرأسه السلطان ، ويمارس فيه المقيم السلطة الفعلية .

ومن أكبر أخطاء بريطانيا أنها لم تضم الى هذا المجلس حتى عام ١٩٤٧ أى عضو أفريقى . وأغلب الظن أن هذا التصرف كان مقصودا لأيغار صدور الوطنيين ضد العرب الحاكمين ، وعلى رأسهم السلطان نفسه ، وهو عربى .

ونجحت السياسية البريطانية فى التفرقة بين العرب والأفريقيين ، وخلقت هناك نوعا مغايرا من التمييز العنصرى . اذ أنه مع بداية اليقظة الأفريقية العامة بدأت العناصر السياسية فى زنجبار تمارس نشاطها على أساس عنصرى . وهكذا انقسم السكان الى عرب وأفريقيين .

وحين تأسس حزب زنجبار الوطنى ، بقيادة القوميين العرب ، الذى يمثل الأغلبية ، قاطع الأفريقيون الانتخابات متأثرين بالدعاية

البريطانية التى اتهمت الحزب بالشيوعية كما اتهمت العرب من قبل بأنهم باعوا آباءهم واجدادهم فى سوق النخاسة ! .

ولعب الاستعمار لعبته بتكوين عدة أحزاب . واصبحت زنجبار بركانا سياسيا يغلى بشتى العناصر والآراء المتضاربة . وبدأ الصراع العنصرى الجديد ضد العرب فقاطع الأفريقيون متاجر العرب ، وقام الملاك بطرد الأفريقيين من المزارع التى يضعون اليد عليها .

وعندما حان وقت انتخابات يونيو سنة ١٩٦١ سقط ٦٨ قتيلا منهم ٦٤ من العرب بسبب اعتداء الحزب الشيرازى على حزب زنجبار الوطنى واتهامه زورا بتزييف الانتخابات .

وقد أرادت انجلترا — وهى سبب الفرقة والانقسام العنصرى — أن تقوم بدور حمامة السلام فدعت الفريقين الى مؤتمر مصالحة فى لندن عام ١٩٦٢ ، واشترك فى المؤتمر أعضاء المجلس التشريعى فى كينيا .

وقبل أن تتم المصالحة ، والاستقرار حدث الانقلاب الدامى فى ديسمبر سنة ١٩٦٣ الذى راح ضحيته المئات من العرب الأبرياء . وتكررت المجزرة مرة أخرى .

ومن الغريب أن يتصارع رفاق معركة التحرير بهذا الشكل المروع ، وذلك بسبب كثرة ما ألقاه الانجليز من بترول على النار !

والأغرب من ذلك أن يمارس الأفريقيون فى زنجبار وتنجانيقا هذه التفرقة العنصرية حتى بعد أن اتحدتا تحت اسم « جمهورية تانزانيا » !

## الفصل
## العاشر : العنصرية فى اوغندة

تقع أوغندة فى شرق أفريقيا . وتحدها كينيا من الشرق ، والسودان من الشمال ، والكونغو من الغرب ، وتنزانيا من الجنوب .

وهى دولة داخلية لا تطل على بحار مفتوحة ، أو محيطات ، ولابد ان تعبر تجارتها كينيا للوصول الى المحيط الهندى .

وحدود اوغندة كبقية الوحـــدات السياسية فى افريقيا خططتها القوى الاستعمارية ولمصلحتها دون أى اعتبار للظـــروف الطبيعية ، أو التاريخية ، أو الجغرافية . وحتى الحرب العالمية الأولى لم تكن هناك حدود معروفة لأوغندة . فقد كانت نمولى وغندوكرو وهى من السودان ، تابعة لأوغندة ، ثم اعيدتا اليه بعد ضم منطقة ( لادو ) الواقعة غرب نيل البرت الى أوغندة .

ومساحة أوغندة ٩٤ ألف ميل مربع تغطى المياه حوالى ١٤ الف ميل مربع منها ، اذ أن أوغندة تقع فى أحضان مجموعة من البحيرات يصل ارتفاعها الى آلاف من الأقدام فوق سطح البحر . فبحيرة فكتوريا فى ركنها الجنوبى الشرقى ، وبحيرتها ألبرت وادوار على حدودها الغربية . وبحيرة كيوجا فى وسطها . وتجرى فيها روافد النيل وأرضها خصبة ومناخها معتدل لارتفاعها .

وقد تنبأ تشرشل الزعيم البريطانى ، عام ١٩٠٧ باهمية أوغنـــدة فقال : « ان أوغندة بلاد حية . انها عظيمة الأهمية ، واعتقد أنها ستصبح يوما ما أهم وأكثر اقاليم شرق ووسط أفريقية كلها ، وأوفرها رخاء . وانى أنصح بتركيز الجهود حول أوغندة ، وسترون النتـائج السريعة المثمرة » وقد كان ! .

ذلك أنه يزرع حاليا من القطن فى اوغندة ٢/١١ مليون فدان . كما ينتج حوالى ٩٨ الف طن من البن ، وهو والقطن اهم سلع التصدير ، كما يزرع

الشاى ، والطباق ، والذرة والفول السودانى ، والقصب ، والسيسل . والغابات هناك أشجارها صلبة والثروة السمكية لها أهميتها . وبها من الماشية حوالى ٤٧٠ الف رأس .

وتقدر الأرض المزروعة بحوالى ٨ مليون فدان . وعدد سكانها حوالى ٦½ مليون نسمة منهم ٨٠ الف من الهنود ، و ٤٠٠٠ من العرب ، ١٠,٠٠٠ من الأوربيين

أما المعادن فقد أصبح النحاس أهم انتاج معدنى منذ سنة ١٩٥٦ . وقد صدر منه سنة ١٩٦١ بمقدار ٣ مليون جنيه .

قد انشىء فيها سد أوين عام ١٩٥٤ ، الذى ينتج قوى كهربائية مقدارها ١٥٠ ألف كيلوات / ساعة لا تحتاج منها أوغندة الا القليل ، وتستغله فى مصانع الشاى ، والبن والنسيج ، والبيرة ، والزيوت ، وصهر النحاس . وهى تبيع الكهرباء منه الى كينيا ، وقد ساهمت ج.ع.م فى نفقات السد بحوالى ٤ مليون جنيه . وهو يرفع مستوى بحيرة فيكتوريا حوالى ٤ أقدام فوق أعلى منسوب حالى لها ، وكانت تعتبر أوغندة احدى المناطق البريطانية فى شرق افريقية . وقد بذلت ـ فى بعض فترات استعمارها ـ محاولات لربطها بكينيا وتنجانيقا ، ولكن هذه المحاولات فشلت ، وان ربطت بكينيا بسكة حديدية مما جعل اتجاهها الجغرافى نحو المحيط الهندى . كما أن مشاكلها وادارتها تختلف ، عنها فى الدولتين الأخريين .

وقد بدأ الاستعمار البريطانى فيها منذ سنة ١٨٨٨ حين أخذ التجار الأجانب فى الوصول اليها ، وتكونت شركة شرق أفريقية الامبراطورية التى عقدت معاهدات تجارية مع زعماء القبائل على نمط اتفاقيات شركة جنوب افريقية البريطانية فى وسط افريقية .

وكما يحدث دائما تدعى بريطانيا أن القبائل تضطهد الجمعيات التبشرية وتذبح المسيحيين ، كما تدعى أن من حقها أن تتدخل لايقاف هذا الصراع الدموى ، وترسل جيوشها بالفعل لتتمكن الشركة من ترسيخ أقدامها ، والسيطرة على البلاد ، وطرد اهل البلاد الأصليين بحجة انهم معتدون على البيض رسل الحضارة ، والمبشرين رسل السلام

وبعد قليل رات الشركة أن تكاليف سيطرتها على البلاد تفوق أرباحها . ولذلك تخلت للحكومة البريطانية عن مستويات هذه الادارة سنة ١٨٩٣ ،

واعلنت الحماية على البلاد فى العام التالى ، واستمرت الاضطرابات حتى أعلن استقلالها فى اكتوبر سنة ١٩٦٢ كجمهورية فى نطاق دول الكومونولث البريطانى .

* * *

وكانت الجمعية التشريعية لأوغندة تتكون من ٦٢ عضوا منهم ٣٢ تعينهم الحكومة من الوزراء والموظفين السابقين و ١٦ من غيرهم . ثم هناك ٣٠ عضوا منتخبا منهم ١٨ أفريقى . ومعنى ذلك أن الأفريقيين الذين تبلغ نسبتهم حوالى ٩٩٪ من السكان لا يمثلهم سوى ٢٩٪ من أعضاء الجمعية التشريعية . وكذلك مجلس الوزراء الذى يرأسه الحاكم ، والمكون من ١٣ وزيرا أغلبهم من الاوربيين .

* * *

وبالرغم من ضآلة عدد الأوربيين ، وقلة مساحة الأرض التى يمتلكونها نسبيا الا أن نظام توزيع الأرض ، وامتلاكها وتأجيرها يسبب مشكلة رئيسية فى البلاد . فقد نظر منذ البداية الى أوغندة على أنها منطقة صالحة للاستقرار الأوربى . وبالفعل انتزعت من أيدى الأفريقيين جميع الأراضى الصالحة لهذا الغرض ، ووزعت على الأسر الأوروبية التى رأت فى فترة ما أن تنضم بما تمتلك من أرض ، وما يوزع عليها منها مستقبلا ، الى مستعمرة كينيا ، وذلك فى سنة ١٩٠٢ .

وحدث أول تدخل كبير من جانب الحكومة البريطانية فى مشكلة الأرض عندما عقدت اتفاقية سنة ١٩٠٠ التى نصت على أن أى قطعة أرض بين ساحل البحر والكونغو ملك للحكومة البريطانية على أساس أنها هدية من الكاباكا « الملك » . كما عقدت بعد ذلك اتفاقيات مماثلة مع زعماء القبائل .

وفى سنة ١٩٠٣ انتهزت الحكومة قوانين الطوارىء واعلنت سيطرتها على جميع الأراضى ، وتغير اسمها من أرض التاج الى « الأراضى العامة » . كما صدر سنة ١٩١٠ قانون يمهد الطريق لمنح الأوربيين الكثير من الأراضى ، ويعطى الحكومة الحق فى انتزاع أى أرض من الأفريقيين لبيعها لمن تشاء من الأوربيين الذين ينقلبون فى هذه الحالة الى ملاك ، ويصبح الملاك الأفريقيون مجرد مستأجرين ، أو عمال أجراء لدى الملاك الأوربيين الجدد اذا شاء هؤلاء !!! .

واذا كانت الأراضى تبلغ مساحتها فى اوغندة ـ باستثناء البحيرات والمستنقعات ۸۰ الف ميل مربع فقد اصبح غير الأفريقيين يمتلكون منها نحو ١٧٣١ الف ميل مربع .

* * *

وكثرة عدد الهنود نسبيا تسبب فى أوغندة مشكلة رئيسية أخرى من المشاكل العنصرية . اذ يبلغ عددهم ثمانية أمثال الأوربيين، ويسيطرون على ٩٠٪ من التجارة فى البلاد . كما أن هناك كثيرا من الهنود يعملون فى السكة الحديد ، وفى المشروعات الصناعية .

وللهنود تعليمهم الخاص ، وممثلوهم فى المجلس التشريعى ، ومجتمعهم الذاتى المتميز . وبمعنى آخر ان الهنود مجتمع منفصل ـ بكل مميزاته وخصائصه ـ تماما عن الأفريقيين . بل ان لهم نفوذا ، ومكانة يفوقان ما للأفريقيين أصحاب البلاد ، والأغلبية الساحقة فيها . ولكى نعطى فكرة عن ذلك يكفى أن نعلم أن ٤٥٪ من سكان كمبالا ـ العاصمة ـ من الهنود .

ويهتم الهنود بزراعة وتصنيع قصب السكر ، وزراعة وحلج القطن . وهم يصدرون نصف ما تصدره أوغندة من القطن الى الهند .

لذلك قام صراع عنيف بين الهنود والأفريقيين الذين اعتبروا احتكار الهنود لهذه القطاعات من الزراعة والصناعة تمييزا عنصريا أتى مع الاستعمار البريطانى ، وبتشجعه .

وتبلغ كثافة السكان فى أوغندة حوالى ٢٠٠ شخص فى الميل المربع الواحد ، وقد تزيد عن ذلك فى بعض المناطق ، مما جعل عددا كبيرا من السكان لا يمتلكون أية أراض ، ويعملون كمزارعين ، أو أجراء ، أو عمالا فى الخدمات والصناعات لقاء أجر زهيد جدا . وقد شكلت سنة ١٩٤٩ لجنة لبحث هذه المشكلة تبين منها أن أجر العامل الأفريقى فى السكة الحديدية لا يزيد عن ٥٥٪ من أجر زميله العامل الهندى . كما انهم لا يتمتعون بأى عناية صحية ، أو رعاية فنية تزيد من مهارتهم لتؤهلهم لتولى الأعمال ذات الأجور المرتفعة نسبيا . وتزيد حالة العمال الزراعيين عن ذلك سوءا .

* * *

وفى سنة ١٩٥٤ افتتحت ملكة بريطانيا خزان شـــلال اوين . كما اكتشف النحاس الذى أخذ فى تعدينه محليا مما طور اقتصاديات أوغندة، ورفع مستوى معيشتها . وفى نفس الوقت زاد من حدة المشاكل العنصرية فيها لأنه ضاعف من هجرة الأجانب الذين اجتذبتهم الصناعة على نمط ما حدث فى روديسيا الشمالية .

وكما سبق فقد استقلت أوغندة فى اكتوبر سنة ١٩٦٢ مع دخولها عضوا فى دول الكومونولث البريطانى .

ان شعب أوغندة له ثقافة وتاريخ . وهو فى ذلك يشبه شعوب غرب أفريقية . لذلك كانت نزعة القومية فيه منبعثة من الداخل .

ولقد برز عنصر القومية الأفريقية فى أوغنـــدة من نداء تقدم به الدكتور ب . ن . كونونكا ، نائب بوجنـــدا فى ١٩٥٥/١/٢٤ — أى قبل الاستقلال قال فيه أن أفضل سبيل لمقاومة اتجاهات بريطانيا نحو ربط كينيا وأوغندة وتنجانيقا فى اتحاد من اتحاداتها الزائفة هو ربط أوغندة مع دولتى النيل العظيمتين : مصر والسودان (١) .

(١) أفريقية وراء الصحراء . المصدر السابق . ص ٥٣ .

## الفصل
## الحادى عشر : العنصرية فى غرب افريقيــة

تعتبر منطقة غرب افريقية من أكثر المناطق فى جنـــوب الصحراء الكبرى اتصالا بالعالم الخارجى . فطرق القوافل عبر الصحراء جعلت تجارة هذه المنطقة تتجه منذ قديم الزمن نحو الشمال .

وهكذا ظهرت فيها مدن عامرة ، وأسواق تجارية نامية ونظم اجتماعية وسياسية واقتصادية كانت تتقدم بمقاييس عصرها . مما وفر لها ثراء لا تجد له نظيرا فى كثير من أنحاء أفريقية السوداء . فضلا عن أن ذلك الاتصال كان سببا فى انتشار الاسلام ، كما ساعد الاسلام بدوره على تدعيم هذه الروابط .

ومنطقة غرب افريقية كانت أولى المناطق التى وصلت اليها طلائع الملاحين الاوربيين فى القرن الخامس عشر ، اذ بدأ البرتغاليون فى اتخاذ نقط تجارية وعسكرية على ساحل غرب أفريقية عام ١٤٧١ ، ولكن لم يحدث توغل فى الداخل قبل القرن التاسع عشر .

وكانت تجارة الرقيق أهم تجارة هذه المنطقة والمصدر الرئيسى للرقيق فى العالم لمدة أربع قرون ، وقد قدر ما يصدر منه سنويا حوالى ١٠٠ ألف نســـمة .

وبعد أن تحرر الرقيق ، وعادوا من انجلترا وأمريكا الى المنـــاطق الساحلية فى سيراليون وليبريا كانوا طائفة جديدة متميزة تمـــاما عن النظام القبلى الذى كان سائدا فى المنطقة وخاصة فى الأجزاء الداخلية . وهكذا أصبحت هناك فروق واضحة بين سكان الساحل وسكان الداخل، لا تزال موجودة حتى الآن ، وقد تصل الى حد اثارة عوامل الحقد والعداء والحـــروب .

أما العلاقة بين الأوربيين والأفريقيين فقد ظلت مبنية على أساس النظرة الاستعمارية واساليبها التقليدية والمستخدمة .

وقلة المستوطنين البيض ترجع الى البيئة الطبيعية حيث ترتفع درجة الحرارة ودرجة الرطوبة ، مما يساعد على نمو الغابات الكثيفة الضخمة ، والنباتات المتسلقة بما يتخللها من ظلام ، ووحشة ، وحشرات، ومستنقعات ، وما تسببه من أمراض متوطنة كالملاريا ، والحمى الصفراء، ومرض النوم ؛ وصعوبة المواصلات ، وقلة الماشية ، وندرة الطرق الصالحة .

ومع ذلك فقد أمكن للانسان أن يتغلب على بعض صعوبات الطبيعة فانشأ فى بعض الأماكن مزارع واسعة للكاكاو والمطاط وقصب السكر ، كما أنشأ موانى التصدير ، ومد طرق السكة الحديدية ، مما ساهم فى أهمية المنطقة من الناحية الاقتصادية .

* * *

وبالرغم من أن هذا الاقليم تنتظمه وحدة جغرافية فقد قسمه الاستعمار كعادته ـ الى عدة وحدات سياسية صغيرة متجاهلا النواحى الجغرافية والاقتصادية ، والتاريخية ، والقبلية . وسيطرت بريطانيا وفرنسا على معظم أجزائه . وبعد استقلال تلك البلاد تمسك زعماؤها بحدودها السياسية برغم ما فيها من مشكلات .

وقد حاولت مالى والسنغال تكوين اتحاد فيدرالى بينهما ، وللأسف حل هذا الاتحاد بسبب اختلاف وجهة نظر زعماء كل من الدولتين ، كما حاولت غانا تكوين اتحادات أخرى فى هذه المنطقة ، وبدأت المحاولة بالفعل مع غينيا ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضا سوى من الناحية النظرية وغلبتها الإتجاهات القومية . وبعد أن حصلت الدول المتكلمة بالانجليزية على استقلالها انضمت الى « الكومنولث البريطانى » .

**التفرقة العنصرية فى سيراليون :**

فى أواخر القرن الثامن عشر أنشأت بريطانيا مستعمرة سيراليون التى حاول البريطانيون أن يتخذوا منها منطقة ايواء للأرقاء . ثم نقلوا اليها ايضا بعض الرقيق من زنوج أمريكا الذين حاربوا فى صفهم فى حروب الاستقلال الأمريكية ، ووفد اليها أيضا من زنوج جمايكا .

وأصبح يطلق على هؤلاء الزنوج الوافدين اسم « الكريول » وقد افسحوا المجال لسيطرة الشركات الاستعمارية ، فأنشأت لهم بريطانيا منذ قرن جامعة « فرنون » التى لها صلة بجامعة « درهام » البريطانية .

ولم تتوافر للافريقيين الأصليين هذه الظروف الثقافية والاقتصادية وقد نسي ــ أو تناسى ــ الكريول أنهم من نفس الجنس الأفريقى ، وانهم من نسل الرقيق الذى شحن على البواخر الاوربية منذ قرون الى العالم الجديد فأقاموا حاجزا عنصريا رغم أن الجنس واحد ، واللون واحد ، والدين واحد .

ومع تطور الوعى الافريقى ، وعلو الموجة التحريرية ، فكرت بريطانيا فى تطوير حكمها الادارى والسياسى ، واعطاء الأغلبية فى المجلس التشريعى للأغلبية الافريقية . ولم يكن من السهل على الكريول قبول هذه الفكرة حتى أن أحد زعمائهم وهو الدكتور « بانكول برايت » صرح فى مؤتمر صحفى عقده فى لندن بقوله « نحن الكريول لا نستطيع أن نقبل أغلبية من سكان الداخل فى المجلس التشريعى . وليس من المعقول أن يتحكم أفراد المحمية فى الكريول . فهؤلاء ــ الكريول ــ رعية بريطانيا ، ومسيحيون . ومن المستحيل أن يستوى المسيحيون والوثنيون الذين لازالوا ياكلون لحوم البشر »(١) .

ومضى دكتور برايت الى قبره حاملا معه جرثومة هـــذه العنصرية السوداء ، وجاءت من بعده أجيال تعمل فى جبهة واحدة ضد المستعمرين الخبثاء ، ولصالح الوطن الأم . وجاء هذا بعد تطور طويل يمكن ارجاع بذوره الى الحرب العالمية الأولى ، ثم الحرب العالمية الثانيـــة . وقد أصبحت سيراليون جمهورية مستقلة داخل نطاق الكومنولث البريطانى فى ابريل ١٩٦١ . وهى تتلقى مساعدات عديدة من بريطانيا وأمريكا ، وتملأها الشركات الاحتكارية الأجنبية ، كما أن بها العديد من الأحزاب المتصارعة . ويزرع بها الأرز والموز والطباق والكاكاو كما أن بها معادن كالماس والحديد والألمنيوم .

**التفرقة العنصرية فى ليبريا :**

وشاهدت ليبريا أيضا فى مراحل تطورها لونا من الوان العنصرية . فقد نشأت كثمرة من ثمار « جمعية الاستعمار الامريكية » التى يرجع تاريخها الى عام ١٨١٧ ، ولا زالت قائمة حتى الآن ، والتى قامت هى

(١) انظر مقال : الوان من التفرقة العنصرية . د . عبد العزيز كامل . مجلة نهضة أفريقية . مارس ١٩٦١ . ص ٩ .

وغيرها ، بقصد اسكان الزنوج الأمريكيين المحررين ، كما فعلت بريطانيا فى سيراليون سنة ١٨٢٠ .

وقد حدث أول استيطان لهؤلاء الزنوج الأمريكيين الوافدين سنة ١٨٢٢ . وتتابع وصول الوفود السوداء الى الجزيرة . وظلت جمعية الاستعمار الأمريكية ترعى شئون هؤلاء المستوطنين حتى عام ١٨٤٧ عندما أصبحت ليبريا دولة حرة ، شعارها « حب الحرية جاء بنا الى هنا » .

وقامت مشكلة العنصرية فى ليبريا — منذ قدوم أول فوج من الزنوج الأمريكيين كما حدث فى سيراليون ، ولنفس الأسباب . واصبح الزنجى فى ليبريا أمريكيا . كما أصبح الزنجى فى سيراليون انجليزيا . كل منهم يتكلم بلغته الجديدة ، وبعقليته الجديدة ، ولا يعترف أنه من نسل وجنس اخوانه السود الذين يسكنون معه الوطن الأم .

ومن أهم الشركات الأجنبية فى ليبريا « شركة فايرستون » للمطاط التى تملك مزارع واسعة من المطاط ، تبلغ مساحتها نحو مليون فدان . وكان المطاط يمثل نحو ٩٧٪ من صادرات ليبريا ، ثم هبط أخيرا الى نحو ٦٦٪ للتوسع فى استخراج خامات النحاس ، وبعض الصادرات الأخرى مثل قصب السكر ، والأخشاب ، والبن ، والحديد . ويعتبر خام الحديد هو المعدن الرئيسى الذى تنتجه ليبيريا ، وتحتكر استخراجه شركة Liberia Mining من منطقة بوميهيلز الأمريكية . وتعتبر المنطقة التى تستخرج منها الشركة الحديد من أغنى مناطق الحديد فى العالم حيث تصدر منه ما قيمته ٣٣ مليون دولار . وهناك منجم آخر فى جبال نيمبا يقدر ما به من خام الحديد بنحو ٢٠٠ مليون طن . وتستغل هذا المنجم شركة أمريكية سويدية .

وتحتل الولايات المتحدة المقام الأول فى اقتصاديات ليبريا حيث تحتكر شركاتها ومؤسساتها معظم فروع الاقتصاد القومى فيها . كما أن معظم المساعدات الخارجية تتلقاها منها فقد تلقت قبلا عام ١٩٦٢ معونة قدرها ١٠٫٦٠٠٫٠٠٠ دولار وقرضا قدره نحو ٥ مليون دولار . كما تلقت عام ١٩٦٣ قرضا آخر قدره ٢٤ مليون دولار لتمويل مشروع لانشاء خزان ومحطتى توليد كهرباء(١) . وقد كان للتوسع الزراعى أثره فى اشتداد

---

(١) الحرب الاقتصادية . صلاح نصر . ص ٤٣٣ .

الطلب على الايدى العاملة الرخيصة . وهذا العامل كانت له آثاره فى ليبريا خاصة وفى غرب أفريقية عامة .

ومن الجهات التى اشتدت فيها الحاجة الى الأيدى العاملة الرخيصة الافريقية « جزيرة فردينياندوبو » التى تقع فى خليج غانة ، وتخضع للحكم الأسبانى .

وأخذ المندوبون الذين يعملون لحساب الأسبان فى جمع الأيدى العاملة من ليبريا لترخيلهم جماعات الى الجزيرة تحت ظروف سيئة للغاية ، تصل الى درجة الرق القديم . فقد كانوا يصطادون الشبان الأفريقيين لارسالهم الى فرناندو بو .

وقد تكونت لجنة تحقيق فى هذه الفظائع التى ارتكبها مسئولون رسميون فى ليبريا نشرت تقريرها عام ١٩٣١ تبين منه أن على رأسهم « مستريانسى » الذى كان فى ذلك الوقت يشغل منصب « نائب رئيس الجمهورية » .

ويذكر « هولمان جيمسون » فى دراسة له أجراها سنة ١٩٦٠ عن هذه الفضيحة الدولية الانسانية فى العصر الحديث قصيدة كانت ترثى بها نساء قبيلة فى ليبريا رجالهن الذين يقعون فى براثن الأسبان عن طريق عصابة المسئولين الرسميين الذين كان يتزعمهم نائب رئيس الجمهورية « مستريانسى » :

كنا هنا عندما جاءت المتاعب الى شعبنا
من أجل هذا جاء يانسى الى أرضنا
قبض على أزواجنا واخواتنا
وأرسلهم الى « فردينادوبو »
وهناك ماتوا
وهناك ماتوا
أخبرنا
يانسى .. لماذا ؟
يانسى .. لماذا ؟
ليس لنساء « واديبو »(١) أزواج ؟
يانسى .. لماذا ؟

---

(١) اسم القبيلة التى كانت تنشد نساؤها هذه المرثية الحزينة .

ليس لنساء « واديبو » أخوة ؟
يانسى .. لماذا ؟
مات الأمهات والآباء والأبنـــــاء
وهم ينتظرون الغائبين !!
يانسى .. لماذا ؟

ولكن نمو الوعى الأفريقى جعـــل الافريقيين الأصليين والوافدين يحاربون تحت علم واحد حتى حصلت ليبريا على استقلالها . بل كانت أول دولة أفريقية سوداء تحصل على هذا الاستقلال منذ عام ١٨٤٧ . وقد جاء فى البند الرابع من وثيقة عقد الاستقلال :

« نحن شعب جمهورية ليبريا . كنا أصلا من سكان الولايات المتحدة فى أمريكا الشمالية » .

وقد اقترحت جريدة « لاجوس ويكلى ريكورد » النيجرية تعـــديل هذا النص كالآتى :

« نحن شعب ليبريا ، الذى يتكون من المواطنين الأصليين لهــــذا القطر ، وأبناء الأفريقيين الذين أخذوا أسرى الى نصف الكرة الغربى » وهذا التعديل هو الأقرب الى الحقيقة والواقع !

وجمهورية ليبريا تقع شمال خط الاستواء بنحو ١٢ درجة وتحدها من الشمال سيراليون ، ومن الشمال الشرقى غينيا ، ومن الشرق ساحل العاج ، ومن الجنوب والغرب المحيط الأطلنطى ، وطول ساحلها ٦٠٠ ميل. وساحلها سهلى ضيق ، يتدرج فى الارتفاع نحو الداخل .

ومناخها شبه استوائى فى الجنوب ، وسودانى فى الشمال . فالحرارة شديدة ، والرطوبة عالية ، والأمطار غزيرة .

وهى تنتج الموز والذرة والأرز والكاكاو والبن . أما ثروتها الحيوانية فقليلة . واستغلال كل هذه الثروات فى أيدى الشركات الأجنبية الاحتكارية كما تقـــدم .

ويبلغ عدد سكانها حوالى ٢١/٢ مليون نسمة ، ومساحتها نحو ٤٣ ألف ميل مربع . ويبلغ عدد الزنوج الأمريكيين بها ٨٪ من السكان .

وقد أبرمت ليبريا عام ١٩٦١ معاهدة مع اسرائيل التى تقدم لهـــا مساعدات مالية تحت اسم المساهمة فى التقدم مع انها تأخذ من ليبريا اكثر مما تعطى .

١ ـ ذلك أن اسرائيل تقوم فى ليبريا ببناء فندق كبير ، والقصر الجمهورى ، ووزارة الخزانة ، والغرفة التجـــارية ، ومبنى البلدية ، ومصلحة الاستعلامات . وهى تتقاضى فى هـــــذه المشروعات مبالغ طائلة تفوق المساعدات المالية التى تعطيها لها .

٢ ـ كما اتفقت اسرائيل وشركة مايرونيك للاستيراد والتصدير على تمويل وارداتها من اسرائيل بما قيمته ١٠ مليون دولار (١) .

---

(١) الحرب الاقتصادية . صلاح نصر . ص ٤٣٣ .

## الفصل
## الثاني عشر : العنصرية فى الكونغو ( ليوبولدفيـل )

ان اقليم الكونغو على شكل حوض منخفض تحيط به المرتفعات التى تصل من ٦٠٠ الى ١٥٠٠ قدم . وله ساحل على الأطلنطى بطول ٢٥ ميلا.

وأهم ظاهرة فى الكونغو هى نهـــر الكونغو بروافده الكثيرة وغاباته الكثيفة . ويسود الاقليم المناخ الاستوائى بحرارته ورطوبته وأمطـاره الغزيرة .

ومساحة الكونغو ٢٫٣٤٤٫٠٠٠ كيلومتر مربع ، وهى توازى مساحة بلجيكا ـ التى كانت تستعمره ـ ٨٠ مرة . ويزرع به النخيل ، والقطن ، والموز ، والذرة ، والكسافا وهو أهم غذاء للسكان .

وقد منحت الشركات مساحات واسعة لزراعة الغلات التجـارية كالمطاط والبن والكاكاو .

وتوجد به ثروة هائلة ووفيرة ومتنوعة من المعادن الهامة ـ كالماس والذهب واليورانيوم والقصدير والزنك والكوبالت والمنجنيز والفحم . فمناجم كاتنجا وحدها أكبر من مساحة بلجيكا بأسرها . واتحاد مناجم كاتنجا يسيطر على ٧٠٪ من ثروة الكونغو وحدها . وهذا الاتحاد من أكبر شركات التعدين فى العالم .

وهذه الثروة الضخمة لا تستفيد منها سوى الشركات الاحتكارية الأجنبية . بل انها جذبت الأفريقيين انفسهم فهجروا الزراعة للأشتغال فى المناجم وشركات التعدين حتى أنهم يعانون دائما مجاعات طاحنة ، ويستوردون معظم ما يحتاجونه من أغذية ولحوم من الخارج .

وفى الكونغو قوى مائية هائلة يمكن أن تستخدم فى توليد الكهرباء .

ولكنه قليل السكان بالنسبة لمساحته ، اذ لا يزيد عدد سكانه عن ١٣٫٥ مليون نسمة بينما تبلغ مساحته مساحة الهند .

وقد حكمت بلجيكا هذا القطر حكما قاسيا ، سيئا للغاية . وقد اعتبر ليوبولد الثانى الكونغو ملكا خاصا له . وفى ١٩٠٨ اضطر تحت ضغط الرأى العام – أن يتنازل عن ملكيته للحكومة البلجيكية التى استمرت فى ادارته حتى حصل على استقلاله فى سنة ١٩٦٠ ، بزعامة باتريس لومومبا الذى دفع حياته ثمنا لهذا الاستقلال .

وقد بنيت السياسة الاستعمارية البلجيكية فى الكونغو على ما يسمى « الحكم الأبوى الموجه » التى تشبه سياسة البرتغال فى مستعمراتها .

وقد اعتقد البلجيكيون فى ذلك أنهم واقعيون ، وأن الفرنسيين والانجليز خياليون أو نظريون فى أفكارهم التى تقوم على تطوير الأفريقيين نحو الحكم الذاتى ، واشتراكهم فى المجالس التشريعية المركزية أو الاقليمية . وتنطوى نظرية البلجيكيين فى الحكم على منح التطور الاقتصادى الأولوية فى الاهتمام .

ورغم ما فى الكونغو من امكانيات اقتصادية لا تتوفر فى أقطار أفريقية كثيرة الا أن الحكومة البلجيكية أقامت الحواجز العنصرية بين الأوربيين وسكان البلاد فى كل المرافق ، والوظائف . كما أن المدن كانت تنقسم الى أحياء أفريقية وأخرى أوربية . كما اتخذت اجراءات مختلفة تحد من حرية الأغلبية الأفريقية ، كحمل البطاقات الشخصية المرفق بها ايصالات الضرائب . فضلا عن تحريم انتقالهم من جهة الى أخرى الا باذن من الجهات المختصة .

والأحياء الوطنيـــة محــرومة تماما من أية مرفق أو رعاية صحية أو اجتماعية . وتتلخص فلسفة الاستعمار البلجيكى ، ان جاز هــذا التعبير ، فى أن « الرعاية الأبوية » التى تكفلها الحكومة لشعب الكونغو تتوقف على درجة النضجه . والذى يحدد هذه الدرجة هى الحكومة البلجيكية وحدها !

وتهتف أبواق الدعاية البلجيكية الاستعمارية مهللة لما حققته بلجيكا للكونغو من تقدم . وتزعم هذه الأبواق المأجورة أن الحكومة تحمى الزنوج من الشركات الاحتكارية .

ولكن الحقيقة على عكس ذلك تماما .

اذ تفرض الحكومة ضرائب كثيرة وكبيرة على الشركات يدفع منهــا الزنوج ١٠٪ كضرائب مباشرة ، ويدفعون الباقى كضرائب غير مباشرة .

وتفرض أجهزة الأمن رقابة صارمة على أحياء الوطنيين الأفريقيين، فتمنع تجولهم بعد الساعة السابعة مساء الا بأذن خاص .

وتحدد الدولة ، فيما تحدد من قيود على الوطنيين ، الأجور التى يتقاضونها ، والمستوى الاجتماعى الذى يعيشون فيه .

وهى وأن أباحت منذ وقت قريب ـ تحت ضغط القوى القومية ـ تكوين اتحادات للعمال السود ، ولكن ليست لهذه الاتحادات أى تأثير أو نفوذ ، بل ولا تعدو أن تكون هيئات شكلية بحتة . وأبلغ دليل على ذلك ما رواه احد رجال الأعمال الأمريكيين فى الكونغو :

« انه أمر غريب لم أستطع كيف أتصوره . هل هى قبضة حديدية فى قفاز من قطيفة ؟. لقد كان لدى أحد رؤساء العمال الزنوج . وكان رجلا ذكيا وطموحا . وقد سألنى حول اتحادات العمال فى الولايات المتحدة . ولما كنت أعلم أن التشريع فى الكونغو لا يحرم على العمال الزنوج تكوين اتحادات خاصة بهم فقد أجبته على أسئلته .

« وفجأة تخلف عن العمل . ومضيت أسأل عنه ، ولكنى لم أتلق اجابة شافية . وبعد بضعة أيام أبلغتنى السلطات انه قد ترك المدينة برمتها . ولما حاولت أن أعرف أين ذهب نصحنى المسئولون أن لا أحاول البحث عنه ، بل وانسى الموضوع كله .

«ولم أستطع ان أصدق هذا الذى يحدث فى بلد يلزم فيه كل شخص من الزنوج أن يحمل أوراقه الشخصية ، وأن يبلغ السلطات عندما ينتقل من حى الى حى آخر ، أيا كانت المهمة التى ينتقل بسببها ، وأيا كانت المدة التى يقضيها ، وحيث لا يستطيع أحد منهم أن يتحرك الا بعد أن يخطر المسئولين عن شخصيته ، وغرضه ، ومهنته ، واسم والدته أيضا . »

ومن حيث الثروة المعدنية يعتبر الكونغو أغنى بلاد العالم . وتمثل الكونغو احدى الركائز الاقتصادية والاستراتيجية الهامة فى أفريقية . وعليها تتوقف امكانية تنفيذ اى مخطط سياسى فى القارة ، تحرريا كان أو استعماريا . ولذا يعتبرها الغرب احدى القواعد الحيوية التى يتحتم عليه ابقاءها تحت نفوذه المباشر تأمينا لأهدافه الاستراتيجية ، ومصالحه الاقتصادية ، واستثماراته الضخمة فيها . وعليه يقدم الغرب لها جميع أنواع المساعدات . وتأتى الولايات المتحدة فى مقدمة دول الغرب

التى تمد الكونغو بكل أنواع المساعدات وتليها بلجيكا فألمانيا الغربية وفرنسا فايطاليا ثم أسبانيا فالبرتغال .

وتكون الاحتكارات البلجيكية ٩٠٪ من الاستثمارات الأجنبية الموجودة فى الكونغو حيث تمثل هناك فى ثلاث شركات هى :

١ ـ المؤسسة البلجيكية العامة .

٢ ـ بنك بروكسل .

٣ ـ شركة زيوت الكونغو البلجيكى (١) .

---

(١) الحرب الاقتصادية . صلاح نصر . ص ٤٣٣ .

## الفصل
## الثالث عشر : العنصرية فى المغرب العربى قبل استقلاله

تختلف سياسة فرنسا العنصرية حسب ظروف كل مستعمرة . فحيث يصعب استيطان الفرنسيين أو الأوربيين عامة تخف نسبيا وطأة التفرقة العنصرية . وحيثما يسهل ذلك ، ويزداد يحدث العكس تماما كما فى الجزائر خاصة . وان كان هدف فرنسا فى الحالين هو « فرنسة » الوطنيين ، ومحو لغتهم وتقاليدهم الأصلية ، وجعلهم يشعرون أنهم فرنسيون ، تابعون للوطن الأم ( فرنسا ) حتى يسهل لها استغلالهم ، واستنزاف ثرواتهم ، واضعاف قوميتهم اسوة بما كانت ــ ولا تزال ــ تتبعه البرتغال فى مستعمراتها . تلك السياسة التى قام الدليل القاطع على افلاسها .

لذلك كانت فرنسا تعارض دائما وبشدة التقدم السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى يطالب به الأفريقيون على أساس أن هذا التقدم سيعمل أن عاجلا أو آجلا على انفصال المستعمرات عن الكيان الفرنسى .

وبالرغم من اختفاء الحاجز اللونى فى المستعمرات الفرنسية فان المساواة الحقيقية فى مستوى المعيشة ، والتعليم ، والحقوق السياسية ، والأجور والمستوى الاقتصادى غير موجودة بالمرة .

### التمييز العنصرى فى الجزائر

كانت الحالة الاقتصادية فى الجزائر قبل الحملة الفرنسية عام ١٨٣٠ مزدهرة ، اذ كانت تحتل مكانة مرموقة فى حوض البحر الأبيض المتوسط بصفة خاصة ، وفى المحيط الدولى بصفة عامة لخصوبة أرضها ، وتنوع محاصيلها ، الى جانب جهازها الصناعى الضخم من معاصر للزيوت، ومصانع للنسيج والعطور ، ومعادنها الوفيرة كالنحاس والملح والمرمر ، وتجارتها البحرية الواسعة حتى اعتبر البحر الأبيض المتوسط « بحيرة

جزائرية » وبالجملة كانت الموارد الاقتصادية فى الجزائر تفيض عن حاجة السكان ، وتعود عليهم بالرخاء والسعة .

وكان الجزائريون يحرصون على بقاء الأرض فى أيديهم فيقفونها على اولادهم وذراريهم . ومن ثمة انتشر نظام الأوقاف . والى جانب الوقف كان فى الجزائر نظام آخر من الملكية يسمى « نظام العشور » .

والى جانب هذين النظامين كان نظام الملكية الفردية قائما .

وتنص المادة الخامسة من اتفاقية التسليم التىوقعها الجنرال بورمون وداى الجزائر على احترام الملكية العقارية . غير أن القائد لم يلبث أن نقض العهد كما هو الشأن فى كل الاتفاقيات التى تعقد بين القوى والضعيف .

وقد بدأت عملية طرد أصحاب الأراضى الشرعيين منها غداة توقيع الاتفاقية . وكان اول اجراء قام به القائد العام أن وقع مرسوما يقضى بمصادرة املاك الأتراك الجزائريين . ثم أصدر مرسوما آخر بالاستيلاء على الأراضى الموقوفة على المساجد والخيرات .

وقد حوت محاضر اللجنة الملكية التى أوفدت الى الجزائر عام ١٨٣٣ وصفا دقيقا للعمليات الوحشية ، والتفرقة العنصرية التى قامت بها فرنسا ، نقتطف منه النبذة القصيرة التالية :

« بين يوم وليلة أصبحت مدينة الجزائر مسرحا للصفقات المريبة والغش والتدليس . فما كان على الانسان ، لكى يصبح مالكا ، الا أن يشى بأخيه ويلصق به تهمة معارضة الاحتلال فيصبح فى اليوم التالى مالكا لأرضه بقوة الجيش الفرنسى ! فهل ذهبنا الى هذه البلاد لتوطيد دعائم الحضارة ؟ أم لاهدار الحقوق ؟ ومن عساهم أن يكونوا هؤلاء المستوطنون الفرنسيون ؟ أليسوا دخلاء على أهل البلاد ؟ .. انهم لا يفلحون الأرض ، ولا يزرعون ، ولا يجنون ثمرا ، ولا يحترفون صناعة. ومع ذلك منحتهم سلطات الاحتلال سند الملكية لأراض لم يروها بأعينهم، فأصبحوا أصحابها وسادتها . هل ذهب شبابنا الى الجزائر ليحموا طغمة من الأشرار سارت فى أعقاب الجيش لتنعم بالغنائم والأسلاب ؟ » .

ثم توالت بعد ذلك المراسيم التى تلغى حقوق مئات الألوف من الملاك بجرة قلم . فصدر مرسوم فى أول مارس عام ١٨٣٣ يقضى بنزع ملكية كل أرض لم يقدم صاحبها مستندات ملكيته لها خلال فترة معينة

قصيرة . ولما كان نظام الملكية من قبل قائما على أساس التوارث لم تكن ثمة مستندات ، وبالتالى عجز الكثير من اثبات ملكيتهم ، فنزعت بذلك ملكية مليونى هكتار .

ثم كان عهد الامبراطورية الثانية التى أوفدت حكومتها لجنة الى الجزائر لتنظيم عمليات السطو على أملاك الجزائريين ، فقررت هذه اللجنة ــ فيما قررت ــ الا يبقى لصاحب الأرض من أرضه الا الجزء المزروع منها . كما اعتبرت من أراضى العشور كل قطعة لم يكن صاحبها مالكا لها ثلاثين سنة على الأقل .

وقد توالت عمليات السطو على أراضى الأوقاف ، والعشور ، والأراضى المملوكة . ثم صدرت بعد ذلك قوانين لحماية « الأمر الواقع » .

وقد ذكر ديمونتيس (١) أن توزيع الأراضى فى الجزائر حسب احصاء عام ١٩١٧ كان على الوجه التالى : ــ

| | |
|---|---|
| أملاك الدولة | بنسبة ٤٤ر٥ |
| أملاك الوطنيين | بنسبة ٤٤ر٤ |
| أملاك الأوروبيين | بنسبة ١١ر١ |

ثم تغيرت النسبة بعد ذلك لصالح الأوروبيين وللسلطات الاستعمارية فى البلاد على حساب الوطنيين .

هذا الى أن الاستعمار كان يحابى الأوروبيين على حساب أهل البلاد فيمدهم بالمعونة الفنية ، وبالآلات الزراعية ، والمبيدات الحشرية مما يزيد فى انتاج أراضيهم . وقد بدأ وصول المستوطنين الفرنسيين فى عام ١٨٣٢ من اللاجئين الفارين من منطقة الراين الذين أقاموا فى معسكرات الجيش ، ومنحوا قطعا من الأراضى الجيدة . وتشير آخر الاحصاءات التى قام بها الفرنسيون قبل الثورة ، أى عام ١٩٥٤ ، الى أن عدد السكان فى البلاد كان ٠٠٠ر٥٢٨ر٩ منهم ٠٠٠ر٤٨٦ر٨ من الجزائريين ، والباقون من المستوطنين الأوروبيين . ورغم ذلك فان هذه الأقلية البيضاء تمتلك ٠٠٠ر٨٧٥ر٦ دونم من الأراضى الصالحة للزراعة التى تبلغ مساحتها ٠٠٠ر٠٠٠ر١٥ دونم ، وهى لا تتعدى مساحتها ١ر٣٪ من مجموع مساحة البلاد . وكانت فرنسا تعمل دائما على زيادة عدد الأوروبيين

---

(١) فى مؤلفه . اقتصاديات الجزائر .

هناك بتشجيع هجرة المغامرين والهاربين من العدالة حتى تقوى الجالية الأجنبية وتزداد منعة ورخاء بينما يزداد الوطنيون فقرا بزيادة التناسل.

وأن الطبقة الوسطى هى شبه معدومة عند الجزائريين ، وأن كانت موجودة بين المستوطنين الفرنسيين فلقد كان معدل دخل الفرد فى البلاد نحو عشرين جنيها فى السنة بسبب أن العامل الجزائرى يتقاضى خمس ما يتقاضاه العامل الفرنسى اذا أخذنا فى الاعتبار أن ٧٥٪ من الجزائريين يعيشون على القطاع الزراعى بينما يعيش الباقون على الأعمال اليومية الأخرى كالتجارة ، والقوة المسلحة ، والتعدين ، والصناعات اليدوية .

وبالرغم من اختفاء سياسة الحاجز اللونى ، أو التمييز العنصرى ، فى الجزائر من الناحية النظرية فانها كانت تمارس من الناحية العملية والرسمية على أوسع نطاق ، اذ كان اختلاط الوطنيين بالأوروبيين نادرا.

فهذه المشكلة — مشكلة التمييز العنصرى فى أفريقيا — ليست فى الواقع قاصرة على جمهورية جنوب أفريقيا وانما هى أكثر انتشارا ، واشد تعقيدا . وهى لم ترتبط بجمهورية جنوب أفريقيا الا لأنها اتخذت هناك صبغة رسمية ، وواجهت مقاومة دولية . وكذلك لوقوف جنوب أفريقيا موقف التحدى من الرأى العام العالمى . كما انها ليست قاصرة على التمييز بين البيض والسود فى أفريقيا ، بل بين الأوروبيين وغير الأوروبيين عامة سواء أكانوا بيضا أو سمرا . ولهذا سميت « سياسة عنصرية » .

والواقع أن سياسة التمييز العنصرى تمارس فى أفريقيا حيثما وجد الرجل الأوروبى ، واحتل مركزا متميزا فى المجتمع كما هو الحال فى كثير من بلدان شرق ووسط القارة قبل أن تستقل معظم دول هاتين المنطقتين. بل ان هذه السياسة لا تزال قائمة حتى الآن فى روديسيا الجنوبية ، والمستعمرات البرتغالية .

وتظهر التفرقة العنصرية فى أفريقية بين الأوروبيين — ولو كانوا من حثالة القوم — وغير الأوروبيين — ولو كانوا سادة فى بلادهم — فى كل مواقف الحياة . كما أنها تنعكس فى كل النظم الاجتماعية ، وفى الحقوق والواجبات، وانماط السلوك . الا أنها تظهر بأقسى وأبشع صورها فى القيود الكثيرة التى تفرض على أصحاب البلاد خاصة فيما يتعلق بحق العمل، والأجور غير المتساوية والفرص غير المتكافئة فى العمل الواحد ، مما يترتب

عليه فى آخر الأمر تعيين مستوى اقتصادى محدد بدقة يكفل فى النهاية الفوارق الاقتصادية والاجتماعية القائمة بين الأوربيين من ناحية والسلالات الأخرى من ناحية ثانية .

فالاتجاه السائد فى كل المناطق التى تمارس فيها التفرقة العنصرية ـ ومنها الجزائر ـ هو ربط الأهالى الوطنيين بقدر الامكان ، وبكل الوسائل ، بالزراعة بوجه عام ، والزراعة البدائية بوجه خاص سواء أكانوا ملاكا ، أو أجراء ، أو معدمين .

ويقتضى ذلك حصر الزراعة المتطورة ـ كما سلف ـ وكذلك الصناعة النامية فى أيدى الأوروبيين وحدهم ، والاعتماد على سواعد الوطنيين كعمال غير فنيين حتى فى الأعمال التى لا تحتاج الى مهارات خاصة .

ومن المعروف أن فرنسا عملت خلال احتلالها الطويل للجزائر على محو لغتها وعروبتها أى على فرنستها بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى . بل عمدت الى سياسة الادماج الكلى منذ قيام الجمهورية الثالثة عام ١٨٧٠ . أى حوالى ٩٦ عاما . واذا تتبعنا التطور الثقافى خلال هذه الفترة للاحظنا أن البلاد قد تعاقبت عليها ثلاثة أجيال . الجيل الأول عاش بمعزل عن المستعمرين فاحتفظ بشخصيته ولغته العربية التقليدية . والجيل الثانى تأثر بوجود المستعمرين ، واختلط بهم ، ودرس لغتهم للحاجة اليها عند التعامل معهم دون أن يفقد شخصيته وروحه العربية . أما الجيل الثالث الذى ولد منذ أوائل هذا القرن فلم يكن أمامه سوى المدارس الحكومية التى تسير على نفس البرامج المتبعة فى فرنسا ، لا من حيث استخدام اللغة الفرنسية فحسب ، بل فى تدريس المواد القومية الفرنسية أيضا . وهذا الجيل الذى يكون اليوم معظم الشعب الجزائرى كادت تنقطع صلته بالثقافة العربية ، بل ان اللغة العربية اعتبرت قبل الاستقلال لغة أجنبية فى مدارس الجزائر كالأسبانية والانجليزية .

ولهذه المشكلة وجه آخر . ففى سنة حصول الجزائر على الاستقلال لم يكن هناك من المدارس ما يستوعب أكثر من ربع عدد الأطفال الذين فى سن التعليم . وهذا مما يزيد المشكلة تعقيدا .

وان الاتفاق الثقافى المعقود فى ايفيان عام ١٩٦٢ يعطى للثقافة الفرنسية امتيازات هائلة فى الجزائر . فالمادة الرابعة مثلا تنص على أن تنظيم الكليات بجامعة الجزائر يجب أن يراعى نفس توزيع الأقسام المتبع فى فرنسا . ومغزى ذلك الاستمرار فى الاعتماد على الأساتذة الفرنسيين .

ويتبين من ميزانية القطر الجزائرى أن مجموع ما يدفعه الأوروبيون من ضرائب مباشرة ــ مع أن عددهم لا يتجاوز المليون ــ أكثر مما يدفعه الجزائريون الذين يبلغ عددهم الآن حوالى ١١ مليون نسمة . الأمر الذى يدل على أن دخل القلة الأوروبية يزيد على دخل أهل البلاد جميعا .

ومن جهة أخرى يتبين أن الضرائب غير المباشرة التى يدفعها الوطنيون بحكم أغلبيتهم الساحقة أكثر من الضرائب المباشرة التى يدفع معظمها الأوروبيون كما سلف .

يضاف الى كل ذلك أن التجارة ، والصناعة ، والبنوك ، والمواصلات كلها فى أيدى الفرنسيين خاصة ، والأوروبيين عامة . أما الجزائريون فقد كانوا يكدحون ، ويشقون لكى يشتروا المنتجات الفرنسية بأغلى الأثمـــان .

ولقد خلق الاستعمار تمييزا عنصريا أو تفرقة عنصرية من نوع آخر لكى يقضى على وحدة البلاد . فقد زعم أن الأمة الجزائرية تتكون من عدة عناصر لا من عنصر واحد ، وهى : العنصر البربرى ، والعنصر الميزابى ، والعنصر الشاوى ، ثم العناصر العربية والتركية والزنجية . وهو زعم باطل لا يقوم عليه دليل ، وانما يفترى المستعمر الغاصب هذه الفــرية الخبيثة لغرض واحد هو « فرق تسد » . ذلك أن الاسلام قد وحد بين اهل الجزائر . وطبعهم على لسان واحد ، ودين واحد ، وقومية واحدة. وقد ازدادوا تماسكا ووحدة بفضل مظالم الاستعمار ، وبفضل الأحزاب الوطنية التى كانت تعمل على توثيق أسباب الأخوة القومية بين أبنــاء البلاد ، فانمحت كل أسباب الخصومات والتناحر القبلى .

وفى الوقت الذى كانت تشدد فيه سلطات الاســتعمار النكير على المسلمين بكل الوسائل لتعرقل نموهم الاقتصادى والاجتماعى ، واقامة شعائرهم كانت تشجع بكل ما أوتيت من قوة أولئك المهاجرين المغامرين من حثالة القوم . وقد صرح الكردينال لافيجرى عام ١٨٦٧ بقوله « يجب أن نجعل من الأمة الجزائرية مهدا لأمة مسيحية كريمــة ، وأن نربط مصير أفريقيا بحياة الشعوب المسيحية .. تلك هى رسالتنا » .

وقد ابتدعت العقلية الاستعمارية ما أسمته « نظام الاتحاد الفرنسى » أسوة بنظـــام « الممتلكات المستقلة » أو « الكومونولث » الذى أنشأته بريطانيـــا .

ومن الواضح أن الاتحاد الفرنسى المزعوم يضم شعوبا واقطارا متنافرة . فلا صلة هناك بين شعوب الهند الصينية والشعب الفرنسى . كما انه ليست هناك أواصر تربط شعوب شمال افريقيا بالشعب الفرنسى .

ولا أدل على سوء نية الاستعمار مما كتبه فى هذا الشأن ليون بوتبيآن عن مؤتمر برازافيل الذى عقد عام ١٩٤٤ اوضع نواة ذلك الاتحاد المزيف ، اذ قال « ان المؤتمر قد نبذ كل فكرة تدعو الى الحكم الذاتى ، كما نبذ كل ما من شأنه أن يساعد على التطور والتقدم خارج نطاق الكتلة الفرنسية . أى الامبراطورية الفرنسية ، والفكرة الأساسية فى هذا النظام الجديد هى اخضاع الشعوب لفرنسا ، وادماج العناصر الأهلية فى العنصر الفرنسى » .

وعلى هذه الأسس العنصرية طالب المستوطنون الأوروبيون بامتيازات خرافية ، وعارضوا بشدة مبدأ المساواة مع العرب . كما عارضوا منح هؤلاء أية حقوق مدنية رغم ادعاء فرنسا المتكرر أن الجزائر أرض فرنسية!

وفى سنة ١٩٣٦ قدم ٢٥٠٠ جزائرى طلبات للحصول على الحقوق المدنية ، ولكن البرلمان الفرنسى رفض هذا الطلب بشدة متناهية على أساس أن السياسة العنصرية هى جزء من السياسة الفرنسية العليا .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر بدأ يصل الى الجزائر من المهاجرين الأوروبيين — الذين شجعتهم فرنسا — حوالى ٤٦٠٠٠ ثم ١٤٠ ألفا بعد فترة وجيزة .

كما ادت الأزمات المتتابعة فى فرنسا الى هجرة غير المسلمين من الأسبان ، والايطاليين واليونانيين ، والقبارصة ، والألمان ، والمارونيين ، والايرلنديين ، والهنود ، والصينيين .. الخ . وأعلنت فرنسا بأنها ترحب بالمهاجرين من جميع الجنسيات فى الجزائر بشرط ألا يكونوا مسلمين .

وبعد أن هزمت فرنسا فى حربها مع المانيا فى الحرب العظمى الثانية عملت على زيادة تشجيع الفرنسيين على الهجرة الى الجزائر . وكانت خطة تهجير ، واستيطان الفرنسيين فى الجزائر خطة مدروسة بعناية . فقد كانت القرى تشيد ، ومشروعات الرى تقام قبل أن يصل اليها المهاجرون الفرنسيون . وقد بلغ عدد هذه القرى الجديدة فى الجزائر حوالى ٨٠٠ قرية يقطنها حوالى ٣٠٠ الف .

وقد ترتب على تلك السياسة العنصرية خلخلة استيطانية من ثلاث شـــعب :

الأولى ــ هجرة الجزائريين من الريف الى المدن قدر عــددهم بحوالى مليون جزائرى نتيجة طردهــم من أراضيهم ، وغلق أبواب الرزق فى وجوههم ، أو محاولة استعبادهم فى المزارع الأوروبية بأقل الاجور مع انعدام الرعاية الصحية والاجتماعية .

الثانية ــ احلال الأوروبيين عامة ــ والفرنسيين خاصة ــ محلهم .

الثالثة ــ هجرة الكثير من الجزائريين من الجــزائر ذاتها الى فرنسا . وقد قدر عددهم ٦٠٠ ألف جزائرى يعملون فى المنـــاجم ، والموانى ، والسكك الحديدية .

# الباب الثالث

# غروب العنصرية

الفصل الأول ـ ثورة الشعوب على التمييز العنصرى .

الفصل الثانى ـ المجهودات الدولية لمكافحة التمييز العنصرى .

## الفصل
## الأول : ثورة الشعوب على التفرقة العنصرية

بعد الحرب العالمية الثانية شعر الرجل الأبيض الذى يعيش فى أفريقية ان الأرض تميد تحت قدميه . واصبح السؤال الذى يتردد على لسان كل رجل أبيض فى أفريقية سواء أكان حاكما أو مجرد مواطن عادى هو :

ماذا وراء هذا الاحساس القوى الدافق بالقومية بين الأفريقيين ؟

من القصور أن نقول ان الظلم ، والتفرقة العنصرية ، هما وحدهما السبب فى ذلك .

فالقومية الأفريقية — ككل الحركات التحريرية — ليست الا فروعا من شجرة ، تمتد جذورها فى أغوار التاريخ البعيد . وبغير هذا التفسير تصبح تلك القومية انتفاضة مفاجئة ، لا تلبث أن تخمد . ذلك أن الشواهد التاريخية تؤكد ان كل حركة تحريرية تسبقها دائما أفكار تمهد لها ، وتمدها بالقوة وتساعدها على الاستمرار . انها متصلة كالنهر الذى ينحدر من منبعه الى مصبه ، ولا يرى الرائى الا جزءا ضئيلا منه . وليس من شك فى أن الحرب العالمية الثانية ، لها أثر كبير فى اتساع حركة البعث التى امتد نطاقها فى كل شبر من إفريقية . فقد أتاحت هذه الحرب فرصة مواتية للأفريقيين لأن يتصلوا بمختلف شعوب العالم فى ميادين القتال . لقد كانت الشرارة التى فجرت البارود الكامن فى صدور الشعوب المغلوبة على أمرها . لقد رأوا الأوربيين الذين كانوا يسمون انفسهم رسل الحضارة والسلام ، يذبح بعضهم بعضا فى قسوة ووحشية . وأدت الحرب الى تفاعل فكرى خطير .. وملأت أذهان الافريقيين بأفكار جديدة ثورية .. كان الحلفاء يكررون لشعوب المستعمرات أنه ليس من العدالة أن تسيطر ألمانيا على غيرها من الشعوب ، ويطلبون منهم أن يحاربوا ، ويموتوا ، دفاعا عن حرية أوطانهم ، حتى لا يعيشوا تحت ظل ديكتاتورية هتلر وطغيانه . وهكذا مات من مات منهم وهو

يهتف بالحرية . وطالب من عاش منهم بهذه الحـــرية التى دفع ثمنها الملايين من شهدائهم .

وتصور لنا القصة التالية تصويرا واقعيا هذه الحقيقة التاريخية ، وهى محاورة جرت فى ميدان القتال بين ضابط بريطانى وزميله الضابط الأفريقى :

الضابط البريطانى : الموت لهتلر .. ليسقط هذا الدكتاتور .
الضابط الأفريقى : وما الاثم الذى ارتكبه هتلر حتى تطلب له الموت؟
الضابط البريطانى : انه يريد أن يحكم العالم كله ، بما فيه بلادك وبلادى !
الضابط الأفريقى : وما هو وجه الغرابة فى ذلك ؟
الضابط البريطانى : انه ليس من العدل يا صديقى أن تفـرض دولة سيطرتها على دولة أخرى ، فان كل دولة يجب أن تحكم نفسها بنفسها ، لأن الدولة التى تقبل هذه السيطرة لا تستحق الحرية والحيـــاة ، والكرامة ! (١) .

وهكذا سمع الافريقى أن العدل يقضى بأن الألمانى يحكم ألمانيا، وأن الايطالى يحكم ايطاليا ، وأن الانجليزى أو الفرنسى أو الأمريكى أو البلجيكى وغيرهم يجب أن يحكم كل منهم بلاده وحدها .

ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها عاد الجندى الأفريقى الى بلاده بهذه الأفكار الجديدة ، وبدأ يمارسها ، ويطبقها . لـماذا يحكمه الاوربيون ؟ يجب أن يرحلوا وان تستقل أفريقية . ولذلك قامت الحركات الوطنية العنيفة فى معظم أجزاء أفريقية بهذه الروح التى غذتها زعامات وطنية وعت تاريخ بلادها ، وأمجادها .

ومما زاد نمو هذه اليقظة استقلال دول عديدة فى انحاء مختلفـة من العالم .. ففى سنة ١٩٤٦ حصلت الفلبين على اســـــتقلالها من الولايات المتحدة . كما استقلت الهند وباكستان عام ١٩٤٧ ، وبورما ، وسيلان سنة ١٩٤٨ . وفى الشرق العربى استقلت لبنان وسوريا . وفى سنة ١٩٥٠ استقلت أندونيسيا . وقال الدكتور نكروما عام ١٩٤٩ :

---

(١) القومية الافريقيـــة . ندا بانتجى سيتهول . ترجمة عبد الواحد ابراهيم الامبابى . ص ١١ .

« ان حرية ساحل الذهب ( غانا ) ليست الا ينبوع الأمـــانى الذى تستطيع ان تغترف منه كل الشعوب الأفريقية التى لا تزال تعيش تحت الحكم الأجنبى » .

ولكى نؤكد أن القومية الأفريقية لا تعادى الرجل الأبيض لمجرد أنه أبيض بل تعادى سيطرته ، وسياسته العنصرية فحسب نذكر ما قاله الدكتور نكروما نفسه :

« أننى لا أؤيد فكرة العنصرية . ولا أحب التمييز العنصرى بين جنس وآخر ، أو حتى بين فرد وآخر . ولكننى أعارض معارضة شديدة فكرة الاستعمار والسيطرة فى أى شكل من أشكالهما »(١) .

كما تحدث أحد رجال السياسة فى روديسيا فقال :

« اننا لا نقف ضد الرجل الأبيض .. ولكننا نقف ضـــد سياسة اخضاع الأفريقيين للمصالح الأوربية »(٢) .

وفى سنة ١٩٥٢ قامت ثورة مصر الكبرى التى هزت افريقيا كلهـــا هزة عنيفة . فقد قال الرئيس جمـــال عبد الناصر فى كتابه « فلسفة الثورة » ما يلى :

« لن نستطيع بحال من الأحوال ــ حتى لو أردنا أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق أفريقية بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الأفريقيين . لا نستطيع ذلك لسبب هام وبديهى ، وهو أننا فى أفريقية . ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع الينا نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى . ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء . والمؤكد أن أفريقية الآن مسرح لفوران عجيب مثير ، وأن الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوربية يحاول الآن اعادة تقسيم خريطته . ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذى يجرى فى أفريقية ، ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعنينا » .

وكان استقلال الدول الأفريقية الأخرى بعد ذلك : الحبشة ، وليبيا وتونس ، والمغرب ، والسودان ، وغانا ، وغينيا .. وغيرها . كان ذلك

(١) المصدر السابق . ص ٢١ .
(٢) المصدر السابق . ص ٢١ .

دافعا قويا للدول الأفريقية الأخرى الى أن تكافح ، وتنتزع استقلالها بالعرق ، والدموع والدماء ! .

وفى جنوب افريقية ـ التى قرر الحزب الوطنى الحاكم فيها أنه يصر على سيطرة البيض على السود ـ ظهرت روح جديدة تهدف الى المطالبة بالحرية واستقلال الشعوب المغلوبة على أمرها . وفى يوليو عام ١٩٥٥ اجتمع مؤتمر من الشعب ، ضم حوالى ٣٠٠٠ شخص ، وأصدر وثيقة الحرية التالية :

« نحن شعب جنوب أفريقية نعلن للشعب الأفريقى كله ، وللعالم أجمع ان جنوب أفريقية وطن لكل من يعيش فيه . وليست هنـاك حكومة تستطيع أن تدعى لنفسها الحق فى السلطة دون أن تعتمد على ارادة الشعب . أن شعبنا قد حرم من حقه الطبيعى فى بلاده . كما حرم من الحرية ، والأمان بواسطة حكومة قامت على الظلم وعدم احترام مبدأ المساواة . وسيظل شعبنا محروما من تحقيق أى تقدم أو نجاح أو حرية حتى يستطيع أن يعيش فى أخوة يتمتع فى ظلها بحقه فى المساواة وتكافؤ الفرص . ان الدولة الديمقراطية ، التى تقوم على أساس من ارادة كل الشعوب ، هى التى تستطيع أن تضمن للجميع حقهم فى بلادهم دون تمييز بسبب اللون ، أو العنصر أو الجنس أو العقيدة . ولذا فاننا نحن شعب جنوب أفريقية نوافق على وثيقة الحرية هذه ، ولقد تعهدنا ان تكافح دون أن ندخر وسعا من جهد أو شجاعـة حتى نحقق مجتمعا ديمقراطيا سليما » .

وقال المؤرخ الأمريكى الزنجى جورج جى :

« ان الحرب العالمية الأخيرة ، لم تعلم الشعوب المحتلة روح الاستقلال ، لأن هذه الروح كانت موجودة فعلا . فقد أحست هذه الشعوب منذ زمن طويل بظلم التبعية المريرة ، والتمييز الشائن . ولكن لم تكن لديهـم وسائل الاعلان عما يحسون به ويعيشون فيه ، الى أن جاءت هذه الحرب فأبرزت تلك الصورة القاتمة بشكل أكثر وضوحا وعنفا وشدة ، ومنحتهم فرصة التعبير ، وأعطتهم وسيلة هذا التعبير .

« لقد حطمت الحـرب الحواجز العالية التى كانت تتستر خلفها السيطرة الأوربية . كما كانت هذه الحرب جهازا فعالا عجل بالقضاء على

السيطرة النازية الدولية . وكان لها فى نفس الوقت أثر كبير فى دق ناقوس الموت للسيطرة الأوربية »(١) .

* * *

والآن ، يجب أن نسأل : ما هى العلاقة بين السياسة العنصرية وبين ظهور القومية الأفريقية أخيرا ؟.

وان الأجابة على هذا السؤال تكاد تكون معادلة رياضية :

١ ــ ان السياسة العنصرية خلقت طائفتين فى أفريقية : طائفة كانت تملك الأرض منذ قديم الزمن بما تحويه من أمجاد ، وذكريات ، وثروات ، وتقاليد . وأخرى وافدة تريد أن تنتزع من يدها هذا كله بالحيلة والغش والخديعة ... ثم بالحديد والنار .

٢ ــ سيطرة الوافدين الغاصبين على الأرض وكنوزها ... وأصحابها ... وطردهم لأصحابها ، وتسخيرهم ، وبيعهم فى سوق النخاسة . كل ذلك جعل الأولين حاكمين مالكين لكل شيء ... والأخيرين محكومين لا يملكون شيئا .

٣ ــ أن المظلوم لا يسكت على الضيم وان بدا أنه مستسلم للظلم ، راض بالواقع . فهو يجتر آلامه فى الخفاء ، ويعمل على التخلص والانتقام فى الظلام ... الى أن يحين موعد الفجر !

٤ ــ ان الحاكم الظالم لا يغفل عن فريسته أيضا ... وان بدا أنه غارق فى السلطة والترف ، والنعيم ... فله خبرته ، وأساليبه، وادارته ، وأسلحته المادية والمعنوية .

٥ ــ ومن الصراع يتولد الاحتكاك ... ومن الاحتكاك تتولد الشرارات الأولى التى تندلع ثم تخبو ... ثم تندلع مرة أخرى لأن النفوس لا تقبل كما تقدم الاستسلام للظلم ، والمهانة ولو دفعت حياتها ثمنا للحرية ، والكرامة . وخاصة اذا كان لها تاريخ يذكى روحها ، وزعامات تبصرها ، وتهديها، وتوجهها وتدافع عن حقوقها المهضومة ، وكرامتها المهددة .

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٢ .

وكما قال فيكتور هوجو :

« أوقف الدم فى أحد الشرايين .. يعقب ذلك المرض .

أوقف الماء فى النهر ... يحدث الفيضان .

أوقف طريق المستقبل ... تنشب الثورة ! » .

أو كما يقول فردريك انجلز :

« عندما يجبر الأنسان على أن يعيش كحيوان فهو اما أن يثـــور واما أن يتحول الى حيوان فعلاً » .

أو كما يقول الأثيوبيون :

« اذا اتحد الناس تغلبوا على الأسد ... واذا تفرقوا أفترسهم » .

والانسان هو الانسان دائما .. لا تقف جهوده عند حد ، ولا تصمد امام عزيمته أية سدود . كما أن الكبت يولد الانفجار .

من أجل هذا اشتعلت الثورة فى كل المستعمرات الأفريقية ضـد الاستعمار والسياسة العنصرية .

* * *

وقبل أن نبين معـــالم طريق الثورة فى أفريقية ضـد السياسة الاستعمارية بوجه عام ، والسياسة العنصرية بوجه خاص يجب ألا تفوتنا حقيقة هامة . فكما أن الثوار – فى كل بلد – يتجمعون ليدافعوا عن حقوقهم وكيانهم ومصيرهم .. بل وآدميتهم هناك جبهة أخرى تتألف من جميع المستعمرين ليصدوا هذا الطوفان من التمرد كما يسمونه ، وليدافعوا عن مصالحهم المختلفة ... كل ذلك تبعا لمبدأ واحد .. هو أن الحرية لا تتجزأ ، كما أن المصالح الاستعمارية لا تتجزأ .

فالولايات المتحدة تقوم بتوريد الجزء الأكبر من العتاد الحربى الذى يستعمل ضد الثوار الأفريقيين ... كما تدفع الجزء الأكبر من نفقات اخماد الحروب الأهلية التى يشنها هؤلاء الثوار . فأمريكا هى القـوة الرئيسية التى تساند تلك الحروب الضـــارية ، غير المتكافئة رغم كل ما تدعيه من رغبتها فى حماية السلام والحفاظ على الحرية ، وتشجيع الحركات الوطنية .

قالت صحيفة « النيويورك تايمز » فى أحـد اعدادها ان الولايات المتحدة منحت البرتغال عتادا حربيا قيمته ٣٠٠ مليون دولار ومنحتها أيضا ٩٠ مليون دولار أخـرى لمساعدتها فى التنميـة الاقتصادية التى

انهـــارت بسبب ما تتكلفه من نفقات باهظة فى محـــاربة الثـــوار فى مستعمراتها !. كما قدمت « شركة الماس الأنجلو ــ أمريكية » فى انجولا الى الحكومة البرتغالية قرضا كبيرا للغرض نفسه . فضلا عما تسلمته الحكومة من بنك التصدير والاستيراد والبنوك الإخرى فى الولايات المتحدة من قروض بلغت ٧٥ مليون دولار (١) .

والى جانب تقديم الأسلحة والذخائر والقروض السخية المختلفة تمدها الولايات المتحدة عن طريق شبكة مخابراتها الواسعة ــ بالمعلومات الهامة عن تحركات الثوار الأفريقيين !.

ولبريطانيا دور مماثل ضد كل الحركات التحررية فى جميع أرجاء افريقية .

من ذلك أنه فى مايو ١٩٦١ زار سير دوجلاس هيوم ، رئيس الوزراء السابق وكان وقتذاك وزيرا للخارجية ، البرتغال ، وتم الاتفاق فى تلك الزيارة مع حكومة سالازار على تزويدها بشحنات كبيرة من الأسلحة . كما يقوم الضباط البريطانيون بتدريب الضباط البرتغاليين على أساليب حرب العصابات التى تعلموها فى كينيا وقبرص .

وكذلك فرنسا التى تقـــوم بامـــداد البرتغال بزوارق الطـــوربيد والسيارات المصفحة والطيارات وبالخبرة الفنية فى حرب العصابات .

وفى منتصف مايو ١٩٦١ قام ايرهارد ، مستشار ألمانيا الغربية الحالى ، وكان ــ وقتذاك وزيرا لاقتصادها ، بزيارة البرتغال . وبعـــد عودته أدلى بتصريح فى ميونخ قال فيه ان ألمانيا تقف تماما الى جانب حكومة البرتغال ، وأكد أنها تستحق كل ما يمكن اعطاؤه لها من قروض. كما يحصل الجيش البرتغالى على أسلحة ثمينة من المصانع الألمانية عن طريق هذه المساعدات الحكومية ، فضلا عن قيام المرتزقة الألمان بتدريب البرتغاليين على حروب العصابات .

وقد نشرت الصحف المصرية فى ٤ مايو ١٩٦٥ أن « فون هاسل » ، وزير دفاع ألمانيا الغـــربية ، قد زار لشبونة ، واجـــرى مع سالازار محادثات بشأن تزويد البرتغال بالطائرات النفاثة ، وتدريب طياريها

---

(١) الاستعمار البرتغالى فى افريقيـــة . تاليف فيكتور سيذنكو . سلسلة قضايا سياسية . ص ٤٦ .

على قيادتها لتتمكن البرتغال من استعمالها ضد الثوار الأفريقيين فى مستعمراتها .

ولانزال نذكر هدية « صفقة الأسلحة » التى منحتها ألمانيا الغربية سرا لاسرائيل ، مساهمة فى حربها ضد العرب .

تلك الهدية التى فضحها الرئيس جمال عبد الناصر اذ أدت الى قرار شبه اجماعى من الدول العربية بقطع علاقاتها مع ألمانيا الغربية . ولايزال الموقف كما هو حتى الآن رغم كل الجهود التى تبذلها ألمانيا لأعادة تلك العلاقات ، ولا تزال آثارها البعيدة تشكل الكثير من الحوادث فى العالم العربى والعالم الغربى .

ويحصل المستعمرون البرتغاليون على مساعدات عسكرية وسياسية قوية أيضا من حكومة فرانكو فى أسبانيا . وبمقتضى الاتفاق السرى المعقود فى « مدريد » فى يناير سنة ١٩٦٢ بين أسبانيا والبرتغال تعهد الطرفان بالعمل معا ضد « أية أعمال هدامة » سواء أكان ذلك فى القارة الأوربية أو فى « مقاطعات ما وراء البحار » التى يملكها الطرفان المتعاقدان !

وقد تكون اتحاد استعمارى عنصرى بين حكومات جنوب أفريقية ، للمستوطنين البيض فى روديسيا الجنوبية ، والادارة البرتغالية فى المستعمرات الأفريقية . وقد أنشىء هذا الاتحاد بواسطة الولايات المتحدة، وبريطانيا بقصد انقاذ المستعمرات الأفريقية من « القومية السوداء » كما يسمونها ! . .

ويتلقى سالازار ــ بموجب هذا الاتفاق ــ مساعدات سخية من « فيرفورد » رئيس حكومة جنوب افريقية ، اذ تقوم سلطات جنوب افريقية بتوريد الطعام والسلاح الى وحدات الجيش البرتغالى الذى يحارب الثوار فى انجولا وموزمبيق .

وتقوم الوحدات البرتغالية ، ووحدات من جنوب أفريقية ، وروديسيا الجنوبية بالتدريبات العسكرية المشتركة .

ويهدف الاستعماريون من وراء كل هذه الاتفاقيات ، والمساعدات ، الى حماية الأرباح الطائلة التى يجنونها من أسواق تلك المستعمرات ، أو البلاد المتحررة حديثا ولاتزال تمارس فيها وصمة التفرقة العنصرية . ففى انجولا وحدها أكثر من مائة مؤسسة أمريكية . فضلا عن ان كثيرا

من الشركات البرتغالية فى المستعمرات تدار فى الواقع بواسطة راسماليين أمريكيين وفرنسيين وبريطانيين والمانيين .

كما أن الاحتكارات الأمريكية تسيطر على صناعة البترول فى أنجولا وموزمبيق وغينيا البرتغالية . كما اشترك رأس المال الأمريكى وراس المال البريطانى فى تأسيس الشركة التى احتكرت مناجم الماس فى أنجولا. ويمتد نفوذ تلك الشركة الى ٩٠٪ من أراضى أنجولا .

ويستحوذ رأس المـال البريطانى على شركة السكة الحـديد التى تسيطر على الخط الحديدى بين روديسيا وموزمبيق .

وتملك « شركة جنـوب أفريقية البريطانية » غالبية اسهم شركة موزمبيق التى تدير الصناعات الأساسية فى كثير من المستعمرات والاقاليم الأفريقية .

ويستثمر رأس المال الفـرنسى فى « شركة زامبيزى » التى تمتلك مزارع ضخمة للنخيل والشاى والقطن فى موزمبيق .

كما أن لها مصالح تجارية عديدة فى أنجولا وغينيا . وتمتلك شركة « بورو » اكبر مزارع جوز هند فى العالم .

ويتسلل رأس المال الألمانى أيضا الى المستعمرات والأقاليم الأفريقية، وتحتل مركز القيادة فيه مؤسسة « كروب » . وتقوم الاحتكارات الألمانية بحفر المناجم وبناء الطرق فى أنجولا . ونصف الحديد المستخرج فى تلك المنطقة يشحن الى ألمانيا الغربية .

ولحلف الأطلنطى مصالح عسكرية فى المستعمرات الأفريقية حيث أقيمت قواعد ضخمة لاختبارات القذائف بعيدة المدى ، وتعزيز الجبهة الجنوبية للحلفاء .

ويمكن تقسيم المصالح الاستعمارية فى أفريقية الى ثلاث :

١ ــ مصالح اقتصادية
٢ ــ مصالح عسكرية
٣ ــ مصالح عنصرية

* * *

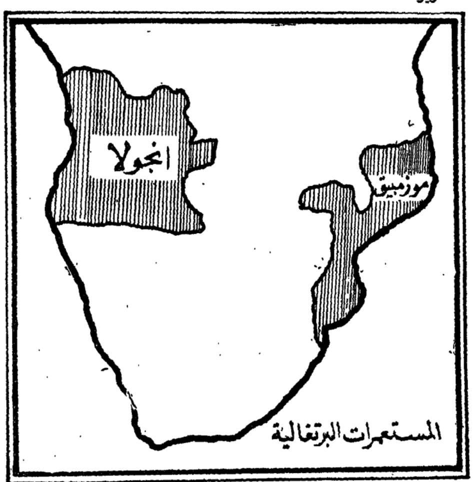
من اجل هذه الحقائق جميعا اشتعلت حروب التحرير ضد أصحاب « نظرية التمييز العنصرى » فى كل المستعمرات الأفريقية . ومنها ما نال

استقلاله السياسي حديثا ، ومنها ما يزال يرزح تحت نير الاستعمار والسياسة العنصرية معا .

ولندرس هذه الحقيقة على الطبيعة :

**الثورة فى المستعمرات البرتغالية :**

اتخذ التمرد على حكم سالازار فى البرتغال نفسها ، وفى مستعمراتها الأفريقية ، فى بادىء الأمر شكلا فريدا . فقد استولى الكابتن هنريك جلفاو فى ٢٢ يناير سنة ١٩٦١ على السفينة البرتغالية الضخمة « سانتا ماريا » التى أطلق عليها « وسيلتى لتخليص البرتغال » . وقد حمل معه على هذه السفينة اثنين وأربعين من الثوار البرتغاليين والأسبان بقصد انزالهم فى جزيرة « فرناندوبو » الأسبانية ، ومن ثم يبحرون الى أنجولا لتحريرها .



ومع ان جلفاو فى نهاية مطافه قد رسا بالسفينة على شاطىء البرازيل، وبذلك رسم القدر لمغامرته المثيرة نهاية غير النهاية المرسومة ، الا انه ــ على أية حال ــ قد لفت أنظار العالم الى تعفن النظام الدكتاتورى الاستعمارى فى البرتغال .

* * *

وفى ٤ فبراير سنة ١٩٦١ استيقظت « لواندا » كبرى مدن انجولا ، فى أخريات الليل على قصف المدافع ، وصليل السيارات المدرعة ، وازيز الطائرات الحربية . وتدافع السكان فى ذعر ليشاهدوا سيارات النقل محملة برجال البوليس ، وسيارات الاسعاف محملة بالقتلى والمصابين بحيث علموا فيما بعد أن هذه الحركة كانت ايذانا ببداية الثورة الوطنية البطولية فى أنجولا من أجل الحرية ، والقضاء على السياسة العنصرية .

وفى تلك الليلة شهد سجن لواندا جموعا من الأفريقيين يتراوح عددهم بين ٣٠٠ر٥٠٠ شخص يهاجمونه ، ويحطمون مبانيه . وفى أثناء سير جنازة سبعة جنود قتلوا فى هذه المعركة نشبت اضطرابات أخرى. واستمر القتال دائرا منذ ذلك الوقت حتى اليوم .

ونقلت وحدات برتغالية بالطائرات الى أنجولا ، وجلبت تعزيزات عن طريق البحر . وسرعان ما أصبح هناك ستون الفا من القوات البرتغالية .

والجأت الحكومة الى تكتيك « الأرض المحترقة » فأهلكوا السكان ، وقتلوا العجائز والأطفال وسمموا الآبار ، واعتقلوا آلاف الوطنيين لمجرد الشبهة ... وأصبحت الشواهد على اقبور الضحايا أشبه ما تكون بعلامات الطريق فى كل أراضى أنجولا .

وكانت الأحياء الأفريقية فى لواندا تشهد الغارات المتتالية التى يشنها جماعات البيض الذين كانوا يذبحون الوطنيين ، وينهبونهم بغير حساب ولا تمييز . أما المسجونون السياسيون فقد حكم عليهم بالأعدام ، وألقيت جثثهم فى مقابر مجهولة .

ومن لواندا اشتعلت الثورة فى كل انحاء انجولا . وزاد من اشتعالها تذمر العمال الأفريقيين فى مزارع البن . وسرعان ما سيطرت القيادة على الموقف ، وزاد عدد الثوار فى الأيام التالية ، وضموا اليهم

الفلاحين والعمال المضطهدين فى مزارع البن ، وأخذوا يشنون الهجمات المنظمة على تلك المزارع الخصبة الى انتزعها منهم البيض من قبل .

وقد زعم سالازار أن حرب العصابات فى أنجولا تساندها وتديرها جهات خارجية ، منها الشيوعية العالمية . ولكن الحقيقة ان هـــذه العصابات ، حتى العناصر الخارجية منها تتألف من أفريقيين أنجوليين بعضهم من الجماعات التى هربت قبل الثورة من الاضطهاد .

ويعتبر « اتحاد شعب انجولا » أكبر التكتلات المعارضة للبرتغال فى المستعمرة . وقد بدىء فى انشائه عام ١٩٥٤ . وهو يضم حوالى ٥٠ الفا من الأعضاء ، ويصدر صحيفة بأربع لغات ، ولا تتحكم فيه النزعات القبلية رغم أنه يتألف من عدة قبائل لأنه يرى نفسه ، قبل كل شىء ، حزبا يعمل على تحرير أنجولا كلها . وقد ناشد الدول الأفريقية كلها أن تمد أنجولا بالعون ، والمساعدة حتى تطرح عن كاهلها الطغيان الذى طـال أمده . وقد أصدر بيانا جاء فيه :

« أن أنجولا سوف تبنى دولة تدير شئون نفسها بنفسها ، وسوف تشكل حكومة ديموقراطية مسئولة وخاصة بها ، لادارة الشئون العامة من اقتصاد وتعليم وصحة ورفع مستوى المعيشة ، ومنع تدخل الأجنبى ، وسوف تبرز أنجولا على المسرح الدولى لتشارك فى شئون العالم ، وفى بناء أفريقية المتحدة تحقيقا للقرارات التى اتخذتها مؤتمرات الشعوب الأفريقية فى أكرا وتونس » (١) .

وهناك أيضا « الحركة الوطنية لتحرير أنجولا » وهى وان كانت أقل عددا ، الا أنها أكثر فاعلية فى ارهاب المستعمرين ، اذ اسـتطاعت قواتها الفدائية فى منطقة « كابندا » أن تحـــرر مســـاحة كبيرة من أرض الوطن .

وفى أكتوبر ١٩٦٤ دارت المعارك بين البرتغاليين وقوات العصـــابات بجوار منطقة « بوكوازو » فقد البرتغاليون فى هذه المعركة وحدها ثمانين قتيلا من بينهم عشرة ضباط ، ودمرت خمس عشرة سيارة نقل ، وتم الاستيلاء على كمية كبيرة من الذخيرة والعتاد .

وهذه المنظمة أيضا لا تستند الى أسس قبلية ، وقد ظـل مقرها فى « كوناكرى » عدة سنوات . ويعتبر رئيسـها « ماريودى أندريد » ، الشاعر وخريج جامعة باريس ، هذه الحركة حزبا أفريقيا وطنيا صادقا .

---

(١) البرتغال فى أفريقية . المصدر السابق . ص ١٩٥ .

وقد نص برنامجها الذى نشر عام ١٩٦٢ على ضرورة المساواة بين الجماعات البشرية المختلفة وحق الحكم الذاتى للأقليات الوطنية ، والغاء القواعد العسكرية ، وتحريم نظام العمل الجبرى ، ووضع حد أدنى للأجور . أما من الناحية الاقتصادية فقد طالبت المنظمة بتوزيع الأراضى الشاسعة على الفلاحين الأفريقيين ، وتحويل أنجولا الى بلد صناعى حديث . وقد انضم الى هذه الحركة « حزب الاستقلال الأفريقى فى غينيا » . كما دعيت الى المشاركة فى جهودها الحركات المماثلة لها فى موزمبيق .

فاذا تحالفت كل هذه القوى ، وانضمت اليها كل المجموعات المناهضة لحكم سالازار فسوف تواجه حكومته معارضة تهز نظامها من أساسه ، وتقتلعه من جذوره . اذ أن مصير البرتغال فى أفريقية سيتحدد فى أنجولا . ولذلك تقدر حكومتها الدلالات السياسية والاستراتيجية لهذه الحرب . وبدا أنها قد عقدت العزم على أن تمضى فى عنادها ، ومقاومتها لهذه الثورة الوطنية بكل ما وسعها من قوة وجبروت فأقال سالازار وزير دفاعه ، وتولى القيادة بنفسه ، وطار آلاف من جنود المظلات الى أنجولا ، وتبعهم جنود البحرية . هذا بالاضافة الى عصابات البيض فى داخل المستعمرة . وكان لجهود هذه العصابات أثرها فى زيادة التوتر العنصرى فى أنجولا . وتنظر الحكومة البرتغالية الى هذه الحرب على أنها حرب ابادة للأفريقيين ، ولا شىء سوى ذلك . ولذا فهى لا تكبح جماح أولئك البيض المناهضين للوطنيين ، كما أمطرت القرى بالقنابل ، وسوت القرى بالأرض ، وأعدمت الذكور وشتت شمل النساء والأطفال فهاموا على وجوههم فى الغابات .

ولا تخجل الحكومة من أن تفعل أى شىء .. بل ان صحفها تملأ أعمدتها بالبيانات الحربية المفعمة بالزهو والخيلاء ، والتى تعلن عدد الآلاف الذين أبادتهم من « الحيوانات السود » . والحرب المسعورة التى يشنها سالازار فى أنجولا تثير الاضطراب فى الجيش البرتغالى . فأعداد متزايدة من الجنود والضباط يهجرون صفوفه ، وينضمون الى العصابات (١) .

وهناك عامل آخر سيكون ذا أهمية لدى الثوار الأنجوليين تماما كالسلاح ، هو الرأى العام العالمى الذى تحول تماما ضد البرتغال . فقد

(١) الاستعمار البرتغالى فى أفريقية . المصدر السابق . ص ٢٨ .

ظل موضوع هذه الحرب الأهلية محور اهتمام الصحف العالمية منذ عام ١٩٦١ حتى الآن . كما ترددت فى محافل الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الأخرى صيحات الاستنكار الصارخة ضد سالازار وهمجيته .

وفى صيف عام ١٩٦١ بدأت وزارة المستعمرات فى اجراء بعض التغييرات فى سياستها فى ادارة المستعمرات . ولكن الزعماء الوطنيين رفضوا انصاف الحلول هذه التى تتبعها الحكومة بين حين وآخر .

وقد ألغت الحكومة عام ١٩٦١ ــ شكليا ــ نظام العمـــل الجبرى فى مزارع القطن ، ولكن وزير المستعمرات أشار فى تقريره الى رفض انشاء المجالس المحلية بحجة أنه « أمر غير مناسب وغير عادل فى كل الظروف » .

وكل هذه التغييرات لا تعتبر اصلاحات بقدر ما هى استمرار فى سياسة الاندماج التى تتبعها الحكومة البرتغالية .

واذا كانت أنجولا قد استعرت فيها نيران الثورة المتحررة فان موزمبيق هى برميل بارود بجوار عود ثقاب مشتعل .

لقد قال أحد الكتاب :

« يمكن أن يقال ــ بعد الوقوف على البؤس والقهر اللذين يعيش فيهما شعب موزمبيق ــ أن جميع البؤساء فى العالم لهم أمل فى الخلاص من عــذاب بؤسهم ما عــدا ضحايا الاستعمار البرتغالى فى أنجـــولا وموزمبيق » .

ولقد خيبت الأيام ظنون هذا الكاتب الساخر فى أنجولا .. ثم فى موزمبيق ....

وكما وحدت الجبهة الاستعمارية فى جنوب أفريقية والمستعمرات البرتغالية وروديسيا الجنوبية قواها وحدت الجبهة الوطنية فى موزمبيق قواها أيضا رغم ستار الصمت الرهيب الذى تسد له وكالات الأنباء على أنباء الحركات التحريرية فيها .

ولقد تكونت فى موزمبيق عــدة منظمات سياسية كانت تعمـل فى الخفاء بسبب تحريم النشاط السياسى ، وهى : الحزب الكاثوليكى الاشتراكى ، والاتحاد التقدمى ، والحركة الافريقية الديمقراطية .

ولكن الأهم من ذلك نشاط جماعات اللاجئين فى البلاد المجـاورة ، والذين يبلغ عــددهم حـوالى نصف مليون شخص يعملون فى زامبيا

وروديسيا الجنوبية وتنزانيا ، وكينيا . ومن المنظمات التى تعمل فى الخارج « الاتحاد الديمقراطى الوطنى بموزمبيق » الذى اتخذ مقره فى مدينة « دار السلام » التى تضم عددا كبيرا من لاجىء موزمبيق .

وان الانفجار المروع الذى هز « لورتر وماركيز » — من أكبر مدن موزمبيق — فى ٤ فبراير ١٩٦١ ليوضح أنه لا أسلحة التعذيب ، والاسترقاق ، والقهر ، والنار ... ولا الوكلاء السريين من البيض ولا الوكلاء العلنيين من شيوخ القبائل الخونة ... كل ذلك لا يكفى لأرهاب شعب موزمبيق ، وقبوله للبقاء فى السجن الكبير الذى فرض عليه حوالى خمسة قرون ، وابعاده عن المد الثورى الأفريقى ...

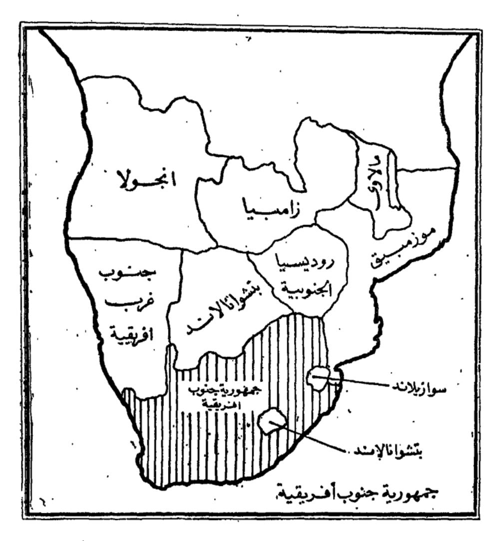
وبينما يطلق « فرانز فانون » صيحته العالمية بعد انتصار الثورة الجزائرية قائلا : « هيا بنا يا اخوتى نخلق انسانا جديدا » كانت الحركة الوطنية فى موزمبيق توحد صفوفها فى صيف عام ١٩٦٢ لتكون « جبهة تحرير موزمبيق » التى اتخذت مقرا لها فى مدينة دار السلام . وقد جذب هذا التنظيم الجديد أحزابا عديدة من الثائرين .

وفى أغسطس ١٩٦٣ اندلع اضراب بين عمال الموانى فقتلت القوات المسلحة ٥٣ عاملا وطنيا منهم . وقد أيقظت هذه الاعتداءات البلاد كما لفتت أنظار العالم أجمع .

وفى سبتمبر ١٩٦٤ أصدرت قيادة الجبهة الجديدة الموحدة نداء يحث الشعب على الثورة فبدأت انتفاضات وطنية مسلحة ، واصطدامات وحشية فى رأس دلجاو ، وفى مناطق نياسا ونامبولا . وفى ديسمبر قامت العصابات الوطنية بهجمات ضارية على الجنود البرتغاليين فقتلت عددا منهم ، واستولت على كميات كبيرة من أسلحتهم وعتادهم .

وقد أصبح من المألوف أن ترى الجنود البرتغاليين المسلحين يذرعون الشوارع ، مهددين متوعدين .. ورغم ذلك فان المنشورات السرية التى تتضمن نشاط الثوار الوطنيين تغمر جدران هذه الشوارع ..

ويلاحظ أن حدود موزمبيق مع جيرانها فى الشمال طويلة ، ومن العسير على البرتغال أن تحول دون عبور الرجال والمعدات والمؤن لمساعدة الثوار ، وللاستمرار فى ثورة تعصف باستعمارها وسلطانها .




### الثورة فى جنوب افريقية :

تؤكد كل الحوادث والظروف أن كيانا ثوريا جديدا يتشكل فى جمهورية جنوب أفريقية رغم العنف ، والاضطهاد ، والتحدى ... الممثل فى التمييز العنصرى بجميع ألوانه ، وأساليبه .

وان هذه المقاومة لسياسة التمييز العنصرى التى تشكل تعبيرا عن قوى جديدة ، وثورية فى هذه المنطقة المغلقة ، المظلمة ... تضيف رصيدا جديدا لثورة أفريقية كلها ، وصحوتها من سباتها .

والدراسات الحديثة التى خرجت سرا من الستار الحديدى فى جنوب أفريقية لتتداول الآن فى امريكا واوروبا فى سلسلة كتب ،

تتحدث عن كل أشكال المقاومة ، وأساليب الثورة على الوضع اللاأخلاقى واللاانسانى المفروض على السود .. أصحاب البلاد الأصليين (١) .

وتشير الدراسات المشار اليها الى أن المثقفين الأفريقيين هم الذين يكونون الاطار الثورى ، وهم عماد الأحزاب السياسية ، ويتعاون معهم اليساريون من الأقلية الأوروبية ، وفئات من الأقلية الأسيوية والملونين .

ولكن العنف الحكومى ، والبطش الشديد ، والقوانين العنصرية المتتالية منذ عام ١٩٤٨ ، حين سيطر الحزب الوطنى على أداة الحكم ، قد قضت تقريبا على هذا الاطار الثورى ، وطاردت احتمالات تنظيم العمل الثورى .

وقد أدى هذا الى تكوين الجمعيات السرية التابعة لحزب « الجامعة الأفريقية » وحزب «المؤتمر الوطنى الافريقى» مع جمعيات يسارية أخرى. كما نقل المثقفون الافريقيون الثائرون نشاطهم من المدينة والمناطق الحضرية الى المعازل القبلية ، وبالذات « الترانسكاى » حيث تحشد الحكومة الأفريقيين تحت زعامات قبلية رجعية أو متعاونة مع الحكومة . ومعنى هذا ببساطة ووضوح أن الفلاحين أصبحوا عماد الثورة الجديدة ووقودها فى نفس الوقت بعد أن كانت الثورة تعتمد على الموظفين ، وعمال المناجم والمصانع . وهذا التغيير فى التكتيك الثورى ليس يسيرا من الناحية النظرية والناحية العملية معا ، فلم يسبق له وجود فى أى تجربة ثورية . والسبب هنا هو سياسة المعازل ، وبطش الحكومة ، ورقابتها ، وزعماء القبائل المفروضون باسم القانون ، وتصاريح المرور التى يحتم القانون على كل أفريقى أن يحملها .

وقد ثار التساؤل : هل تنظيم الفلاحين ودفعهم للعمل الثورى فى مثل هذه الظروف السيئة ، الشديدة القسوة ، والتى لم يسبق لها مثيل فى العالم ، سيتم على أساس فلسفة الثورة الوطنية العامة أى المساواة ، وحق الأغلبية فى الانتخابات ... الى آخر هذه الشعارات والمطالب المعروفة ؟ أم سيحدث تغيير جذرى فى هذه الفلسفة ، وتظهر شعارات ومطالب أخرى تعبر عن القوى الجديدة القائمة بالثورة .. أى الفلاحين ؟

---

(١) مقال : « ثورة الفلاحين السود فى جنوب أفريقية » د . عبد الملك عوده . مجلة الكاتب . عدد يناير ١٩٦٥ . ص ٧١ وما بعدها .

ولقد برزت هذه النقطة فى مناقشات « الجمعية الأمريكية للدراسات الأفريقية » حين عقدت مؤتمرها السنوى فى شيكاغو فى أكتوبر عام ١٩٦٤. وتبين من أبحاث ومناقشات المؤتمر أن الاعتدال وعدم التطرف اللذين كانا من صفات الجيل الذى قام بالثورة الأولى حل محلهما التطرف ، والميل الى المقاومة العنيفة عند الجيل الثورى الجديد . ولكنه نتيجة الوضع الأرهابى الذى تعيش فيه البلاد ، وقوانين تحريم النشاط السياسى ، لا تستطيع معرفة هؤلاء الزعماء الجدد ، ولا وسائلهم ولا مذاهبهم ، ولا عقلياتهم . وانما تشير الدراسات التى ظهرت حتى الآن الى انهم من الشبان الذين لا تزيد أعمارهم عن الثلاثينات ، وأنهم درسوا ووعوا كل المذاهب السياسية المتطرفة فى الشرق والغرب على السواء ..

ونشرت مجلة « Contemporary Issues » فى عام ١٩٦٤ تقريرا كاملا عن حقائق هذه الثورة الجديدة من مصادرها المباشرة فى داخل البلاد ، جاء به انه ترتب على تحريم النشاط الحزبى القديم ظهور تنظيمين ثوريين سريين (أولهما) يسمى «بوكو» الذى يمثل حزب الجامعة الأفريقية (وثانيهما) يسمى « الرمح » الذى يمثل حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى. وتشير المجلة الى أنه رغم اعتقال وتشريد عدد كبير من أفراد هذين التنظيمين عامى ١٩٦٣ و ١٩٦٤ فان هناك جمعية سرية تعمل فى جنوب أفريقية ، ولا يعرف أحد شيئا محددا عنها . وتعتقد المجلة من اسم المنظمة الجديدة أنها منظمة سرية شيوعية .

ويهتم الثوريون الجدد بأقليم « الترنسكاى » لأنه يحتل مركزا هاما فى السياسة العنصرية التى تتبعها الحكومة . ومساحة هذا الاقليم حوالى ١٦ ألف ميل مربع ، ويقيم فيه حاليا حوالى ٢ مليون أفريقى . وطبقا للتقرير الحكومى يبلغ متوسط دخل الفرد الواحد هناك حوالى عشرة جنيهات فى السنة . ولكن الحقائق تؤكد أنه لا يزيد عن ستة جنيهات . وفى عام ١٩٦٢ صدر قانون الحكم الذاتى للأقليم بدون مشاركة من جانب الأفريقيين ، وبدون وجود تمثيل برلمانى لهم .

وقد شهد الأقليم حركات المقاومة التالية :

١ — فى نوفمبر ١٩٥٠ ثار الأهالى عندما حاول المزارعون البيض اجلاءهم عن الأراضي المخصصة لهم . وعند تنفيذ أمر الطرد الذى أصدرته الحكومة حدثت ثورة ، وتدخل البوليس فقتل

١٤ أفريقيا وسجن كثيرون ، ونفى رئيس القبيلة خارج المنطقة .

٢ — فى عام ١٩٥٣ رفض الشعب تأييد رئيس القبيلة المعين فى احدى المناطق ، واعلنوا خلعه . ولما جاء البوليس هرب الفلاحون الى الغابات الكثيفة ، والفوا جيشا للمقاومة . وفى عام ١٩٥٧ أرسلوا مذكرة بشكواهم الى الأمم المتحدة ، فأرسلت الحكومة اليهم الجيش والبوليس فحدثت اشتباكات قتل فيها ستون قتيلا غير الجرحى والمسجونين .

٣ — وفى عام ١٩٥٧ حاولت الحكومة فرض تصاريح المرور على النساء فثارت النساء ، وأيدهن الرجال فنفى رئيس القبيلة الى خارج المنطقة .

٤ — وفى عام ١٩٥٨ رفض أفراد احدى القبائل التعاون مع الرئيس المعين ، ورفضوا دفع الضرائب فحضر لهم البوليس الذى اقتل ١١١ منهم ، وفرضت الغرامات على الأهالى ، كما سجن كثيرون .

٥ — وفى عام ١٩٦٠ ثارت قبائل « البوندو » فأعلن البوليس حالة الطوارىء واعتقل ٤٧٦٩ رجلا وامرأة ، وقدم ٢٠٧٦ شخصا للمحاكمة .

وامام هذا الاضطهاد المنظم تطورت حركة المقاومة الى تنظيم دائم فى مارس ١٩٦٠ ، ظهر عمله فى حرق منازل الجواسيس ورجال الحكومة، واندلعت الثورة ، وسيطر الثوار على المنطقة فأرسلت الحكومة الجيش، والطيران . واستخدمت الغازات السامة ضد الثوار المعتصمين فى الجبال . وقد مات فى هذ الثورة كثيرون ، وسالت دماء غزيرة ، وسجن عدد كبير من الزعماء والأهالى ونفى آخرون .

ان الدلائل كلها تشير الى أن ثورة الفلاحين فى جنوب أفريقية ، بزعامة الشبان ، تختلط فيها ثورة اللون بثورة التحرر السياسى ، والمطالب الاقتصادية بالعدالة الاشتراكية .

وفى سنة ١٩٦١ كانت أول اشارة كبيرة الى اليقظة القومية العامة تتمثل فى المسيرة الكبرى المؤلفة من ٣٠ ألف رجل من أعضاء مؤتمر الوحدة الأفريقية الى قلب مدينة « كيب تاون » . وعلى بعد سبعة أميال

فقط من البحر يوجد ذلك الرجل الذى ساروا عندما امرهم بذلك من بعيد ففى جزيرة « روبين » يقيم « روبرت سوبوكوى » زعيم جماعة الـ PAC ، المحظورة الآن ، معتقلا « الى ما شاء الله » على حد قول وزير العدل « جوهانس فورستر » . وجريمة هذا الأستاذ الجامعى كما اعترف فورستر نفسه أن شعاره « أفريقية للأفريقيين » وقد انضم اليه مؤخرا فى الجزيرة زعماء ثلاثة من « المؤتمر الافريقى » المعارض لحزبه. وقد أرسلوا الى هناك لقضاء أحكام السجن المؤبد التى صدرت فى حقهم فى يونيو ١٩٦٤ فى محاكمات صورية بتهمة تخريب فى احدى مدن مقاطعة بريتوريا .

واقد كان للكنيسة فى جنوب أفريقية دور بارز فى مقاومة السياسة العنصرية التى تتبعها حكومتها .

ففى عام ١٩٥٧ أعطى وزير الشئون الوطنية بموجب الفقرة (٢٩جـ) سلطة الأمر بان لا يخرج أى أفريقى فى مدينة عن نطاق محل اقامته وادى هذا الى منع الأفريقيين من ارتياد دور العبادة التى تعودوا عليها ، والواقعة خارج محال اقامتهم .

وقد دعا رئيس أساقفة مدينة الكاب ، الدكتور جودفرى كلايتون(١) اربعة من اساقفة الكنيسة لكى يبحث معهم هذا الأمر . وفى النهاية وجه(٢) الأسقف « أمبروز ريفرز » من كنيسة جوهانسبرج ، خطابا الى رئيس الوزراء بأسم الأساقفة جميعا يشرح له فيه تعارض هذا الأمر الوزارى مع تعاليم الدين المسيحى ، ويؤكد أنه يمس حرية العبادة ولا يقتصر أثره على الشئون المدنية وحدها نظرا لأن الكنائس جميعها تقريبا قائمة فى خارج المعازل الوطنية .

ولأهمية هذا الخطاب ننقل منه الفقرات التالية :

١ ــ « ان دستور كنيسة جنوب أفريقية يضع فى حسابه حكومة المجتمع المقدس للكنيسة . ففى مثل هذه المجامع يمثل الأساقفة والقساوسة دون تفريق بين عنصر أو لون .

٢ ــ « اننا ندرك خطورة عصيان القانون ، ونعتقد أن اطاعة السلطة المدنية حتى فى الأمور التى يختلف فيها الرأى أمر يفرضه الله علينا . ولكننا أمرنا كذلك أن نعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

---

(١) جنوب افريقية أمس وغدا . امبروزريفرز . ترجمة مرقص صليب ص ١٤٥ .
(٢) مؤلف الكتاب المشار اليه فى البند السابق .

فهناك اذن أمور لله وليست لقيصر ، ومن بينها الأمور التى تعالجها الفقرة ٢٩ (جـ) . وبما ان هذا هو اعتقادنا فاننا مضطرون أن نقدر أنه اذا أصبح هذا الأمر قانونا فسوف لا يكون فى مقدورنا طاعته ، أو أن ننصح الكهنة والشعب بهذه الطاعة . ولذا نلجأ اليك يا سيدى ألا تضعنا فى موقف نختار فيه بين طاعة ضمائرنا وطاعة قانون البلاد » .

كما أن الأسقف « أمبروز ريفرز » وضع كتابا عن جنوب أفريقية .. « أمس وغدا » بعد نفيه من البلاد بسبب موقفه هذا ، عالج فيه هـذه المشكلة بقوة وصراحة ، نقتبس منه الفقرات التالية :

١ ـ اننى لم أفضح التفرقة العنصرية أبدا لأنها غير لائقة من الناحية السياسية ، وكارثة من الناحية الاجتماعية ، ولكن من تجاربى عدة سنوات وصلت الى النتيجة المحتمة ، وهى أن التفرقة العنصرية فى ذاتها شر . وكزعيم مسيحى لم أجد أمامى من سبيل سوى أن أفضح زيف النظرية وان أبين الظلم الصارخ، والآلام الممضة التى تسود جنوب أفريقية سواء أكانت هنـاك ضرورة أم لم تكن .

٢ ـ « ان التفرقة العنصرية فى ملتى ويقينى تعتبر اكثر من اهانة للأنسانية . انها تجعل من فداء المسيح لغوا وهذا هو الحكم النهائى على التفرقة العنصرية كما أراها كأسقف .

٣ ـ « بدأ البعض يربط التفرقة العنصرية والمسيحية . والذى يدعو الى هذا الاعتقاد أن فى البلد حكومة تدعى أنها حكومة مسيحية ، وكانت تقول فى أكثر من مناسبة ان قراراتها من ارادة الله . وانك لتجد فى الحقيقة ـ كما لاحظ المجلس العالمى الكنائسى فى جوهانسبرج فى ديسمبر ١٩٦٠ ـ أنه يوجد احياء للعادات الوثنية القبلية فى كثير من البقاع لا يتفق مع المعتقدات المسيحية .

٤ ـ « يجب ان يتذكر رجال الكنيسة بصفة خاصة شهادة الانجيل عن الأمور العنصرية . ولو أن كتاب الأنجيل لم يكونوا يعرفون شيئا عن التفرقة العنصرية فقد كان لديهم الكثير من التجارب عن التفرقة فى ابغض أشكالها . كانوا يعيشون فى عصر ، وبين شعب كان يضع تمييزا حادا بين اليهودى والوثنى .

٥ ـ قال القديس بولس : « بروح واحدة نعمد جميعا فى جسد واحد سواء اكنا يهودا أم من الأمم ، عبيدا أم احرارا . ولقد خلقنا جميعا لنشرب من روح واحدة » (١) .

٦ ـ « علاوة على ذلك يجدر بأمم العالم أن تتذكر أن ٢٠٠ مليون افريقى فى قارة أفريقية يعيشون خارج حدود جمهورية جنوب افريقية . ومن العسير أن نعتقد انهم سيواصلون الى ما لا نهاية، وبطريقة سلبية رؤية الآلام والمظالم اليومية التى تفرضها على اخوتهم حكومة بيضاء لا تمثل الا الأقلية ، فان خطب وكتابات كثير من زعماء الأفريقيين فى بقاع أفريقية الأخرى تبين أنهم يزدادون وعيا بآثام التفرقة العنصرية » (٢) .

**ثورة كينيا :**

رغم أن كينيا حصلت فعلا على استقلالها الا أن المواقف البطولية التى وقفها شعبها فى حركته القومية ضد العنصرية تستحق الدراسة والتأمل أسوة ببعض الحركات الأخرى التى انتهت ايضا بزوال الاستعمار والعنصرية .

بدأت الحركة فى كينيا ضد الاستعمار وسياسة التمييز العنصرى منذ سنة ١٩٠٥ حينما ثارت قبيلة ( ناندى ) على الاستعمار البريطانى .

وقبيل الحرب العالمية الأولى قامت ثورة أخرى فى صفوف قبيلة ( جيريانا ) من البانتو حين حاولت السلطات البريطانية نقلها من موطنها الى آخر طمعا فى أراضيها .

وبانتهاء الحرب العالمية الأولى توافرت عدة أسباب للثورة . وذلك لأن الكساد الذى ساد العالم عام ١٩٢١ جعل الأوروبيين يخفضون أجور العمال الوطنيين مما أوجد مزيدا من الشعور بالقلق بين الأهالى . ومع ذلك فقد رفعت الحكومة الضريبة من ١٢ الى ١٦ شلنا ، ثم قررت السلطات البريطانية منح ١٠٠٠ مزرعة للجنود البريطانيين المسرحين . ولما عاد جنود كينيا الذين اشتركوا معهم فى الحرب رأوا كيف طردت قبائلهم وعائلاتهم من أراضيها .

وفى هذه الظروف ألف « هارى ثوكو » جمعية « أفريقية الشرقية الوطنية » التى تستهدف الدفاع عن حقوق المواطنين الاقتصادية والسياسية . وكان هذا هو أول تنظيم للحركة القومية فى تاريخ كينيا .

---

(١) و (٢) المصدر السابق ص ١٥ ـ ١٦ ، ١٥٦ ـ ١٦٩ .

وكان « هارى ثوكو » يستخدم الدين كوسيلة لبث الوعى ، وبيان شرعية مطالب الشعب ، فقد كان يقول « ان الله لا يفرق بين الأبيض والأسود » وهكذا عرفت الجماهير أن التفرقة العنصرية ضد الأديان التى تنادى بالمساواة التامة ، وتستنكر التمييز بسبب اللون أو الجنس (١).

ولما شعرت السلطات البريطانية بقوة وخطر هذه الدعوة على الاستعمار اقبضت عليه وألقته فى سجن « نيروبى » ثم صدر الأمر بنفيه بعد أن تجمهر آلاف من الأهالى حول السجن مطالبين بالافراج عنه .

وعمدت الحكومة بعد ذلك الى حل الجمعية ، واعتبرتها غير شرعية ، فتحول نشاطها العلنى الى نشاط سرى .

وبعد الحرب العالمية الثانية تكون « الاتحاد الافريقى لكينيا » برياسة كنياتا الذى كان سكرتيرا لمنظمة الكيكويو السابقة التى تكونت سنة ١٩٢٢ من أكبر قبائل كينيا ، وأكثرها وعيا بالروح القومية ضد « لصوص الأرض البيض » .

وفى اول يونيو ١٩٤٧ اجتمع الاتحاد ، ونادى بلم شعث جميع الوطنيين بغض النظر عن قبائلهم . وأعلن الاتحاد بعد اجتماعاته عدة قرارات منها :

١ ــ هدف الأفريقيين السياسى فى كينيا هو حكومة ذاتية يتولاها الأفريقيون من أجل الأفريقيين . وتحمى الدولة الجديدة جميع حقوق الأقليات .

٢ ــ تحقيق المساواة العنصرية فى الجمعية المركزية .

٣ ــ زيادة مساحة الأراضى التى يستغلها الأفريقيون .

٤ ــ تحقيق مبدأ « المساواة فى الأجر والعمل المتشابه » .

وما أن اعلنت هذه القرارات حتى أعلنت الحكومة حالة الطوارىء ، وتدفقت القوات الاستعمارية على البلاد لمقاومة هذه الحركة الجديدة بحجة أنها « حركة شيوعية » .

وفى سنة ١٩٥٢ استطاع « جومو كينياتا » أو « الرمح المشتعل » وغيره من الزعماء أن يحولوا أقوالهم الى أعمال فتكونت جمعية «الماو ــ ماو» المشهورة .

---

(١) ميلاد افريقيا . محمود الشرقاوى . ص ٥٤ .

وفي سنة ١٩٥٣ أعلنت الحكومة حل ( اتحاد كينيا الأفريقي ) وحكم على كنياتا بالسجن . وخلفه « توم مابويا » الذى قبض عليه ، وسجن هو الآخر .

وقد شبهت جريدة « المانشستر جارديان » البريطانية فى ذلك الوقت ضرب قبائل الكيوكويو بالقنابل بضرب موسولينى للحبشة . وقد بلغ عدد القتلى من الأفريقيين من أول يناير الى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٥٣ وحدها حوالى ٢٨٢٢ ، والأسرى ٩٨٠ . وقد لاحظ مجلس العموم البريطانى زيادة نسبة القتلى عن الأسرى مما يدل على أن الغرض هو الانتقام وليس اخماد الثورة . ولا يعرف العدد الكلى من القتلى فى حرب العصابات التى كان شعارها وقسمها « لن نلقى السلاح حتى نسترد أرضنا من الرجل الأبيض » وان اقدرهم البعض بنحو ربع مليون على الأقل (١) .

وفى محاضرة ألقاها « مايكل بلندل » فى لندن فى أوائل عام ١٩٥٥ أشار الى تعاون القرى الآمنة مع الثوار فقال :

« هناك جناح متطرف من الماو ــ ماو يعمل فى الغابات ، وجناح سلبى فى المعازل . والاثنان مرتبطان معا ارتباطا وثيقا . فكل عصابة من الثوار ترتكز على مجموعة من المستعمرين . وقد اظهر الجناح السلبى مثابرة نادرة ، وصبرا مرا على متابعة أهدافه » (٢) .

وكانت قوات الحكومة تأتى الى القرية لتسأل عن أفرادها . فاذا كشفت امر غائب أو مجموعة من الغائبين أعطت القرية كلها مهلة ٢٤ ساعة تقوم بعدها بمصادرة المواشى ودواب الركوب ، وطرد السكان ، أو نفيهم الى المعتقلات ، ودك القرية كلها بالقنابل . وعم البلاء ارض الكيكويو ، واشتدت آلامهم حتى انتحر فريق منهم ممن تقدمت بهم السن تحت وطأة الحزن والضيق ، وانتشار الأوبئة .

وعلق « جورج بادمور » سنة ١٩٥٦ على العمليات العسكرية ضد الماو ــ ماو فقال « كانت هذه الحرب الاستعمارية القذرة تكلف الحكومة البريطانية نحو مليون جنيه كل شهر » .

يقول جنتر :

---

(١) التفرقة العنصرية فى افريقية المصدر السابق . ص ٢١٠ .
(٢) قضية كينيا . د . عبد العزيز كامل . المصدر السابق . ص ١١ .

« لم أر قوما يستهويهم السلاح كما يستهوى أهل كينيا (من البيض). فقد اكتشفت فى أول مأدبة عشاء لنا فى نيروبى أن السيدات العريقات اللاتى يرتدين ملابس السهرة الشفافة يحتفظن بالمسدسات فى حقائبهن الرقيقة ، ذات الخيوط الذهبية » (١) .

وقد نادى بعض غلاة البيض بتقسيم كينيا على أن يستأثروا هم بالمرتفعات ، وتخصص للافريقيين والأسيويين مناطق أخرى . وقد وصل الأمر ببعض المتطرفين الى مناقشة الصلة التى تربط كينيا ببريطانيا .

ولكن الأحداث قد تطورت بعد ذلك بسرعة مذهلة . ففى خلال عام ١٩٦٠ تكونت أحزاب جديدة لتخوض المعركة الانتخابية فى فبراير ١٩٦١ ففاز حزب كينياتا الذى كان مسجونا ، فأفرج عنه وشكل أول حكومة وطنية فى ديسمبر ١٩٦٣ ، وانضمت كينيا بعد ذلك الى الكومونولث البريطانى .

**الثورة فى نياسالاند ( مالاوى ) :**

منذ عام ١٩٣٩ أعرب شعب نياسالاند عن رفضه لفكرة اتحاد وسط افريقية . وعندما أعلن ، وبالرغم من ذلك ، قيام الاتحاد سنة ١٩٥٣ ، أصر الشعب على رفضه ، مؤكدا أنه اتحاد لا يقصد به سوى ايجاد حل للمشكلات السياسية والاقتصادية التى تكتنف مستقبل روديسيا الجنوبية ، وتثبيت وزيادة النفوذ الأوروبى الاستعمارى . وقد صدق حدس الشعب ، اذ استنتج قيام الاتحاد مضاعفة نسبة الموظفين الأوروبيين وانتشار سياسة التمييز العنصرى ، وميلا عاما الى المبادىء التى يؤمن بها البيض فى اتحاد جنوب أفريقية .

لذلك لم يكن بد من نمو روح السخط . واجتمعت كلمة الشباب الثائر مع حكمة الشيوخ المجربين ، وحظى « حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى » فى نياسالاند بتأييد الجميع ، وطالب المؤتمر بفصم عرى الاتحاد الزائف ، والمطالبة باستقلال نياسالاند ، وحق شعبها المطلق فى تقرير مصيره .

ووقع الاستعمار فى حيرة فهو من ناحية لايريد اضعاف حكومة الاتحاد الممسوخ الذى اصطنعه ، ويخشى ان تنفذ روديسيا الجنوبية تهديدها الدائم بالانخراط فى جمهورية جنوب افريقية ، كما أنه من ناحية

---

(١) داخل افريقية . المصدر السابق . جزء ثان . ص ١٩٧ .

أخرى كان يخشى ان حصلت نياسالاند على استقلالها ، وتبعتها روديسيا الشمالية ، ان تتقارب هذه الاقاليم الثلاثة فى اتحـــاد افريقى حقيقى يقضى على أحلامه فى وسط أفريقية .

وقد خرج من بين صفوف الثورة الشعبية الزعيم الوطنى « فيليب جومانى » يدعو الى فكرة « العصيان المدنى » فضيقت عليه الحكومة الخناق، واضطرته الى الهرب الى « أنجولا » التى ردته الى بلاده فصدر ضده حكم بالاعدام . ولكنه مات قبل تنفيذ الحكم .

وفى خضم هذه الفورة من المشاعر والمخاوف برزت شخصية الدكتور « هاستنجزباندا » وقد بدأ حياته فى صباه برعى الأغنام على شواطىء بحيرة نياسا ، ثم غامر بالسفر ، كما كان يغامر العديد من أبناء وطنه ، واتجه جنوبا على قدميه ، فقضى مرحلة من حياته فى جنوب افريقية حيث أقام فى جوهانسبرج يكدح مع اخوانه فى قلب المناجم . ولم يلبث أن وجد طريقه الى أمريكا وفيها تخصص فى الطب ومنها رحل الى بريطانيا متابعا دراسته وممارسا عمله .

وكان يتابع عن قرب معالم الخطط الاستعمارية التى تحاك ضد بلاده لصـــالح أوروبيين لايتجاوز عددهم ألفين يتحكمون فى رقاب مواطنيه الذين يقارب عددهم الثلاثة ملايين . ثم نراه يفتح بيته للافريقيين هناك ، ويستعيد ذكريات بلاده ، ويرفع صوته معارضا بقوة فكرة اتحاد وسط افريقية . وبعد ذلك سافر الى غانا ليتدارس مع « نكروما » قضايا بلاده، ويجتمع بالصحفيين . وقد وصلت أنباء تحركاته هذه الى أبناء وطنه ، فاذا بهم يبرقون اليه بالعودة فورا ، ويستجيب لهذا النداء فى ١٠ يوليو عام ١٩٥٨ . وفى مطار « بلانتير » يفتح ذراعيــه للجموع الغفيرة التى تستقبله ، وتلقى على كتفيه معطف الزعامة التقليدى ...

والتقى باندا مع مواطنيه وخطبهم قائلا :

« اننى كما كنت دائما ضد هذا الاتحاد ، ولن أهدأ حتى نتحرر منه ... ان شريدكم قد عاد اليكم وسنكافح معا ضد سيطرة البيض » .

وبعد ان تالف حزب المؤتمر الوطنى سرعان ما اتهمه البيض بأنه يريد أن يذبحهم ... كما اتهم الانجليز الدكتور باندا نفسه بأنه يريد انشاء اتحاد افريقى من نياسالاند ، وتنجانيقا ، وروديسيا الشمالية .

ومن هذه النقطة تشتعل الثورة العارمة .. ويسقط الكثيرون ويلقى القبض على البطل نفسه ، وينقل الى روديسيا الجنوبية مع مائة وخمسين

من رجال الحزب • وكل ما فعلته وزارة المستعمرات هو ارسال لجنة للتحقيق فى هذه المجزرة البشعة • وفى ٢٣ يوليو ١٩٥٩ أعلنت اللجنة أن الادارة المحلية هى التى خلقت اشاعة « ذبح البيض » التى كانت سببا فى اشعال الثورة •

ولقد حسب الانجليز أنهم باعتقالهم لباندا ، .وباعلان نتيجة لجنة التحقيق ان الثورة ستهدأ ان لم تخمــــد ••• ولكن العكس هو الذى حدث ••• فقد انفجرت طاقات الحرية فى الأهالى الذين أعلنوا أنه لن يكون هدوء وباندا فى المنفى . ومن هنا نرى المستعمرين ينحنون امام ثورة الشعب ويقررون عودته . ويعود باندا وعليه آثار السجن ، ويعلن مرة أخرى أنه لن تكون للاستعمار حياة على أرض بلاده . وقد ازدهر حزب باندا بعد أن فاز بأغلبية مقاعد المجلس التشريعى فى نياسالاند على « الحزب الفدرالى المتحد » الذى يتزعمه « روى ويلنسكى » رئيس الاتحاد•

وأخيرا سقط الاتحاد الزائف ، واستقلت نياسالاند فى ١٩٦٤/٧/٦ تحت اسم « جمهورية مالاوى » ، كما استقلت روديسيا الشمالية تحت اسم « جمهورية زامبيا » وبقيت روديسيا الجنوبية تحت سيطرة البيض المباشرة .

**ثورة الجزائر :**

ان السياسة العنصرية ــ كما تقدم ــ لم تقتصر على افريقية السوداء فى جنوب الصحراء الكبرى ، بل انتقلت عدواها الى الشمال فى المغرب العربى ، وعلى الأخص فى الجزائر حيث استوطن بعض الفرنسيين المغامرين الذين كانت تراودهم أحلام الثروة ، وشعار «المجد المفرنسى» . كما قدمت الجزائر نموذجا رائعا ، ومثلا بطوليا أسطوريا للكفاح ضــــد العنصرية والاستعمار معا •

وقد بدأت ــ فى الواقع الحركات التحررية فى الجزائر منذ سنة ١٨٣٢ حين جمع الأهالى ، ورؤساء العرب أمرهم فى مؤتمر عقدوه بمسجد بمدينة « معسكر » وبايعوا بالامارة « عبد القادر محيى الدين الهاشمى » فأخذت مقاومة الشعب الجزائرى للفرنسيين ، وللمستوطنين تشتد ، اذ أنه لما استسلم داى الجزائر كتب القائد الفرنسى يقول : « ان حرية الطبقات المختلفة من السكان ، ودياناتهم وممتلكاتهم ، وتجارتهم ، وصناعتهم لن تمس ، والقائد العام يتعهد بشرفه •••• » • على أنه لم يكـــد يمضى شهران على هذا التعهد حتى أمر القائد العام ــ الذى تعهـــــد بشرفه ــ بمصادرة الممتلكات وأراضى الأوقاف !

وكان من أسباب المقاومة أيضاً ما ذكرته « لجنـــة التحقيق » التى أوفدها البرلمان الفرنسى بعد ثلاث سنوات من هذه الثورة :

« لقد جمعنا فى الدومين املاك المؤسسات الدينية ، وصادرنا ممتلكات فئة من السكان كنا قد وعدنا باحترام ملكيتها • وبدأنا باستعمال سلطتنا بفرض غرامة قدرها ....ر..١ فرنك « كقرض اجبارى » وذهبنا أحيانا الى حد اننا أجبرنا الملاك السابقين على دفع نفقات هـــدم بيوتهم ، بل نفقات هدم أحد المساجد . وأجرنا ممتلكات الدومين للغير . وانتهكنا دون خجل بيوت الله ، والمقابر ، والدور كلها ذات حرمة لدى المسلمين. وقتلنا رجالا يحملون منا ورقة الأمان . وذبحنا سكان قرى عن آخـرهم لمجرد الشك فيهم ، ثم تبينت براءتهم بعد ذلك . وحاكمنا رجالا عرفوا بالتقوى فى البلاد لأنه كانت لديهم الشجاعة الكافية لمقابلتنا والتعـرض لغضبنا ، لا لشىء سوى السعي لاخوان لهم بائسين . وقام قضــــاة منا بمحاكمتهم . وارتكب رجال متمدينون منا جريمة اعدامهم ، حتى لقد فقنا فى البربرية هؤلاء الذين جئنا لتمدينهم » (١) .

وارتبطت تطورات الحركة التحررية فى الجزائر بتطورات الحركة الديمقراطية والاشتراكية فى فرنسا • والموقف الداخلى فى فرنســــا ينعكس على الموقف فى الجزائر ، كما يتأثر الموقفان معا بالأحداث الدولية•

وفيما قبل الحرب العالمية الأولى ، وبعد ان تأزم الموقف الدولى ، فرضت فرنسا التجنيد الاجبارى على الجزائريين فطالب الشعب بتعديل نظام الضرائب ، وفرض المساواة بين الجزائريين والمستوطنين الأوروبيين، وغير ذلك من الاصلاحات ، ولكن فرنسا سدت آذانها عن كل هذه المطالب العادلة ، وانتشرت الحركة الوطنية التحررية ، وفر المجندون الجزائريون الى الجبال ، واندلعت المظاهرات فى أنحاء البلاد •

وما كادت الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها حتى كون الأمير خالد، حفيد الأمير عبد القادر ، أول هيئة للنواب المسلمين فى المجالس الجزائرية، ومن بين أهدافها مساواة الجزائريين بالمستوطنين الفرنسيين ، ووقف الهجرة الأجنبية الى الجزائر •

وفى سنة ١٩٥٢ تبلورت الحركة التحررية فى ثلاثة اتجاهات :

---

(١) ميلاد افريقيا . محمود الشرقاوى . ص ٧٦ .

١ ـ **الاتجاه الكفاحي** الذى يعتمد على الطبقة العاملة والفلاحين ٠
٢ ـ **الاتجاه الاصلاحي** الذى يستند الى الملاك والبورجوازية ٠
٣ ـ **الاتجاه المعتدل** الذى تدين به جمعية العلماء ، وتتوسط به الاتجاهين.

وقد بدأ الإتجاه الكفاحي في فرنسا بسبب وجود عدد كبير من العمال الجزائريين المهاجرين ، وهم يرتبطون بالحركة العمالية فى فرنسا ، ويؤمنون بأفكارها الثورية ٠ ولهذا نشأت فى ظل الحزب الشيوعى الفرنسى « جمعية نجم شمال أفريقية » التى انشاها الحاج على عبد القادر، ثم تولى زعامتها « مصالى الحاج » واستقل بشئونها عن الحزب الشيوعى الفرنسى ، غير أنه ظل مع ذلك وثيق الصلة به ٠ ولقد أنكر الحزب الشيوعى الفرنسى الحركة التحررية فى الجزائر فى بادىء الأمر ، ثم عاد وعدل عن رأيه ، ونادى بوجوب تكوين جبهة ثورية مع العرب تكافح من أجل الاستقلال ، وتوجد بين الأقلية الأوروبية والأغلبية المسلمة (١) .

وفى سنة ١٩٣٨ عقد اجتماع ضم جميع الهيئات السياسية ، وكان هدفه الحصول على تأييد شعبى للمشروع الذى تقدمت به الحكومة الفرنسية للاندماج مع فرنسا ، والذى عرف بمشروع « بلوم ـ فيوليت » ، وهو يقضى بتقسيم أهل الجزائر الى طائفتين : احداهما تنتسب الى فرنسا ، وتحمل جنسيتها ، والثانية مذبذبة لم تبلغ بعد ـ فى نظر الفرنسيين ـ مرتبة الشرف لتحظى بهذه الرعوية !(٢)

وقد قام على أثر هذه الحركة الخائنة « حزب الشعب الجزائرى » واتخذ لنفسه شعارا « الجزائر بلادنا ، والعربية لغتنا ، والاسلام ديننا » وقد تحددت أهداف الحزب بالاستقلال التام ، والسيادة الكاملة .

* * *

وفى أول نوفمبر ١٩٥٤ اندلعت نيران ثورة جديدة هائلة فى الجزائر ٠٠٠ وتكونت « جبهة التحرير الجزائرى » و « جيش التحرير الوطنى » على أساس عضوية كل جزائرى يرتبط بمبادىء الجبهة بصرف النظر عن مبادئه السابقة ٠

ومبادىء الجبهة يتضمن استقلال الدولة الجزائرية لتكون ذات سيادة ونظام ديمقراطى اشتراكى ، واحترام الحريات الأساسية دون تمييز بسبب الدين أو الجنس ٠

---

(١) المصدر السابق ٠ ص ٧٩ ٠
(٢) المصدر السابق ٠ ص ٨٢ ٠

وقد قابلت فرنسا هذه الثورة الجديدة بشن حرب ابادة شاملة ، جندت لها كل امكانياتها من جيوش ، وعتاد ، ومال ، ودعاية ٠

ولما عجزت عن قمع الثورة التي استنزفت كل طاقاتها ، وجعلتها أمام العالم في موقف لاتحسد عليه لجأت الى الحيلة والغدر شأن المستعمر دائما ٠٠٠٠

ففي نوفمبر سنة ١٩٥٦ تقرر عقد مؤتمر يحضره زعمـــاء الجزائر وممثلو الحكومتين التونسية والمغربية ، ولكن زعماء الجزائر الخمســـة ( ومنهم الرئيس السابق بن بللا ) قد دبرت فرنسا اختطافهم فى حادث الطائرة المعروف ، ثم اعتقلوا فى أحد المعتقلات الفرنسية ٠

وفي سنة ١٩٥٧ وافق البرلمان الفرنسى على منح الحكومة سلطات استثنائية لقمع الثورة الجزائرية ، فاندفعت القوات الفرنسية بوحشية لا مثيل لها ، ترتكب فظائع يندى لها جبين الانسانية خجلا من التعذيب، والارهاب ، والعسف ، والاضطهاد ، وانتهاك الحرمات الدينية والانسانية٠

وكان حظ كل هذه الاجراءات البربرية الفشل الذريع أمام صمود الشعب الجزائرى المناضل فى الجبال والوديان ، والذى ضحى بمليون شهيد ثمنا لحريته وكرامته ، وكان مستعدا لدفع أضعاف هذا الثمن ٠

بل ان فرنسا نفسها قد أصابها من الارتباك النفسى والمالى نتيجة ما تكلفته فى هــذه الحرب من أموال طائلة ما جعل قوادها فى الجزائر يثورون على حكومتهم فى ١٣ مايو سنة ١٩٥٨ ٠ ذلك التمرد الذى أسفر عن تولى ديجول الحكم ، وسقوط الجمهورية الفرنسية الرابعة ، وقيام الجمهورية الخامسة الحالية ٠

ومع ذلك لم يقبل الشعب البطل المساومة فى حريته ، واستقلاله ، وكرامته ، وأصر على أن كل مفاوضات مع فرنسا يجب أن يسبقها اعتراف منها باستقلال الجزائر ، وكيانها المستقل عنها ، وأن تتم المفاوضات فى بلد محايد ٠

وفى ١٩ سبتمبر من نفس السنة تألفت فى القاهرة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ٠ وقد استمرت حرب العصابات ضد الجيش الفرنسى حتى أجيبت مطالب الجزائر ، وأفرج عن الزعماء المنفيين ، وأعلن استقلال الجزائر عن فرنسا فى ١٩٦٢/٧/٣ ٠

* * *

وصلة الجمهورية العربية المتحدة بثورة الجزائر تستحق منـا كل اهتمام ، كما تستحق الدراسة والتـأمل . بل ربطت بينهما الحوادث أخيرا حتى أصبح مصيرهما واحدا .

ففى سنة ١٩٥١ حاولت مصر انشاء معهد مصرى للدراسات العربية فى الجزائر ، ولكن فرنسا رفضت ذلك بعد أن وافقت من قبل خوفا من توثيق الصلة بين مصر والجزائر .

ولما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر أعلنت منذ البداية تأييدها لكل الحركات التحررية فى الأقطار العربية والافريقية .

وبالنسبة لشمال افريقية بالذات كتب الرئيس جمال عبد الناصر فى مقدمة كتاب عنه يقول :

« نحن جزء من شمال أفريقية ، أو هو جزء منا . بل اننا واياه جزء من الوطن العربى الكبير .. الذى يمتد من ساحل الأطلسى الى جبـال الموصل . ونحن هناك أخوة لأب وأم ، تفرق بنا المكان ، وجمعتنا وحدة العاطفة ، ووشيجة النسب ، وآصرة الدين ، ولحمة اللغة .... »[١] .

وفى كل مناسبة كان الرئيس يؤكد التأييد المطلق لكفاح الشعب الجزائرى . وقد تمثل ذلك فى عدة مناسبات هامة .

وقد بحث الرئيس هذه المشكلة مع رئيسى حكومتى الهند ويوغسلافيا فى بريونى بيوغسلافيا فى يوليو ١٩٥٦ . وقد جاء فى البيان الذى أذيع عن هذه المباحثات يوم ٢١ يوليو ١٩٥٦ عن قضية الجزائر : « وقد بحث رؤساء الحكومات الثلاثة الموقف فى الجزائر ، الذى يعتبر فى رأيهم بالغ الأهمية بل ويتطلب اهتماما عاجلا .... الخ » .

وعندما القت فرنسا القبض على الزعماء الجزائريين فى حادث الطائرة فى ٢٢ اكتوبر ١٩٥٦ اظهر الشعب المصرى سخطه على فرنسا ، وأعلن الاضراب الشامل يوم ٢٨ اكتوبر ١٩٥٦ احتجاجا على هذا العمل الشائن.

ولا نغالى اذا قلنا ان ثورة الجزائر التى قامت سنة ١٩٥٤ كانت فى الأصل مستوحاه من الثورة المصرية التى قامت سنة ١٩٥٢ .

وقد صدق ميشيل كلارك ، مراسل صحيفة « نيويورك تايمز » فى شمال أفريقية والشرق الأوسط ، فى قوله « ان الثورة الجزائرية ترتبط ارتباطا وثيقا بظهور الرئيس جمال عبد الناصر فى العالم العربى » .

---

(١) شمال افريقيا . امين شاكر ( بالاشتراك ) سلسلة اخترنا لك . عدد ٨ .

وحين خيل لفرنسا أنها قادرة على نصفية ثورة الجزائر اذا قطعت عنها مساعدة الحكومة المصرية لم تتورع عن القيام بعمل حربى شـــاذ ضد مصر بالتواطؤ من انجلترا واسرائيل ، على أثر اعلانها بأنها صادرت الباخرة ( أتوس ) المصرية المحملة بالذخائر المصرية وهى فى طريقها الى الجزائر . وكانت فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٦ قدمت الى مجلس الأمن شكوى ضد مصر . وقد قام العدوان الثلاثى الغادر فى نوفمبر ١٩٥٦ . ولا شك أن هذا العدوان كان وثيق الصلة بقضية الجزائر .

ومضابط الجمعية الوطنية الفرنسية تسجل ذلك بوضوح . ففى جلســـة ٧ نوفمبر ١٩٥٦ قال النـــائب الفرنسى « مارسيل بوديه Marcel Bouder » ـ « ان الحكومة كانت تأمل من القضـــاء على مصر تســـهيل مهمتها فى القضـــاء على الثورة فى الجزائر » وفى جلســـة ١٩ ديسمبر ١٩٥٦ التى كانت مخصصة لمناقشة اشتراك فرنسا فى هذه الحملة الطائشة صرح « جى موليه » رئيس الوزراء اذ ذاك قائلا « ان أسباب تدخلنا كانت جوهرية لأن العلاقة واضحة بين قضية الجزائر ومصر » .

وقالت مجلة تايم الامريكية « لعبت فرنسا فى هذه المؤامرة دور المحرض ، وقامت بريطانيا بدور الشريك المتأخر ، بينما اســـتخدمت اسرائيل كأداة للتنفيذ » .

وبمجرد تشكيل الحكومة الجزائرية فى سبتمبر ١٩٥٨ كانت مصر أول دولة اعترفت بها .

. وقد حدثت نقطة التحول فى تطور الثورة الجزائرية تطورا اشتراكيا فى مارس عام ١٩٦٣ عندما أصدرت الحكومة الجزائرية عددا من المراسيم التشريعية التى تخول الحكومة تسلم الأراضى والمشـــاريع التى هجرها المستوطنون الفرنسيون ، وتسليمها الى لجان « التيسير الذاتى » . وقد وصفت صحيفة « الثورة الجزائرية » هذه المراسيم بأنها « نقطة البداية فى طريق الثورة الاشتراكية » .

وكانت لجان التيسير الذاتى قد انبثقت تلقائيا من أوساط الشعب نفسه الذى علمته تجـــارب الثورة التحررية القاســـية دروس الوعى السياسى ، ومرسته على الفهم الكامل لمنطق الأحداث . ولم تمض بضعة أسابيع حتى كان الفلاحون والعمال الزراعيون ، الذين ألفوا فى الماضى نواة جيش التحرير الوطنى ، يتسلمون مايربو على مليون هكتـــار من

اجود الأراضى التى تخلى عنها أصحابها السـابقون من المسـتوطنين الفرنسيين • وقد قررت لجان التيسـير الذاتى هذه أن لاتقوم بتجزئة الأراضى التى تسلمتها ، بل أن تعمل فيها كمشاريع جماعية تتولى ادارتها لجان يختارها الفلاحون أنفسهم •

ولم تمض بضعة أشهر حتى كان مايربو على المليونين والسبعماية ألف فدان من خيرة الأراضى الزراعية ، التى كان المسـتوطنون الفرنسيون يغتصبونها ويستغلونها قد تحولت الى القطاع العام • وقررت الحكومة ، فى الوقت نفسه ، تطبيقا لخطتها الاشتراكية ، تحديد ملكية ماتبقى من الأرض بالنسبة الى الملاك الجزائريين • ولقد بات من المتوقع أن يشمل الاصلاح الزراعى ستة ملايين فدان •

ولم يقتصر عمل القطاع العام على المجال الزراعى بل تعداه الى سائر الميادين الأخرى • فسرعان ماعم التأميم معظم المشاريع الكبيرة كالمصانع والمحال التجارية والفنادق والمطاعم ودور السينما •

وبذلك تكون القيادة الجزائرية الثورية قد أدركت أن الحل الوحيد لمشاكل الجزائر الاقتصادية تتطلب أول ما تتطلب تحطيم البنيـان الاقتصادى الاستعمارى السابق تحطيما كاملا ، وانهاء ما تعـانى منه الجماهير من فاقة وتخلف واستغلال •

## الفصل
## الثانى : الجهود الدولية لمكافحة التمييز العنصرى

ان قضية الحرية تكتسب كل يوم أنصارا جددا فى جميع أنحاء العالم حتى فى البلاد الاستعمارية ذاتها التى تمارس التمييز العنصرى ، بالاضافة الى المنظمات الدولية ، والمؤتمرات الأفريقية والأسيوية ، ومؤتمرات دول عدم الانحياز . وهذا ـ ولاشك ـ رصيد ضخم أثرى قضية الحرية فى البلاد الأفريقية عامة وفى الأقاليم التى تمارس فيها التفرقة العنصرية خاصة ، وقوى ساعد هذه الاقاليم وتلك البلاد فى كفاحها ضد الاستعمار والتفرقة العنصرية معا ، فظفرت معظمها باستقلالها السياسى أخيرا ، ولم تبق الا أقاليم قليلة لا يزال الاستعمار يحارب فيها بشراسة وضراوة .. ولكنها محاربة اليائس الذى تحيط به الأخطار من كل ناحية .

### أولا ـ على المستوى الأفريقى :

فى مايو سنة ١٩٦٣ انعقد مؤتمر القمة الافريقى فى أديس أبابا عاصمة الحبشة . وقد اتخذ المؤتمر عدة قرارات هامة خاصة بتصفية الاستعمار، ومقاومة التفرقة العنصرية . كما وافق المؤتمر على انشاء « منظمة الوحدة الأفريقية » .

وقد وردت هذه القرارات فى الفقرة الرابعة من المادة الثانية التى تنص على « القضاء على جميع صور الاستعمار فى قارة أفريقية » .

وعادت الفقرة السادسة من المادة الثالثة فأكدت ذلك بقولها «تكريس الجهود الى أقصى حد من أجل تحقيق الاستقلال التام لجميع الأراضى الأفريقية التابعة » .

وقد نصت هذه القرارات على برنامج شامل لمحاربة الاستعمار ، وآثاره ومنها جريمة التمييز العنصرى ، ووضعت لذلك مجموعتين من الوسائل لتحقيق هذه الغايات ، هى :

(١) مجموعة الوسائل السلمية :

ا ـ دعوة الدول الاستعمارية الى اتخـاذ الاجراءات اللازمة لمنح الاستقلال للشعوب والدول التابعة فى الحال ٠

ب ـ دعوة الدول الكبرى الى الامتناع عن مســـاعدة الحكومات الاستعمارية ٠

جـ ـ ارسال وفد من وزراء الخارجية الى مجلس الأمن أثناء نظره فى موقف الأقاليم الواقعة تحت سيطرة البرتغال ٠

(٢) مجموعة الوسائل القهرية :

ا ـ قطع العلاقات الدبلوماسية والقنصـــلية بين جميع الدول الأفريقية وبين حكومتى البرتغال وجنوب أفريقية ٠

ب ـ مقاطعة البرتغال وجنوب أفريقية مقاطعة اقتصادية تامة ٠

جـ ـ توحيد الحركات التحررية المختلفة ٠

د ـ انشاء جيوش تحريرية ، وقوى من المتطوعين فى أقاليم الدول الأفريقية المســتقلة لمؤازرة الحركات التحررية فى الأقاليم التابعة ٠

هـ ـ انشاء لجنة تنسيق لتنظيم العمل المبــاشر من أجل تحرير الأقاليم الأفريقية التابعة ٠

وبالفعل قطعت علاقات الدول الافريقية بجمهوريتى جنوب أفريقية والبرتغال ٠ كما شنت الدول الأفريقية حملة قوية ضدهما فى المنظمات الدولية بقصد طردهما منها ٠

ومن هذا يتبين أن حركة مكافحة الاستعمار ، والتمييز العنصرى ، بعد أن كانت قبل سنة ١٩٦٣ ارتجالا وفرديا أصبحت فى ظل منظمة الوحدة الأفريقية اجراء مدروسا وجماعيا .

وقد أظهرت الاوساط الرسمية الدولية اهتماما ملحوظا بهذا المؤتمر أثناء انعقاده ٠

ارسل نيكيتا خروشوف ـ الرئيس الســابق لوزراء الاتحــاد السوفيتى ـ برقية الى المؤتمر جاء فيها :

« ان انعقاد مؤتمر له هذه الأهمية هو نتيجة مقنعة لسير حركات التحرر القومى المجيد ٠ هذا السير الذى يمحو من فوق سطح الأرض

بقايا النظام الاستعمارى المشين ، ويفتح السبيل أمام الحرية والسلام والرقى للشعوب ٠٠٠٠٠ » ٠

وارسل كيندى ــ الرئيس السابق للولايات المتحــــدة ــ برقية الى المؤتمر جاء فيها :

« ... ان سير افريقية المتواصل/نحو الاستقلال والوحدة والحرية ــ وهى مبادىء احترمها الشعب الأمريكى وناصرها منذ اليوم الأول من امتنا ــ يعتبر جزءا أساسيا من الكفاح التاريخى للانسان من أجل الكرامة الانسانية وتحقيق شخصيتها ٠٠٠ » ٠

ومن البرقيات ذات المغزى تلك البرقية التى أرسلها « فرنســـــوا دوفالييه » ، رئيس جمهورية هايتى ، الجمهورية الزنجية الوحيدة فى القارة الأمريكية ، ويقول فيها :

« ان قلب الهايتى قلب الأفريقى انتزع من أمه الأولى ، وألقى وسط القارة الأمريكية ٠٠٠ » ويختتم برقيته بأقوى عبارات التضامن ، فيقول:

« بين أفريقية وهاييتى مصير مشترك ٠ اذا كانت أفريقية أكثر قوة ورخاء ، واذا كان شعبها أكثر حرية وسعادة ، فسوف تصبح هاييتى بدورها أكثر قوة ورخاء ، وسوف يصبح شعبها أكثر حرية وسعادة » ٠

وقد علقت صحف أوروبية كبرى على هذا المؤتمر ٠ فقالت مجـــلة الاكسبريس الفرنسية بعددها الصادر فى ١٩٦٣/٥/٣٠ :

« ان توكيد هذه القومية الأفريقية قد أخرج الى حيز الواقع أفعالا ايجابية تمثلت فى قرار حاسم على اعلان الحرب ٠٠ فقد تأسست القطيعة، ونشب الاشتباك سافرا بين الدول الافريقية المستقلة الاثنين والثلاثين من جهة ، وبين حكومتى البرتغال واتحاد جنوب افريقية من جهة أخرى »٠

وقالت مجلة الايكونوميست البريطانية بعـــددها الصـــادر فى ١٩٦٣/٦/١ :

« ٠٠٠ اذا كان الغرب يريد ان يكون له المقدرة على اقناع الأفريقيين بأن يتجنبوا سباق التسلح ، فعلينا أن نقوم بحمـــلة لانهـــاء التفرقة العنصرية » ٠

وفى الخطبة التى القاها الرئيس جمال عبد الناصر فى المؤتمر قال :

« ان جميع التقسيمات التقليدية التى حاول الاستعمار فرضها على القارة ، وتمزيقها الى شمال الصحراء وجنوب الصحراء ٠ الى أفريقية

بيضاء وسوداء وسمراء ... الى أفريقية ناطقة بالفرنسية وأخرى بالانجليزية قد انهارت جميعها ، وجرفتها الحقيقة الأفريقية الأصيلة ... لم يبق على أرض أفريقية غير لغة واحدة هى لغة المصير المشترك مهما اختلفت أساليب المستعمر » .

وكتب « يوليوس نيريرى » رئيس جمهورية تانزانيا مقالا فى مجلة الاوبزرفر فى ١٢ مارس سنة ١٩٦١ ندد فيه بالتفرقة العنصرية فى جنوب أفريقية ، ودعى الى اتخاذ موقف حاسم منها . وقد جاء بهذا المقال « ان سياسة التفرقة العنصرية التى تطبق الآن فى اتحاد جنوب أفريقية تهدم الاعتقاد الراسخ فى كرامة الانسان وهى اهانة بالغة دائمة لكرامتنا كأفريقيين . ولا يعقل أن ينتظر منا قبول هذا الوضع المشين ، والبقاء غير مكترثين بما يؤذى ــ بعنف ــ عواطفنا . ولكى ننجح فى بناء مجتمع كريم فى بلدنا يجب أن نجعل استنكار نظام جنوب أفريقية واضحا فى كل فعل من الأفعال » .

١١ ــ وقد اتبعت نفس السياسة فى مؤتمر القمة الثانى الذى انعقد فى القاهرة فى يوليو ١٩٦٤ تجاه حكومات جنوب افريقية والبرتغال وروديسيا الجنوبية .

وقد جاء فى البيان الذى صدر عقب هذا المؤتمر :

ا ــ « ثامنا ــ خلال مؤتمر القمة الذى عقد فى العام الماضى تم تعيين وزراء خارجية كل من ليبريا ومدغشقر وسيراليون وتونس لكى يمثلوا الاعضاء فى منظمة الوحدة الأفريقية لدى مجلس الأمن خلال بحث مسائل التفرقة العنصرية والاستعمار البرتغالى . وقد قدم ممثلوا هذه الدول تقاريرهم الى المجلس .

ب ــ « عاشرا ــ وقد اتخذ المجلس القرار التالى فيما يتعلق بمسألة التفرقة العنصرية :

١ ــ مطالبة جميع الدول ، وخاصة التى تقوم بينها وبين حكومة جنوب افريقية علاقات تجارية بالتعاون فى مجال مقاطعة جنوب افريقية .

٢ ــ مناشدة جميع الدول المنتجة للبترول أن تكف فى الحال عن تزويد جنوب افريقية بالبترول ، وكافة المنتجات البترولية الأخرى .

٣ ـ الدعوة الى الافراج عن نلسون مانديلا ، ووالتر ســيرولو ، ومانجليو سوبوكوى وغيرهم من المعارضين لمســألة التفرقة العنصرية ، الذين سجنوا أو اعتقلوا طبقا للقوانين التعسفية الجائرة لحكومة جنوب افريقية »(١) •

وفى مايو ١٩٦٥ انعقد مؤتمر التضامن الأفريقى الأسيوى فى أكرا ، وندد أيضا بسياسة التمييز العنصرى •

كما وجهت سكرتارية المؤتمر الدائمة بالقاهرة الدعوة الى المؤتمر الثــانى للمرأة الافريقية الاسيوية الذى تقرر عقده فى الجزائر فى يونية ١٩٦٥ ، ومن ضمن المسائل المدرجة بجدول أعماله الوضع الراهن فى جنوب أفريقية ، وتأييد النضال ضد التفرقة العنصرية •

**ثانيا ـ على المستوى الافريقى الأسيوى :**

رغم ما بذله الاستعمار فى أفريقيا وآسيا ، من جهود مضنية ليبقى على سيطرته ووجوده فيهما فان يقظة شعوبها ، وانتشار الوعى جعل هذه الشعوب تتقارب فى كل المجالات ، والمناسبات ، وتحس بقيمة تضافر القوى وأهمية توحيد الجهود والأهداف •

ونذكر من هذه المؤتمرات :

١ ـ مؤتمر الاجناس المضطهدة فى عام ١٩١٠ •

٢ ـ مؤتمر السلام فى ( بيرفيل ) عام ١٩٢٦ •

٣ ـ مؤتمر العلاقات الأسيوية فى ( نيودلهى ) عام ١٩٤٧ • وهو وان كان مؤتمرا أسيويا بحتا الا أنه عطف على قضايا القارة الأفريقية والاستعمار الجاثم فيها •

٤ ـ وفى يناير ١٩٤٩ عقد فى ( نيودلهى ) مؤتمر آخر • ويمتاز هذا المؤتمر عن سالفه بأنه كان مؤتمرا آسيويا أفريقيــا ، فدل على صحوة شعوب القارتين ، وادراكها لحقيقة المعركة التى تخوضها ، ضد الاستعمار ، والتمييز العنصرى •

---

(١) لم تستجب حكومة جنوب افريقية لهذا النداء العادل الصادر من ممثلى جميع شعوب القارة الافريقية ، بل عمدت بعد قليل الى الحكم عليهم بالاعدام وتنفيذ هــذا الحــكم •

٥ ـ اجتماع ( كولومبو ) فى مايو عام ١٩٥٤ الذى حضره رؤساء وزراء سيلان وبورما والهند واندونيسيا وباكستان ، والذى تعرض لمشاكل الاستعمار فى قارتى أفريقية وآسيا .

وأهمية هذا الاجتماع خاصة أنه خطا خطوة واسعة نحو فكرة التضامن الافريقى الأسيوى حين قدم له رئيس وزراء أندونيسيا اقتراحا يقضى ببحث فكرة عقد مؤتمر أسيوى افريقى بقصد التعاون السياسى والاقتصادى ، فوافق عليه . وقد أشار البيان الذى صدر عن الاجتماع الى ضرورة « مكافحة التمييز العنصرى » كقضية هامة من القضايا الآسيوية الأفريقية .

٦ ـ وقد أدت الجهود التى بذلت بعد ذلك الى عقد مؤتمر ( باندونج ) فى أندونيسيا فى المدة من ١٨ ـ ٢٤ ابريل سنة ١٩٥٥ .

وأهمية مؤتمر باندونج فى أنه نجح نجاحا عظيما رغم تعدد اتجاهات الدول المشتركة فيه . فمنها الدول المرتبطة بالمعسكر الغربى مثل باكستان وتركيا ، وفيتنام الجنوبية ، ولاوس ، وأثيوبيا ... الخ ومنها الدول المرتبطة بالمعسكر الشرقى كالصين الشعبية وفيتنام الشمالية ، ومنها الدول المحايدة كالهند وافغانستان ، وأندونيسيا . هذا بالاضافة الى الدول العربية ، وهى دول تتفاوت أيضا فى اتجاهاتها .

ذلك أن المؤتمر نص فى قراراته السياسية على « استنكار التفرقة والتمييز العنصرى القائم فى مناطق شاسعة من أفريقية ، وتأييد كفاح الشعوب ضد العنصرية » .

وجاء فى بيانه بهذا الشأن ما يلى :

« ... واستنكر المؤتمر الاسيوى الافريقى السياسات والمعاملات الخاصة بالتفرقة والتمييز العنصرى التى تقوم عليها أسس الحكم وعلاقات انسانية فى مناطق شاسعة الأطراف منأفريقية ، وفىأجزاء أخرىمنالعالم . فمثل ذلك السلوك لا يعتبر اعتداء خطيرا على حقوق الانسان فحسب، بل هو كذلك انكار للقيم الأساسية للحضارة والكرامة الانسانية . وأعرب المؤتمر عن عطفه الحار ، وتأييده المطلق للموقف الشجاع الذى يقفه ضحايا التفرقة العنصرية وخاصة الشعوب الأفريقية فى أفريقية الجنوبية ... واكد اصرار الشعوب الآسيوية الافريقية على اجتثاث جذور كل أثر للعنصرية ، وتعهد باستخدام نفوذه المعنوى الكامل للحيلولة

دون خطر سقوط ضحايا لهذا الشر فى أثناء نضال الشعوب فى سبيل اجتثـــاثه » .

٧ ــ ثم انعقد فى القاهرة المؤتمر الأول لتضامن الشعوب الأفريقيـــة الآسيوية بين ١٩٥٧/١٢/٢٦ ، و ١٩٥٨/١/١ ، وأصدر قراراته الآتية الخاصة بالتفرقة العنصرية :

ا ــ استنكر المؤتمر التفرقة العنصرية فى جميع صورها .

ب ــ ندد المؤتمر بموقف حكومة جنوب أفريقية فى هذا الصدد .

جـ ــ ناشد المؤتمر جميع حكومات العالم والأمم المتحـــدة وجميع الدول الأعضاء العمل فى سبيل استئصال التفرقة العنصرية .

٨ ــ وفى المدة من ٥ ــ ١٣ ديسمبر ١٩٥٨ عقد فى اكرا مؤتمر أفريقى حضره أكثر من ٣٠٠ مندوب يمثلون ٦٢ هيئة فى ١٨ بلدا أفريقيا . ولبيان أهمية هذا المؤتمر اعتبر جزءا من الحركة الكبرى . حركة التضامن الأفريقى الآسيوى . فقد أرسلت السكرتارية الدائمـــة للتضامن الافريقى الاسيوى وفدا عنها لحضـــور المؤتمر ، واعلان تاييدها له .

وقد احتج المؤتمر بشدة على التفرقة العنصرية ، واستنكر القوانين التى تميز بين النـــاس ، وبخاصـــة قوانين جنوب أفريقية وروديسيا الجنوبية ، والمناطق البرتغالية .

وأوصى المؤتمر الشعوب الافريقية بالآتى :

ا ــ توقيع عقوبات اقتصـــادية على جنوب أفريقية احتجاجا على التفرقة العنصرية ، ويجب أن تشمل هذه العقوبات مقاطعـة بضائع جنوب أفريقية .

ب ــ جميع البلاد الأفريقية التى تمد جنوب أفريقية بالعمال عليها أن تستخدم هذا الحشد من العمال لاستعمالها الخاص ، لمنعهم عن العمل بصناعة جنوب أفريقية .

جـ ــ الاحتفال بيوم ١٥ ابريل من كل عام كيوم حرية أفريقية .

د ــ الغاء الانتداب فى جنوب أفريقية ، واتخاذ خطوات لمنح جنوب غرب افريقيا استقلاله .

هـ ــ اعطاء جميع البلاد الافريقية الاستقلال المبـــاشر حتى يمكن القضاء على التفرقة العنصرية وفقا لميثاق الأمم المتحدة .

٩ ـ وفيما بين ٣ و ٧ يناير ١٩٦١ اجتمع مؤتمر « الدار البيضاء » من الجمهورية العربية المتحدة ، والحكومة الجزائرية المؤقتة ، وغانا، وغينيا ، ومالى ، والمغرب .

وجاء فى الفقرة الأولى من ميثاق الدار البيضاء :

« نحن رؤساء الدول الافريقية المجتمعين فى الدار البيضاء ... ادراكا منا لمسئولياتنا نحو القارة الأفريقية نعلن تصميمنا على العمل على نصرة الحرية فى جميع أرجاء افريقية وتحقيق وحدتها » .

**ثالثا ـ على الصعيد الدولى :**

١ ـ ان الرأى العام العالمى اليوم لم يعد يقبل سياسة التفرقة العنصرية ولا فلسفتها ، وخاصة بعد أن مرت البشرية فى حروب ، وشاهدت غزوات شاملة . فمن اختلاط العالم القديم نتيجة قيام الامبراطورية الرومانية وانتشار الاسلام بالغزو والتجارة من أدنى العالم الى أقصاه ، وهجوم قبائل المغول فى قلب آسيا على الأصقاع الغنية فى أوروبا ، واختلاط الشرق بالغرب فى الحروب الصليبية وما بعدها ، والاستكشافات الجغرافية ، وولوج الغرب العالم الجديد واحراش « القارة المظلمة » ـ كما يسمونها ـ وتعدد الهجرات بالجملة ، ونشأت بفعل ذلك كله دول جديدة مثل استراليا ، ونيوزيلنده ، واتحاد جنوب أفريقية ، والولايات المتحدة ، وجمهوريات أمريكا اللاتينية ، واختلطت الأجناس والأنساب . ففرنسا وايطاليا مثلا خليط من الجرمان والسلت والفندال والفرب والمغول والبيض والسمر . وألمانيا خليط من المغول والتتار والسلت والصقالبة الآريين . وانجلترا خليط من أبناء قبائل أوروبا الذين غزوها منذ روما القديمة بواسطة يوليوس قيصر . والعرب خليط من السمر والمغول والتتار والصقالبة والسود وأهل البادية وأهالى حوض البحر الأبيض المتوسط . والولايات المتحدة خليط من الأنجلو ساكسون والجرمان واللاتين والعرب والهنود الحمر .

ولا يمكن تبعا لذلك ادعاء نقاء العنصر فى أى دولة من دول العالم ، أو محاولة نسبتها الى هذا الجنس أو ذاك مع تجاهل سائر الأجناس الأخرى التى اختلطت بها .

فضلا عن أنه يصعب الارتكاز على فكرة الدين أو الحضـــارة كأساس للتمييز العنصرى ، أو بين دولة وأخــــرى . ذلك لأن الأديان مشتركة بين الانسانية جمعاء ، ولا تصلح كأساس لقيام دولة من الدول ، أو للتفرقة بين الشعوب وكذلك الحضارة . فان قوة الدفع الزمنى للتطور العالمى عملت وتعمل على تداول الحضارة، وانتقالها من مكان الى مكان .. ومن شعب الى شعب ... فليست مقصورة على أيهما ، وليست احتكارا لأحد . وقد سارت الشعوب خطوات بعيدة نحو المساواة ، والقضاء على التمييز العنصرى ، وحطمت العقبات التى تعوق دون ذلك .

٢ ـ وفى سنة ١٩١٩ ، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، بذلت جهود كبيرة للنص فى ميناق « عصبة الأمم » على المســـاواة بين الناس والاجناس استكمالا لمقترحات الرئيس ولسون بالنص على حرية الرأى والعقيدة فى الميثاق . وطالب البارون ماكينو ، مندوب اليابان فى اللجنة التحضيرية بضرورة بحث موضوع المساواة بين الشعوب كمبدأ أساسى للعصبة ، ولضمان نجاحها ، وعلى أن يتعهد الأعضاء بمعاملة جميع رعاياهم ورعايا بعضهم البعض معاملة قائمـــة على المساواة والعدالة دون تمييز بسبب الجنس أو اللون . واستند فى هذا الطلب الى اشتراك جميع الشعوب فى تلك الحرب جنبا الى جنب ، والتضحية من أجل كسب الحرب ولتحقيق مثل عليـــا مشتركة . ولكن الدول الاستعمارية حاربت كل هذه الاتجاهات وتجاهلت كل الاعتبارات فلم يأخذ بأى من الاقتراحين . ولم تحفل عصبة الأمم بين الحربين العالميتين بمصائر الشعوب المضـــطهدة ولا بتحقيق المساواة بين البيض وغير البيض .

٣ ـ ولكن تغير الوضع فى أعقاب الحرب العالمية الثانية كرد فعــــل للاضطهاد العنصرى أثناء سيطرة النازية على أوروبا . وجاء فى ميثاق الأمم المتحدة ـ التى حلت محل عصبة الأمم ـ مايلى :
« نحن شعوب الأمم المتحدة .... وقد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب وأن نؤكد من جديد ايماننا بالحقوق الأساسية للانسان ، وبكرامة الفرد وقدره ، وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية لهذا فان حكوماتنا قد ارتضت ميثاق الأمم المتحدة وأنشأت بمقتضاه هيئة تسمى الأمم المتحدة » .

وجاء فى الفقرة الثالثة من المادة الأولى بشأن مقاصد الميثاق مايلى :

« تعزيز احترام حقوق الانسان ، والحريات الأساسية للناس جميعا ، والتشجيع على ذلك اطلاقا بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين » .

وجاء فى المادة الخامسة والخمسين بالفقرة (حـ) ما يؤكـــد المساواة بين الشعوب والأجناس . وفى ذلك تقول :
« أن يشيع فى العالم احترام حقـوق الانسان ، والحـــريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين » .

وقد صدر الاعلان العالمى لحقوق الانســـان فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٤٨ بموافقة الجمعية العامة للامم المتحدة بما يشبه الاجماع. وهو تعهد أدبى دولى يؤيد المساواة بين الشعوب بلا تمييز بسبب اللون أو الجنس .

وهناك الاتفاق الأوروبى لحقوق الانسان الذى وقع عليه فى روما بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٠ . وأضيف اليه بروتوكول باريس الذى أمضى فى ٥ مارس ســـنة ١٩٥٢ ، ودخل فى دور التنفيذ فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٥٣ . وهو يضمن الحريات الهامة لمواطنى الدول الأعضاء مع بيانها بطريقة أكثر عمقا وايجابية .

وقد اهتمت دساتير ما بعد الحرب العالمية الثانية بالاتجاهات السياسية والاجتماعية لعالم اليوم وضرورة السير حثيثا نحو القضاء على الكراهية بين الناس على اساس التفرقة بين الأجناس ، وتحكم الأغلبية فى الأقلية والعكس . وجاء فى العديد منها ، مثل دساتير فرنسا وايطاليا ويوغسلافيا ما يوطد دعائم السلام ، وضمان حريات الفرد ، وعدم اضطهاده بسبب الرأى والعقيدة ، ويحطم حواجز التمييز العنصرى . كما أن دستورنا المؤقت الصادر فى مارس سنة ١٩٦٤ يساير روح عالم اليوم .

وقد جاء فى ميثاقنا الوطنى الذى قدمه الرئيس جمال عبد الناصر فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الوطنى فى ٢١ مايو سنة ١٩٦٢ ، واقره المؤتمر فى ٣٠ يونية سنة ١٩٦٢ مايلى :

« ان الحرية وحدها هى القادرة على تحريك الانسان الى ملاحقة التقدم وعلى دفعه • والانسان الحر هو أساس المجتمع الحر ، وهو بناؤه المقتدر » •

وعلى ضوء هذه الروح نفسها أصدرت حكومة الولايات المتحدة فى يوليو ٩٦٤ « قانون الحقوق المدنية للملونين » .

٤ ـ ولقد واصلت المنظمة ، والهيئات واللجان المختلفة المنبثقة منها - جهودها الجبارة لتصفية الاستعمار ، وبحث مشكلة التفرقة العنصرية والقضاء على جرائيمها ، وتوصية الدول التى تمارس هذه الأساليب الهمجية بضرورة الاقلاع عنها . ولم تأبه لجان المنظمة باحتجاجات هذه الدول الاستعمارية ، ولا بمزاعمها القائلة بأن المسألة فى نطاق السيادة التى لا سلطان للدول الأخرى ، ولا للمنظمة الدولية عليها .

ففى ١٩٦٠/١٢/١٤ اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارا بمنح البلاد المستعمرة استقلالها •

٥ ـ وبناء على هذا القرار قدمت الجمهورية العربية المتحدة وبعض الدول الأخرى اقتراحا لمجلس الأمن تطالب فيه بالاحترام اللازم لحقوق الانسان وحرياته الأساسية فى أنجولا • الا أن هذا القرار لم يحصل على الأغلبية وان كان أصدقاء البرتغال لم يؤيدوها ولكن امتنعوا عن التصويت فقط •

وفى ٦ يونية سنة ١٩٦١ بدأ مجلس الأمن ـ بناء على طلب المجموعة الأفريقية الأسيوية ـ فى مناقشة الموقف فى أنجولا • وكان مصير هذا الطلب كسابقه وان نجح نجاحا جزئيا باصدار مجلس الأمن قرارا فى ٩ يونية سنة ١٩٦١ يطلب فيه من البرتغال الكف فورا عن اتخاذ اجراءات القمع •

وأصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة قرارها الاخير فى ٢٠ يناير ١٩٦٢ ، وأعلنت فيه أن استمرار البرتغال فى رفض اعترافها بالأمانى المشروعة لشعب أنجولا يشكل مصدرا دائما للاخلال بالأمن الدولى ، ويهدد السلام • واستنكرت الجمعية العامة بشدة التدابير الهمجية ، والأعمال المسلحة التعسفية التى تتخذها البرتغال ضد شعب أنجولا ، وانكار حقوق الانسان •

وفى ١٩ ديسمبر ١٩٦٢ طلبت الجمعية العامة من مجلس الأمن اتخاذ جميع الاجراءات الكفيلة بتنفيذ البرتغال التزاماتهـــا ازاء الجمعية العامة •

٦ ـ وفى ١٥ نوفمبر ١٩٦٣ دعا مجلس ادارة مكتب العمل الدولى ، التابع لهيئة الأمم المتحدة ، المدير العام للمكتب بالاجماع الى أن يتقدم بصفة عاجلة الى اللجنة المشكلة من مجلس الادارة لشئون جنوب افريقية بمقترحات بشأن ما يمكن أن تسهم به هيئة العمل الدولية فى سبيل القضاء التام على التفرقة العنصرية ، والعمل الواجب اتخاذه لضمان حماية الكرامة الانسانية واحترام مبادىء الدستور •

واستجابة لهذه الدعوة وضع البرنامج الحالى لهيئة العمـــل الدولية فى سبيل القضاء على التفرقة العنصرية فى جمهورية جنوب افريقية • وقد تم وضع هذا البرنامج على أساس أوفى وأحدث المعلومات المتوافرة لمكتب العمل الدولى • •

وقد جاء فى التصريح الذى اذاعه مكتب العمل الدولى بهـــذا الشأن مايلى :

ا ـ « ان حكومة جنوب افريقية لم تعجز فقط عن ان تعاون فى تحقيق الأغراض المحدودة فى ديباجة الدستور ، بل ما برحت تشرع وتطبق السياسة غير الانسانية للتفرقة العنصرية التى تتنافى كلية مع أغراض ومبادىء هذا الدستور • ومن ثم تخلق موقفا مفزعا •

ب ـ « وحيث ان تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص بالنسبة لجميع البشر، بغض النظر عن العنصر ، لم يعد أمرا يتعلق بالشئون الداخلية لجمهورية جنوب افريقية وحدها •

جـ ـ « وبما أن مجلس أمن الأمم المتحدة بمقتضى قراره الاجماعى الصادر فى ٤ ديسمبر ١٩٦٣ أكد الاعتقـــاد بأن الموقف فى جنوب أفريقية يعكر السلام والأمن الدولى الى حد خطير •

د ـ « ولما كانت جمهورية جنوب أفريقية تنتهك باصرار ، وبأسلوب صارخ هـــذا المبدأ عن طريق الاجراءات التشريعية والادارية وغيرها مما يتنافى مع الحقوق الأساسية للانسان ، بما فيها

من التحرر من عمل السخرة ، والحرية النقـــابية ، وحرية اختيار العمل والمهنة •

« وبما أن مثل هذا الانتهاك العمد والصارخ لذلك المبدأ قد ثبت بواسطة هيئة العمل الدولية عن طريق تحرى الحقائق فيما يتعلق بالسخرة ، والحرية النقابية ، والتحرر من التفرقة العنصرية بالنسبة للاستخدام والمهنة •

هـ ــ « وحيث ان مؤتمر العمل الدولى قد شجب بقرار اتخذه فى ٢٩ يونيو ١٩٦١ السياســـــات العنصرية لحكومة جنوب أفريقية ، ودعا هذه الحكومة الى الانسحاب من هيئة العمـــل الدولية الى أن تقلع عن التفرقة العنصرية •

« ولما كانت جنوب افريقية قد تغاضت عن دعوة مؤتمر العمل الدولى لها بالانسحاب من عضوية الهيئة ولكنها عادت كنتيجة للمناقشات والتطورات التى حدثت فى دورة ١٩٦٣ للمؤتمر، وللقرارات التى اتخذها مجلس الادارة فى يونيو ونوفمبر ١٩٦٣، وفى فبراير ١٩٦٤ فأبلغت بمذكرتها المؤرخة ١١ مارس ١٩٦٤ القرار الذى اتخذته بالانسحاب من الهيئه •

و ــ « وحيث أن مجلس الأمن قد أعرب فى قراره الاجماعى رقم س/٥٤٧١ الصادر فى ٤ ديسمبر ١٩٦٣ عن « اعتقاده الراسخ فى أن سياسات التفرقة والتمييز العنصرى كما تمارسها حكومة جنوب افريقية تثير اشمئزاز الضمير الانسانى ، وأنه لابد من ايجاد بديل ايجابى لهذه السياسات واستنكر عدم استجابة حكومة جمهورية جنوب افريقية الى النداءات التى تضمنتهـــا القرارات الموجهة اليه من الجمعية العامة ومجلس الأمن » •

ز ــ « فان المؤتمر العام لهيئة العمل الدولية قد وطن العزم على أن ينهض بمسئوليته نحو تهيئة الحرية والكرامة لشعب جنوب أفريقية ، والقيام بدوره فى ضمانهما ، على أن يعارض سياسة التفرقة العنصرية التى تمارسها حكومة جنوب افريقية •

« ومع توكيده بان الحكومة التى تمارس عمدا التفرقة العنصرية ليست جديرة بالانتماء الى مجتمع الأمم .

وقد أستعرض برنامج هيئة العمل الدولية التشريعات الشاذة والاجراءات الجائرة التى تمارس حكومة جنـــوب

أفريقية التمييز العنصرى عن طريقها ، وأبرز على ضوئها عدة اقتراحات جادة بناءة منها :

ا — تهيئة تكافؤ الفرص والتسوية فى المعاملة بغض النظر عن العنصر فى مجال الاستخدام والمهنـــة والتدريب المهنى وابطال كل التشريعات واللوائح والاجراءات التى تحول دون ذلك ٠

ب — الغاء الأحكام الخاصة بمكاتب العمل التى يتضمنها قانون العمل الوطنى لعام ١٩١١ ، واللوائح التنفيذية الصادرة بالتطبيق له فى ٦ يناير ١٩٥٩ ٠

جـ — الغاء الأحكام المنظمة لدخول الوطنيين المناطق الحضرية، والمحددة لاقامتهم فى هذه المناطق ، والتى يتضمنهـــا قانون « المناطق الحضرية » لعام ١٩٤٥ ، واللوائح الصادرة بمقتضاه ٠

د — الغاء العقوبات الجنائية الخاصة بفسخ عقود الاستخدام٠

هـ — الغاء احكام التشرد ٠

و — الغاء قانون الوطنيين ٠

ز — الغاء القسم ٧٥ من قانون السجون لعام ١٩٥٩ الذى يبيح تأجير المساجين للافراد والشركات والجمعيـــات ، أو وضعهم تحت تصرف الحكومة ٠

ح — منح الافريقيين نفس الحماية المكفولة بمقتضى القـانون الجنائى العام ، والغاء القسم رقم ٩ من قانون ادارة شئون الوطنيين لعام ١٩٥٧ ، الذى يخول القوميسيرين الوطنيين سلطات قضائية جنائية على الوطنيين ٠

ط — الغاء التفرقة على أساس العنصر بالنسبة لحق التنظيم النقابى للعمال . ومن أجل هذا يجب أن تلغى جميـــع النصوص القانونية التى تستثنى العمال الافريقيين من قانون التوفيق الصناعى فيما يختص بحـــرية تكوين النقابات ، أو الانضمام اليها ، أو الاضراب .

ويختتم التقرير عباراته بمايلى :

« ان مثل هذه التغييرات البعيدة المدى انما تستتبع تبديلا كليا لتشريع العمل والخدمات الاجتماعية والعلاقات الصناعية فى جمهورية جنوب أفريقية • وعلى هيئة العمل الدولية أن تعـد نفسها لتأدية دورها الملائم بالتعاون مع الأمم المتحدة فى وضـع خطط أبعد وأشمل لتحقيق هذا الغرض ، وتستهدف تحقيق الهدف المبين فى القرار الذى أصدره مجلس الأمن بالاجماع بشأن حل الموقف الراهن فى جنوب افريقية » •

# خاتمة

ان مشكلة التمييز العنصرى اليوم لم تعد مسألة تفرقة جنسية — كما كانت فى الماضى — بين الجنس الأوروبى وغيره من الأجناس .. وانما هى جزء من مخطط استعمارى يطلق عليه « الاستعمار الجديد » الذى حل محل الاستعمار القديم .

يقول الدكتور قوامى نكروما فى كتابه الأخير ( الاستعمار الجديد ) : « يمثل الاستعمار الجديد اليوم الامبريالية فى آخر مراحلها ، واشدها خطرا على الغالب . فقد كان من الممكن فيما مضى تحويل أية بلاد مغلوبة على أمرها الى مستعمرة . أما اليوم فقد باتت هــذه العملية متعذرة ومستحيلة .

« ويتلخص جوهر الاستعمار الجديد فى ان الدولة الخاضعة له تكون من الناحية النظرية مستقلة تمام الاستقلال ، ومتمتعة بجميع الزخارف الشكلية للسيادة الدولية . أما فى الواقع فان نظامها الاقتصادى ، وبالتالى سياستها الخارجية ، يكونان خاضعين للتوجيه من الخارج . ويتخذ شكل هذا التوجيه وطرائقه فى الغالب صورا شتى . ففى الحالات المتطرفة ترابط قوات الدولة الامبريالية فى أراضى الدولة الخاضعة للاستعمار الجديد لحمايتها ، والسيطرة على حكومتها . لكن ممارسة السيطرة الاستعمارية تكون فى الغالب ، عن طريق الوسائل الاقتصادية والمالية . وقد تجد الدولة الخاضعة له نفسها مرغمة على استيراد السلع المصنوعة من الدولة الامبريالية وحدها ، دون أن تتعرض هذه السلع لمنافسة منتجات دولة أخرى .

« وتكون الدولة الممارسة للسلطة فى ظل نظام الاستعمار الجديد ، فى الغالب ، هى عين الدولة التى كانت تحكم البلاد الخاضعة له فى السابق . لكن هذا الوضع ليس حتميا دائما . فقد كانت فرنسا مثلا

هى الدولة الامبريالية السابقة فى فيتنام الجنوبية . أما الآن فقد انتقلت سيطرة الاستعمار الجديد الى الولايات المتحدة • ومن المحتمل ان يعهد بسيطرة هذا الاستعمار الجديد ، فى بعض الحالات ، الى مجموعة احتكارية من المصالح المالية لاترتبط بدولة معينة بالذات • ولعل سيطرة الاحتكارات المالية الدولية الكبرى على الكونغو فى الوقت الحاضر هى خير نموذج على هذه الحالة •

« فالدولة الخاضعة للاستعمار الجديد ليست حرة فى تقرير مصيرها• ولعل هذا العامل هو الذى يجعل من الاستعمار الجديد خطرا بالغا يهدد السلام العالمى »(١) •

ويقول :

« ولايستمد حكام الدول الخاضعة للاستعمار الجـديد قدرتهم على الحكم من ارادة شعوبهم وانما يستمدونهـــا من العون الذى يلقونه من سادتهم المستعمرين الجدد • ولذا فلايبدى هؤلاء الحكام اهتماما بتطوير التعليم ، ولا بتقوية القدرة على المساومة عند عمالهم الذين تستخدمهم المؤسسات الأجنبية • كما لايتخذون أية خطوة تهدف الى تحدى النظـام الاستعمارى فى التجارة والصناعة ، اذ أن هدف الاستعمار الجديد هو الحفاظ عليه (٢) .

ويقول عن أساليب الاستعمار الجديد :

« بالرغم من أن السيطرة الاقتصادية هى هدف الاستعماريين الجدد الا انهم لا يحصرون عملياتهم فى المجال الاقتصادى ، فهم يلجأون الى نفس الأساليب الأستعمارية القديمة فى التسلل من دينية وتعليمية وثقافية .

ولكن هذا التخريب غير المباشر كله لايكاد يقارن فى نتائجه بالهجوم العنيف الذى تشنه الرأسمالية العالمية • فهناك تقوم ( امبراطورية رأس المال ) التى تتجسد فى شكل شبكة واسعة الامتداد من النشاط داخل القارة على صعيد واسع التنوع والتشعب ، تسيطر على أرواح الملايين من الناس فى هذه الاجزاء التى تعتبر أكثر من غيرها فى انحاء العالم تباعدا وانفصالا ، وتدير صناعات بأكملها مستغلة عمال وثروات شعوب القارة.

---

(١) ترجمة خيرى حماد . أهرام ١٩٦٦/٣/١٣ .

(٢) المصدر السابق . أهرام ١٩٦٦/٤/١٤ .

لارضاء جشع قلة من الناس • وهنا يكمن ينبوع السلطان ، ومركز توجيه السياسات ضد التيار التقدمي القوى • وهنا يتمثل العدو القاسي لوحدة افريقية واستقلالها » (١) .

ويقول :

« اثار تحرر عدد من الدول الجديدة من النير الاستعماري مشكلة رئيسية جديدة ، وهي كيفية الاحتفاظ بهذه البلاد ضمن اطار العلاقات الاستعمارية بعد ان نزعت سيطرة الاستعمار • وهكذا بدأت المرحلة الجديدة في تطور الامبريالية ، وهي تكييف الاستعمار للأوضاع الجديدة التي خلقتها تصفية السيطرة السياسية للدول الاستعمارية ، ليتمكن الاستعمار من الحفاظ على وجوده بأساليب أخرى • وليست فيتنام وكوريا والعدوان على السويس والجزائر الا أمثلة صارخة على المدى الذى تصل اليه الدول الامبريالية في محاولتها الحفاظ على مستعمراتها • وهو موقف يتعزز بتدخل أمريكا كالقوة القيادية في الصراع على السيطرة الاحتكارية الرأسمالية العالمية • وقد اتخذ هذا الصراع محتوى مذهبيا عن طريق رفع شعار ( مكافحة الشيوعية ) ، وجعله الحافز على القتال من أجل اعادة القطاع الاشتراكي في العالم من جديد الى السيطرة الاستغلالية لاحتكارات الغرب المالية •

« وكانت المعركة المحمومة للسيطرة على الزيت ، واعتبارها عاملا رئيسيا ضخما في اخماد الحركات الشعبية التي قامت في عدد من المستعمرات وشبه المستعمرات في الشرقين الأدنى والأوسط والشرق الأقصى وشمال أفريقيا وأمريكا اللاتينية • وليست سلسلة الأحداث التي وقعت في ايران والعراق والكويت وعدن والعربية السعودية وكوبا وفنزويلا والبرازيل والجزائر ، والتي تفجرت في شكل ثورات وحروب الا جزءا من حوافز الصراع على الزيت والسيطرة عليه » •

« ويضاف الى ذلك احتكارات التعدين ، والمواد الأولية ، والغذائية ، والاستعدادات العسكرية ، والحروب العديدة التي خاضتها الدول الاستعمارية مع مستعمراتها منذ انتهاء الحرب ، ومن تطوير أدوات الفضاء النووية الرهيبة ، ومن السباق المحموم على الزعامة في ميدان اكتشاف الفضاء » •

---

(١) المصدر السابق • أهرام ١٩٦٦/٣/٢٢ •

« وليست المجموعة الأوروبية التى تمثل السوق المشتركة الا صورة واحدة منها »(١) .

ويقول عن دور أمريكا بالذات فى الاستعمار الجديد :

« وبالرغم من سياسة العدوان السافر التى تتبعها الولايات المتحدة فى أماكن كثيرة من العالم فانها كثيرا ماتتظاهر بأنها الدولة المناهضة للاستعمار فى استنكارها للامبريالية البريطانية . ويقول آى . بالم . دات فى المقال الذى نشره فى مجلة ( الشئون الدولية ) الصادرة فى موسكو فى اغسطس عام ١٩٦٤ تحت عنوان ( سياسة بريطانيا الاستعمارية ومنافسات الاستعمار الجديد ) : « ان هذا الموقف مهلهل اذ كثيرا مايسقط القناع الزائف حتى عند عرض مشروعات القرارات المناهضة للاستعمار التى تتقدم بها الأغلبية الممثلة فى دول الكتلة الأفرو أسيوية والكتلة الاشتراكية فى الأمم المتحدة ، اذ كثيرا ماتجد أمريكا وبريطانيا نفسيهما وحيدتين ، أو معهما فرنسا والبرتغال وجنوب أفريقية واستراليا ضد هذه القرارات » .

« ولاحظ الموجهون الدهاه لرأس المال الأمريكى ارتفاع المد القومى فى المناطق المستعمرة ورأوا فيه فرصة للتسلل الى المناطق التى كانت الامبرياليات المتنافسة تحرص على جعلها وقفا عليها وحدها »(٢) .

وقد بلغت الاستثمارات الخارجية لأوروبا وأمريكا :

| | سنة ١٩٠٠ | سنة ١٩٣٠ | سنة ١٩٤٩ |
|---|---|---|---|
| | مليون دولار | مليون دولار | مليون دولار |
| أمريكا | ٥٠٠ | ١٩٠٠٠ | ١٩٠٠٠ |
| بريطانيا | ١٢٠٠٠ | ١٧٠٠٠ | ١٢٠٠٠ |
| فرنسا | ٦٠٠ | ٧٠٠٠ | ٢٠٠ |

اما استثمارات أمريكا وحدها فى أفريقيا بين عامى ١٩٤٥ و ١٩٥٨ فقد زادت من ١١٠ مليون دولار الى ٧٨٩ مليون دولار . وقد جاءت هذه الزيادة — لامن زيادة رءوس الاموال المستثمرة — وانما من الأرباح التى

(١) المصدر السابق . اهرام ١٩٦٦/٣/٢٤ .
(٢) المصدر السابق . اهرام ١٩٦٦/٣/٢٨ .

تحققت لها فى هذه الفترة التى تلت الحرب الأخيرة . أى انها حققت أرباحا توازى ۸۰۰ ٪ .

وقد ارتفعت قيمة التجارة الأمريكية مع أفريقية فى هذه الفترة نفسها من ١٥٠ مليون دولار الى ١٢٠٠ مليون دولار . وهو رقم يمثل نحو ١٥٪ من مجموع تجارة أفريقية الخارجية كلها (١) .

وقبل الحرب العالمية الثانية لم تكن نسبة استثمارات أمريكا فى القارة الافريقية تزيد على ٣ ٪ من مجموع استثماراتها الخارجية ، بينما لم تزد نسبة تجارة القارة معها على ٥ ٪ من مجموع التجارة الأفريقية(٢) .

ومن الضرورى حقا لفهم مايقع فى العالم اليوم ، وفى افريقية بوجه خاص ، أن نتعرف على المؤثرات والضغوط الاقتصادية التى تقف وراء الأحداث السياسية .

ولعل أول مانلاحظه من تلك العلاقات الامبريالية الاحتكارية المتشابكة هو التسلل المستمر من جانب المجموعات المالية العالمية ذات السلطات السياسية فى المشروعات الصناعية والتجارية الضخمة التى تتحول الى السيطرة على الاقتصاديات القومية والعالمية بحيث تتحكم مصالح هذه الاحتكارات فى السياسات القومية والعالمية ، ويحتل ممثلوها مراكز هامة فى الحكومة والجيش والبحرية والسلك السياسى والقوة الجوية ، وفى كافة الهيئات التى تصنع السياسات وتقررها ، وفى المنظمات والهيئات الدولية (٣) .

ولقد ذكر الدكتور نكروما مثلا رائعا على هذا الاخطبوط السياسى ذى الأذرع الاقتصادية فقال :

« فى عام ١٩٠٤ ذكر رئيس جمهورية ليبريا ، آرثر باركلى ، ان قرض المائة ألف جنيه استرلينى الذى عقدته ليبريا مع بريطانيا عام ١٨٧١ بفائدة قدرها ٧ ٪ ، والذى لم يصل منه فى الواقع الى خزينة الدولة سوى ٢٧ الفا بسبب الاختلاسات الرسمية ، يتطلب سداده تخصيص جميع عائدات البلاد لمدة ثلاث سنوات متعاقبة . وقد نجحت الحكومة البائسة فى عقد قرض آخر دولى بمليون وسبعماية الف دولار أسهمت

---

(١) المصدر السابق . أهرام ١٩٦٦/٣/٢٨ .
(٢) المصدر السابق . أهرام ١٩٦٦/٣/٢٩ .
(٣) المصدر السابق . أهرام ١٩٦٦/٣/٣١ .

فيه جميع البيوتات المالية فى بريطانيا وفرنسا وهولندة وألمانيا وأمريكا .
ولم يصل الى الخزانة الليبيرية من هذا القرض الا جزءا تافها بينما مضت الأرباح الخيالية الى المصارف صاحبة القرض . ولم تتمكن حكومة ليبيريا من سداد الفوائد المركبة المتراكمة الا فى عام ١٩٢٦ عندما حصلت عن طريق شركة فايرستون الأمريكية على قرض جديد قيمته خمسة ملايين دولار بفائدة ٧ ٪ لم تتسلم منه ليبيريا حتى عام ١٩٤٥ سوى نصـــفه.
وهكذا وجدت ليبيريا نفسها تحت وطأة هذه الديون مضطرة الى منح شركة فايرستون امتيازات واسعة فى أرضيها لزراعة أشجار المطاط (١) .

ويقول عن حقيقة الوضع الراهن فى الدول المستقلة حديثا :

« حقيقة هذا الوضع أن معظم دولنا الأفريقية الجديدة تجد نفسها وقد ولدت من رحم الاستعمار مذعورة من عالم الفاقة والمرض والجهل والافتقار الى الموارد المالية فتتردد فى قطع الشعرة الباقية التى تشدها الى « الأم » الامبريالية التى ولدتها »(٢) .

ويسكن افريقية نحو ٢٨٠ مليونا من الناس . أى نحو ٨ ٪ من مجموع سكان العالم بينما لاتمثل افريقية أكثر من نحو ٢ ٪ من مجمل انتاج العالم . ومع ذلك فان عمليات المسح لموارد افريقية الطبيعية تظهر أن فى القارة ثروات هائلة لم يكشف عنها بعد . ونحن نعرف ان مخزونات الحديد فيها تبلغ ضعف مخزوناته فى أمريكا . كما تبلغ ثلثى مخزوناته فى الاتحاد السوفييتى ، وأنها تقدر بنحو بليونى طن . وتقدر مخزونات الفحم فى افريقية بأنها كافية ليستمر الانتاج نحو ٣٠٠ عام . وهناك حقول بترول جديدة يجرى اكتشافها فى جميع أرجاء القارة .

وتضم افريقية أكثر من ٤٠ ٪ من الطاقة المائية فى العالم كله ، وبذلك تفوق حصتها من هذه الطاقة حصة أية قارة أخرى . ومع ذلك لم يستخدم من هذه الطاقة حتى الآن أكثر من ٥ ٪ منها . وبالرغم من وجود المناطق الصحراوية الفسيحة فيها فانها تضم من الأراضى الصالحة للزراعة والرعى أكثر من تلك التى تضمها الولايات المتحدة الامريكية ، أو الاتحـــاد السوفيتى . وفيها من هذه الأراضى أكثر مما فى القارة الاسيوية كلها .

---

(١) المصدر السابق . اهرام ١٩٦٦/٤/٢ .
(٢) المصدر السابق . اهرام ١٩٦٦/٣/٢٢ .

وتبلغ مساحة مناطق الغابات في قارتنا ضعف مساحتها في الولايات المتحدة ٠

ولكى نعطى فكرة عن أهمية الثروة المعدنية فى أفريقية نذكر انها تنتج ٩٥ ٪ من انتاج العالم من الكوبالت ، ٩٠ ٪ من الماس ، ٩٠ ٪ من اليورانيوم ، و ٤٠ ٪ من الفوسفات ، و ٦٥ ٪ من الكروم ٠ ومعظم هذه المعادن تتركز فى جنوب ووسط القارة ٠

ولكى نأخذ فكرة أخرى عن أهمية تلك المعادن للدول الاستعمارية نذكر أنها تصدر لبريطانيا ١٩ ٪ من مسحوق الصفيح ، ٢٩ ٪ من برادة الحديد ، ٨٠ ٪ من المنجنيز ، و ٤٦ ٪ من النحاس ، ٤٧ ٪ من البوكسيت، و ٥٠ ٪ من الكروم ، و ٦٦ ٪ من الاسبستوس ، و ٨٢ ٪ من الكوبالت، ٩١ ٪ من الانتيمون ٠

كما أنها تصدر لفرنسا :

٣٢ ٪ من القطن ، ٣٦ ٪ من برادة الحديد ، و ٥١ ٪ من الزنك ، ٨٥ ٪ من الرصاص ، و ١٠٠ ٪ من الفوسفات ٠

كما تصدر لألمانيا :

٨ ٪ من النحاس ، ١٠ ٪ من الحديد ، ١٢ ٪ من مسحوق الرصاص، و ٢٠ ٪ من المنجنيز ، و ٧١ ٪ من الفوسفات ٠

وبالرغم من ان افريقية تملك أكثر من ٥٣ ٪ من أهم المعادن الاساسية، والموارد الأولية اللازمة للصناعة فى العالم فان هذه القارة مازالت متخلفة كل التخلف فى ميدان التنمية الصناعية(١) ٠

ويقول تقرير اللجنة الاقتصادية للامم المتحدة الذى نشر فى ديسمبر عام ١٩٦٢ تحت عنوان ( التطور الصناعى فى افريقية ) ان الفجوة التى يخلقها البحر الأبيض المتوسط بين القارات قد اتسعت بسرعة فى القرن العشرين تفوق سرعة اتساعها فى أى وقت سابق . وقد يكون معدل الانتاج الفردى قد زاد فى أفريقية ، ولاسيما فى الحقبتين الأخيرتين اللتين شهدتا زيادة تتراوح بين ١٠ ٪ و ٢٠ ٪ ، ولكن البلاد الصناعية شهدت فى الفترة نفسها زيادة تبلغ ٦٠ ٪ ، ويبلغ معدل انتاجها الصناعى الفردى نحوا من ٢٥ ضعف معدل الانتاج فى أفريقية اذا اعتبرناها وحدة كاملة٠

---

(١) المصدر السابق ٠ أهرام ١٩٦٦/٣/١٤ ٠

ويكون هذا الفرق بالنسبة الى الجزء الأكبر من القارة أكثر من هـذه النسبة • وذلك لأن الصناعة تميل الى التركيز فى مناطق صغيرة فى الشمال والجنوب •

وتقول التقديرات ان نحوا من ٥٠ ٪ من مجمـوع رءوس الأموال الأجنبية المستثمرة فى افريقية تتركز فى جنوب افريقية • ويبلغ مجموع الاستثمارات البريطانية وحـدها ٢٨٠٠ مليون دولار بينما تصـل الاستثمارات الأمريكية الى نحو ٨٤٠ مليون دولار • واظهرت الأرقام الأمريكية ان أكثر القطاعات فائدة هو قطاع الاستثمارات فى عمليات التعدين وصهر المعادن فى جنوب افريقية اذ ان نسبة الارباح فيها تفوق نسبتها فى أى استثمار آخر فى الولايات المتحدة نفسها • والتفسـير الوحيد لهذا الارتفاع فى الأرباح هو رخص الأيدى العاملة فى افريقية •

وتعتبر مجموعة دى بيرز الانجلو ــ امريكية المسيطرة على اقتصاد جنوب افريقية ــ بالاضافة الى امتداد نفوذها الى افريقية الجنوبية الغربية وزامبيا ، والى ارتباطها بشركات التعـدين فى معظم الدول الأفريقية الأخرى • وتعتبر مناجم الذهب واليورانيوم والفحم والاسبتسوس من أهم مجالات عمل الاتحاد الانجليزى ــ الامريكى فى جنوب أفريقية • وتعتبر مناجم النحاس أهم نشاطات الاتحاد فى زامبيا ( روديسـيا الشمالية ) وروديسيا الجنوبية • وقد انتشرت مصـالحه عن طريق الشركات المرتبطة به الى تنجانيقا واوغنده والكونجو وانجولا وموزمبيق وافريقية الغربية ، بل والى الصحراء الكبرى وافريقية الشمالية(١) •

يتضح من ذلك ان الاستعمار الجديد :

١ ــ له مصالح حيوية بالغة الأهمية تدفعه الى الاحتفاظ بالمناطق التى توجد فيها المواد الأولية والأيدى العاملة الرخيصة فى أفريقية •

٢ ــ ان الاستعمار الجديد له نفس وسائل الاستعمار القديم أن لم يكن فى الشكل ففى المضمون •

لذلك فانه منذ استقلت معظم دول القارة رأى ان سبيله الوحيد الى استنزاف ثرواتها الحيوية بالنسبة له ان يتركز فى الجنوب والوسط ، وان ينشىء حزاما قويا يضم هاتين المنطقتين وعلى الاخص جمهورية جنوب

---

(١) المصدر السابق • اهرام ١٩٦٦/٤/٦ •

افريقية ، وجنوب غرب افريقية ، وروديسيا الجنوبية ، وانجـــولا ، وموزمبيق والكونغو وهى المناطق الغنية بالمعادن وخاصة النحاس . كما انشأ حزاما آخر فى الشمال من ليبيا الغنية بالزيت وتونس والمغرب . وبذلك أصبحت الدول المتحررة فى وسط القارة واخصـــها الجمهورية العربية المتحدة بين فكى كماشة استعمارية .

وتأييدا ، وحمـــــاية ، لهذين الحزامين الكثيفين نجح الاستعمار الجديد فى ان يقوم أخيرا بعدة انقلابات سريعة خاطفة كالآتى :

١ ـ انقلاب بوروندى فى ١٩ اكتوبر ١٩٦٥
٢ ـ انقلاب الكونغو ليوبولدفيل فى ٢٥ نوفمبر ١٩٦٥
٣ ـ انقلاب داهومى فى ٢٢ ديسمبر ١٩٦٥
٤ ـ انقلاب افريقية الوسطى فى ١ يناير ١٩٦٦
٥ ـ انقلاب فولتا العليا فى ٣ يناير ١٩٦٦
٦ ـ انقلاب نيجيريافى ١٦ يناير ١٩٦٦
٧ ـ انقلاب غانا فى ٢٤ فبراير ١٩٦٦

ولقد تنبأ المراقبون السياسيون بتأهب الاستعمار الجديد للزحف نحو المناطق الباقية من القارة بعد أن بدأ يهـــاجم على جبهة عســـكرية وسياسية واقتصادية ونفسية واسعة ، وبعد ان بدأت الرجعية العربية تتحول من موقف الانكماش والتقوقع الى موقف الانطلاق ، والدعاية لأحلاف استعمارية كالحلف الاسلامى ، والصلح مع اسرائيل .

ويضيفون الى تلك الحوافز البارزة على الهجوم الاستعمارى الجديد ذلك التمزق الواضح فى المعسكر الشيوعى بين روسيا والصين بسبب خلافهما العقائدى ، وتدخل أمريكا كقوة استعمارية صريحة فى جميع المناطق التى يريد أن يثبت فيها الاستعمار الجديد أقدامه (١) .

---

(١) انظر مقال : القاهرة هدف الزحف الاستعمارى الرجعى الجديد للاستاذ محمد حسنين هيكل . ملحق الأهرام الصادر فى ١٩٦٦/٤/٨ .

# أهم المراجع العربية


- افريقيا تحت أضواء جديدة : باذل دافدسن . ترجمة جمال م. احمد ( نشر دار الثقافة ـ بيروت ) .
- نمو الحضارة : و. أ. برى . ترجمة لويس اسكندر ( باشراف وزارة الثقافة ) .
- نهر النيل : د. محمد عوض محمد .
- تاريخ مصر وافريقيا فى العصر الحديث : د. على ابراهيم عبده .
- تاريخ افريقية : رولاند اوليفر ( بالاشتراك ) . ترجمة د. عقيلة محمد رمضان .
- النظم الاسلامية : د. حسن ابراهيم ( بالاشتراك ) .
- تراث الاسلام : مقالات لمجموعة من المستشرقين . ترجمة د. حسين مؤنس ( نشر لجنة الجامعيين لنشر العلم ) .
- الدين والحضارة الانسانية : د. محمد البهى ( نشر دار الهلال ) .
- كيف تفكر أفريقية : و . أ . ابراهيم . ترجمة خيرى حماد .
- دفاع عن الزنوج : أحمد محمد عطية .
- اضطهاد الزنوج فى أمريكا : طاهر عبد الحكيم .
- التفرقة العنصرية فى افريقية : د. فؤاد الصقار .
- الدفاع الاقتصادى ضد الاطماع الاستغلالية الاسرائيلية : محمد عبد العزيز أحمد ( بالاشتراك ) .
- سجل الارهاب الصهيونى : من مطبوعات الدار القومية .
- المجتمع ومشاكله : جروف سامويل . ترجمة ابراهيم رمزى .
- موجز تاريخ العالم : هـ. ج. ويلز . ترجمة عبد العزيز توفيق جويد
- افريقيا وراء الصحراء : صلاح صبرى .
- الجغرافية السياسية لافريقية : د. فيليب رفله .

- داخل افريقية : جون جنتر • ترجمة باشراف حسن جلال العروسى ( نشر مؤسسة فرانكلين ) •
- البرتغال فى افريقية : جيمس دفى • ترجمة جاد طه •
- نهاية الاستعمار البرتغالى : محمد هنائى •
- الحرية المدنية فى جنوب افريقية : ادجار •هـ• بروكس (بالاشتراك) ترجمة محمود أحمد حسين •
- الاستعمار الجديد : د• قوامى نكروما • ترجمة خيرى حماد ( من مجموعة جريدة الاهرام ) •
- قضية كينيا : د• عبد العزيز كامل ( سلسلة المكتبة الثقافية ) •
- الحرب الاقتصادية : صلاح نصر •
- القومية الأفريقية : ندا بانتجى سيتهول . ترجمة عبد الواحد ابراهيم الامبابى •
- الاستعمار البرتغالى فى افريقية : فيكتور سيدنكو • ترجمة سلسلة قضايا سياسية •
- جنوب افريقية أمس وغدا • امبروز ريفز • ترجمة مرقص صليب •
- أضواء وآراء فى القومية والحرية والاشتراكية : خيرى حماد •
- ميلاد افريقيا : محمود الشرقاوى •
- شمال افريقية : أمين شاكر ( بالاشتراك ) سلسلة اخترنا لك عدد ٨ •
- التفرقة العنصرية فى جنوب افريقية : ابراهيم عبد الفتاح خليفة ( سلسلة كتب سياسية ) •
- التفرقة العنصرية فى افريقية : صلاح الدين بدير •
- الملونون : يحيى عاكف •
- سياسة التفرقة العنصرية فى جنوب افريقية واهدار حقوق الانسان ( تقرير اللجنة الدولية للقانونيين بسويسرا ) ترجمة كتب سياسية•
- التفرقة العنصرية : د• أحمد سويلم العمرى •
- السوق الافريقية المشتركة : محمد الجبالى •
- افريقيا تتكلم : جيمس دفى ( بالاشتراك ) ترجمة عبد الرحمن صالح
- التطور الاقتصادى الحديث فى افريقية : د• راشد البراوى •
- دراسات فى اقتصاديات القارة الافريقية : فؤاد محمد شبل •
- اسرائيل الزائفة : فريد عبد الله جورجى •
- مصير أفريقيا : ايف ديسار . ترجمة غياث حجار .

- افريقيا الحرة : د. احسان حقى ( نشر المكتب التجارى ــ بيروت ) .
- التضامن الافريقى الاسيوى : د . شوقى الجمل .
- افريقيا الثائرة : البير تيودجرى . ترجمة سعيد الغز ( بالاشتراك ) من منشورات المكتب التجارى ببيروت .
- منظمة الوحدة الأفريقية : د . بطرس بطرس غالى .
- أفريقية الأرض والناس : العميد . محمد عبد الفتاح ابراهيم .
- تقرير مكتب العمل الدولى بجنيف عن التفرقة العنصرية .
- مجموعة جريدة الأهرام .
- مجموعة مجلة نهضة افريقية
- مجموعة مجلة الكاتب .
- مجموعة مجلة الهلال

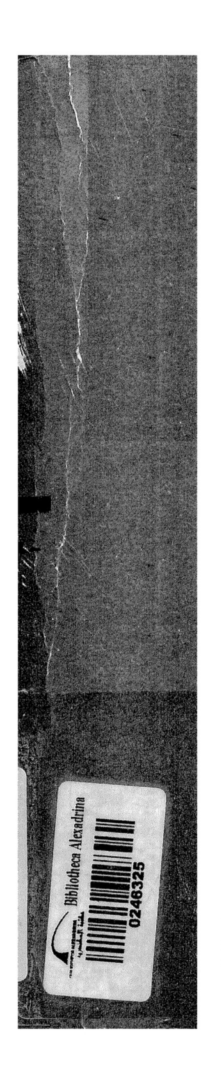
# أهم المراجع الأجنبية

1 — Africa : Dreck karthon.
2 — African Nationalism : Ndabaniningi Sithole.
3 — The unification of south Africa : L.M. Thompson.
4 — Inside Africa : Jhon Junther.
5 — An African Survey : Lord Haily.
6 — The New west Africa : Davidson Basil.

# فهرس

صفحة

صفحة




دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة

العدد ٢٠٢
ص
الثمن ٣٠
١٩٦٧/١/٢٩